النّظامي العروضي السمرقندي

المقالات الأربع

في الكتابة والشعر والنجوم والطب

وعليه خلاصة حواشي العلامة

محمد بن عبد الوهاب القزويني



منشورات الجمل

النّظامي العروضي السمرقندي، **المقالات الأربع**

النّظامي العروضي السمرقندي

المقالات الأربع

(چهار مقاله)

في الكتابة والشعر والنجوم والطب

وعليه خلاصة حواشي العلامة

محمد بن عبد الوهاب القزويني

نقله إلى العربية

عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب

منشورات الجمل

النّظامي العروضي السمرقندي، المقالات الأربع (چهار مقاله)
في الكتابة والشعر والنجوم والطب، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

©Al-Kamel Verlag 2016
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

هذا كتاب مجمع النوادر المعروف باسم «چهار مقاله» أي المقالات الأربع وهو من أقدم الكتب الفارسية التي عالجت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس.

وقد طبع هذا الكتاب في «سلسلة ذكرى چب»(*)، بعد أن حظي بعناية العالم المحقق الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزويني. وحسب الكتاب وقرّائه والباحثين في موضوعاته أن يتناوله العلّامة القزويني على طريقته في التحقيق والتدقيق، والتصحيح والتعليق.

صحّح الناشر الكتاب بعد أن قابل بين نسخه المخطوطة وكتب عليه حواشي أبانت عن الصواب في روايات أخطأ فيها مؤلفه، وأوضحت ما انبهم من الأسماء والحوادث التي ذكرت فيه، وزادت فوائد ونوادر لا تقل قيمة عن الكتاب نفسه.

(*) Gibb Memorial Series.

المقدمة الفارسية التي كتبها العلّامة القزويني لا تدع مقالاً لقائل فقد اعتمدنا عليها وأخذنا منها ما يتصل بالكتاب ومؤلفه في هذه المقدمة.

ـ ١ ـ

الكتاب

اجتمعت لكتاب چهار مقاله أمور جعلت له خطراً كبيراً بين كتب التاريخ والأدب. فهو من الكتب الفارسية القديمة، ألّف في حدود سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥ ـ ١١٥٦) ومعلوم أنّ الكتب والآثار الأدبية التي كتبت باللغة الفارسية قد ضاع معظمها في الغارات التي شنّها على إيران المغول والغز وغيرهم ولم يبق من هذه الكتب إلّا القليل ومنها كتاب «چهار مقاله»، الذي يعدُّ من خير هذه الآثار وأقومها.

وأمر آخر تزيد به قيمة الكتاب هو اشتماله على كثير من المطالب التاريخية وتراجم لمشاهير الأعلام الذين لم يرد ذكرهم في غيره من كتب الأدب والتاريخ.

وهو مهم أيضاً في إنشائه من حيث إيجاز اللفظ وإشباع المعنى وسلاسة الأسلوب وخلوّه من المتعاطفات المترادفة والأسجاع الثقيلة والصناعة اللفظية المتكلفة التي جرى عليها أغلب الكتّاب المتأخرين، فهو يصح مثلاً يحتذى وأنموذجاً يتّبع لكتاب الفرس المحدثين.

والكتاب، كما يدل اسمه، أربع مقالات: في بيان ما تتّصف به الطوائف الأربع التي يحتاج إليها الملوك وهم الكتّاب والشعراء والمنجمون والأطباء. فيذكر المصنف ما ينبغي أن يتوفر لكل طبقة من

صفات، ثمّ يعقب ذلك بما يقرب من عشر حكايات تناسب المقام.

وللمقالة الثانية، في الشعر، مكانة خاصّة لأنّها تحوي أسماء كثير من شعراء إيران المتقدمين الذين عاصروا السامانيين والغزنويين والخانيين والديالمة والسلاجقة والغوريين؛ كما أنّها تحوي تراجم بعض مشاهيرهم مثل الرودكي والعنصري والفَرُّخي والمعزي والفردوسي والأزرقي والرشيدي ومسعود سعد سلمان.

وامتازت المقالة الثالثة بحديث عن عمر الخيام، وكان نظامي من معاصريه وقد رآه وسمع عنه.

* * *

عرفت قيمة «چهار مقاله» منذ صنّفه نظامي العروضي وتداوله الكتّاب لخطر موضوعه. وقد يسّر إيجازُه استنساخه فنقلت عنه معظم كتب التاريخ والأدب. وأقدم الكتب التي نقلت عنه «تاريخ طبرستان» لمحمد بن الحسن بن اسفنديار الذي ألّف قرب سنة ٦١٣هـ (١٢١٦ ـ ١٢١٧م) أي بعد تأليف «چهار مقاله» بنحو ستين سنة(+). ثمّ نقل عنه «تاريخ گزيده» لحمد الله المستوفي (٧٣٠هـ ـ ١٣٢٩ ـ ١٣٣٠م)، و«تذكرة الشعرا» لدولت شاه (٨٩٢هـ ـ ١٤٨٧م)، و«نگارستان» للقاضي أحمد الغفاري (٩٥٩هـ ـ ١٥٥٢م) وغيرها.

* * *

واسم الكتاب «مجمع النوادر» ولكنّه اشتهر باسم «چهار مقاله» لاشتماله على المقالات الأربع التي ذكرنا. وقد توهم بعض

(+) نقل ابن اسفنديار الفصل الخاص بالفردوسي والسلطان محمود نقلاً حرفياً ولكنّه لم يذكر المصدر الذي نقل عنه.

الكتّاب[*] أنّ «مجمع النوادر» و«چهار مقاله» كتابان مختلفان من تأليف نظامي العروضي. وممّن وَهِم في هذا الحاج خليفة[**].
والحقيقة أنّ الاسمين يطلقان على كتاب واحد، أوّلهما علم موضوع للكتاب والثاني علم بالغلبة. ودليل ذلك أنّ حمد الله المستوفى في كتابه «تاريخ گزيده» يذكر «مجمع النوادر» وحده وينقل عنه كثيراً، كحكاية الرودكي والأمير نصر الساماني في هراة وقصيدة الرودكي المشهورة:

ما يزال يهبّ علينا عَرف جيحون وما يزال يهبّ علينا عَرف الحبيب[+]

وحكاية تاش وما كان بن كاكي وجملة «أما ما كان فصار كاسمه والسلام[++]»، وسؤال الأمير نظامي العروضي أيوجد نظامي غيرك فقال على البديهة:

(*) الرازي في كتابه «هفت اقليم».

(**) فقد ذكر الاسمين في موضوعين من كتابه بصورة تفيد أنّه ظنّ أنّهما يطلقان على كتابين مختلفين. والمعروف أنّ حاجي خليفة لم يقصر حديثه على الكتب التي رآها بنفسه بل أدخل في كتابه الكتب التي سمع عنها أيضاً، ومن اليسير التفرقة بين الاثنين. يقول عن «چهار مقاله»: فارسي لنظام الدين أحمد ابن علي العروضي السمرقندي الشاعر، ذكر فيه أنّه لا بد للملك من الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب، فذكر لكلّ صنف مقالة. ويقول عن «مجمع النوادر»: فارسي لنظام الدين أبي الحسن أحمد بن عمر بن علي بن المكي (كذا) العروضي السمرقندي.

(+) بـوي جـوي مـولـيـان آيـد هـمـي   بـوي يـار مـهـر بـان آيـد هـمـي

(انظر المقالة الثانية).

(++) انظر المقالة الأولى.

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظامِيِّين تدوّي الدنيا باسمنا(+).

ثمّ إنّ القاضي الغفاري يذكر في مقدمة «نگارستان» ما يقرب من ثلاثين كتاباً مشهوراً في الأدب والتاريخ والتراجم والمسالك والممالك وغيرها، ويذكر من جملتها كتاب «مجمع النوادر» لنظامي العروضي ثمّ ينقل عدّة حكايات منه كلّها مذكورة في «چهار مقاله»، منها قصة رؤية المؤلف عمر الخيام في بلخ وحكاية السلطان محمود مع أبي العباس خوارزمشاه ومن كان في بلاطه من أهل العلم كأبي علي بن سينا وأبي الريحان البيروني وأبي الخير الخمار وغيرهم، ومنها قصة الوزير نظام الملك الطوسي مع الحكيم الموصلي في نيسابور. وهو يقول في مطلع أغلب هذه الحكايات «جاء في مجمع النوادر» أو «ذكر صاحب مجمع النوادر» أو «مسطور في مجمع النوادر». وهذا دليل قاطع على أنّ «مجمع النوادر» و«چهار مقاله» اسمان لكتاب واحد.

ويؤيد هذا أيضاً أنّ رضا قليخان يذكر في مقدمة كتابه «مجمع الفصحا» كتاب «چهار مقاله» ضمن مصادره فيقول: «مجمع النوادر لنظامي العروضي المشهور بالسمرقندي الموسوم بـ «چهار مقاله» وهذا صريح في أنّ الاسمين لكتاب واحد.

* * *

لم يبيّن المؤلف تاريخ تأليف كتابه، ولكن الظاهر أنّه لم يتأخر عن سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م)، السنة التي توفي فيها السلطان سنجر

(+) در جهان سه نظا مئيم اي شاه — كـه جـهـان ز مـا بـافـغـا نـنـد

(انظر المقالة الثانية).

السلجوقي، فإنّ الكتاب أُلّف أثناء حياة هذا السلطان. فالمؤلف يدعو له فيقول «أطال الله بقاءه وأدام إلى المعالي ارتقاءه». ويذكره مرّة أخرى مع السلطان علاء الدين الغوري ويقول «خلّد الله ملكهما وسلطانهما». والظاهر أيضاً أنّ الكتاب لم يؤلف قبل سنة ٥٥١هـ (١١٥٦) لأنّه يذكر في الكتب التي ينبغي للكاتب قراءتها وحفظها، «مقامات الحميدي»(+) وهذه المقامات أُلّفت سنة ١١٥٦/٥٥١. فتاريخ تأليف الكتاب بين سنتي ٥٥١ و٥٥٢ هجرية.

* * *

ومع ما للكتاب من القيمة العلمية والأدبية قد وقع صاحبه في بعض الأغلاط التاريخية من خلط في أسماء الأشخاص وتقديم وتأخير في السنين وتهاون في ضبط الوقائع. وقد صحّح العلّامة القزويني هذا كلّه في حواشيه.

(+) ص ١٣ طبعة جب التذكارية.

- ٢ -

المصنف

وأمّا المصنف نفسه فلا نجد في التذاكر ما يعرّف به وبسيرته. وأقدم من كتب عنه العوفي في كتابه «لباب الألباب» الذي ألّف حوالي سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) أي بعد تأليف «چهار مقاله» بما يقارب من ستين سنة. ومع قرب العهد بين صاحبي اللباب و«چهار مقاله» قد اقتصر العوفي في ترجمة العروضي(*) على العبارات المسجعة ولم يذكر شيئاً عن حياته، وقد عزا إليه خمس قطع من الشعر الضعيف لا تدل على شيء؛ وحينما تحدّث عن الرودكي في موضع آخر، ذكر بيتين من الشعر نسبهما لنظامي العروضي(**):

يا من تطعن في شعر الرودكي، إن طعنك جهل وصغار
فإن من يقدر الشعر يعرف أنّ الرودكي ملك الأشعار(+).

(*) ج٢، ص٢٠٧، ٢٠٨، من طبعة Browne.

(**) ج٢، ص٧.

(+) اي آنكه طعن كردي در شعر رودكي
اين طعن كردن توز جهل است وكودكيست
كآن كس كه داند داند كه درجهان
صاحب قران شاعري أستاذ رودكيست

ثمّ جاء ذكر العروضي في «تاريخ گزيده» لحمد الله المستوفي القزويني، وهو مؤلف في سنة ٧٣٠/ ١٢٣٢. قال إنّه كان معاصراً لنظامي الگنجوي وإنّ من مصنّفاته كتاب «مجمع النوادر» وإنّ له أشعاراً جميلة، ويقال إنّ السلطان سأله من غيرك يحمل اسم نظامي فقال الأبيات التي مطلعها:

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوّي الدنيا باسمنا.

وتحدّث عنه دولتشاه صاحب «تذكرة الشعرا» المؤلفة سنة ٨٩٢/ ١٤٨٦ فقال إنّ نظامي العروضي كان مقرّباً من الملوك، فاضلاً، لطيف الطبع، وهو من تلاميذ المعزّي وكان مجيداً في نظم الشعر، وقد نظم قصة «ويس ورامين». ويقال إنّ الشيخ الكبير نظامي الگنجوي نظم هذه القصة قبل «الخمسة»(+). ومن تصانيف العروضي كتاب «چهار مقاله». ثمّ يصف دولتشاه هذا الكتاب بأنّه «مفيد كلّ الإفادة في آداب المعاشرة والحكمة العملية ومعرفة رسوم خدمة الملوك وغير ذلك»، ويذكر بعد ذلك بيتاً من منظومة «ويس ورامين» للعروضي وهو:

قد سمي آرش بصاحب القوس لأنّه رمى سهماً من آمل إلى مرو(++).

ولكن دولتشاه عاد، في حديثه عن الگنجوي، فنفي نسبة «ويس ورامين» إلى العروضي ورجح نسبتها إلى الگنجوي. قال «وقد نظم الشيخ قبل «الخمسة» وهو في شبابه قصة «ويس ورامين» باسم

(+) إشارة إلى خمسة نظامي وهي المشهورة بالكنوز الخمسة (بنج كنج) وهي: مخزن الأسرار خسرو وشيرين، ليلى والمجنون، هفت بيكر واسكندر نامه.

(++) از آن خوانند آرش راگمان گير   كه از آمل بمرو انداخت أو تير

السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ويقال إنّها من نظم نظامي العروضي، والصحيح أنّها من نظم الشيخ الكبير نظامي فإنّ العروضي كان معاصراً ملكشاه ولا شك أنّ القصة نظمت باسم السلطان محمود وهو أقرب إلى عهد نظامي(+).

والمؤرخ الرابع الذي تحدّث عن العروضي هو أحمد أمين الرازي في كتابه «هفت إقليم» المؤلف سنة ١٠٠٢/ ١٥٩٣. وهو يثني على العروضي ويجعله من المبرزين في نظم المثنوي ويقول إنّ له كتابَي «مجمع النوادر» و«چهار مقاله» وهما منشوران، وقد جعله نور الدين محمد العوفي في تذكرته من شعراء السلطان طغرل بن أرسلان السلجوقي، وهو ينسب نفسه إلى الغوريين في «چهار مقاله»... ثمّ يذكر صاحب «هفت إقليم» آخر حكاية في المقالة الثالثة من «چهار مقاله» ويروي الأشعار التي ينسبها صاحب «لباب الألباب» إلى العروضي ويزيد عليها قطعة.

هذا هو ما ورد في التذاكر الأربع، وقد نقلت عنها الكتب الأخرى، على أنّ ما ورد في الكتب الأربعة لا يفيد كثيراً في التعريف بالعروضي.

والحق أنّه كان ينظم الشعر (ص٤٠ ـ ٤٢) وأنّه كتب «چهار مقاله» وهو كما قلنا من أحسن نماذج الإنشاء الفارسي. وأنّه ناقش

(+) قال القزويني في مقدمته: إنّ المؤرخين وأصحاب التذاكر مجمعون على أنّ «ويس ورامين» من نظم فخر الدين أسعد الگرگاني وليست من عمل نظامي العروضي أو نظامي الگنجوي. وقد جمع الحاج خليفة بين القولين رفعاً للنزاع فنسب نظم «ويس ورامين» لفخري الگرگاني ولنظامي العروضي، وهذا خطأ أفحش من خطأ دولتشاه (ص يز من المقدمة، وحاجي خليفة، ج٦، ص٤٦٨، طبعة فلوجل Flügel).

موضوع «الآثار العلوية» (ص٥) في كتاب لا ندري اسمه. وكان العروضي، فيما عدا النثر والشعر، ماهراً في فني النجوم والطب، ودليل ذلك ما ورد في حكايتين في المقالتين الثالثة والرابعة[*]. وليس لدينا علم بسيرته وتاريخ مولده وسنة وفاته. ولكنّا نجد في ثنايا «چهار مقاله» ما يلقي بعض الضوء على سيرة الرجل. فالكتاب ألّف باسم أحد أمراء الغوريين، أبي الحسين حسام الدين[**]، وكان العروضي من خواص ملوك هذه الأسرة. وقد نص على أنّه كان في الخامسة والأربعين من عمره حين التحق بخدمتهم[+]. وفي المقالة الثانية يعدّ العروضي نفسه من الشعراء الذين خلّدوا اسم الملوك الغوريين[++].

ويبدو من العبارات الكثيرة التي تحدّث فيها المصنف عن نفسه في ثنايا كتابه أنّه اشتهر في النصف الأوّل من القرن السادس الهجري. وأنّه وُلد قبل سنة ٥٠٠ وعاش حتّى سنة ٥٥٢ على الأقل وخلاصة هذه العبارات:

سمع في سنة ٥٠٤/ ١١١٠، وكان في سمرقند حيث ولد، بعض روايات عن الرودكي من الدهقان «أبو رجا» (ص٣٣).

وكان في مدينة بلخ سنة ٥٠٦/ ١١١٢، في خدمة عمر الخيام، وسمع في مجلس الطرب تنبؤ الخيام بالمكان الذي يدفن فيه (ص٦٣).

وفي سنة ٥٠٩/ ١١١٥ كان في هراة (ص٤٤).

(*) ص ٦٥ ـ ٦٧، ٨٧، ٨٨ من «چهار مقاله» طبع جب التذكارية.

(**) انظر الحواشي عن الغوريين أو آل شنسب.

(+) ص٣ من النص الفارسي.

(++) ص٢٨ من النص الفارسي.

وفي سنة ١١١٦/٥١٠ اتصل بالسلطان سنجر وكان مقيماً عند حدود طوس، وهناك اتصل بأمير الشعراء المُعزّي وقرأ عليه شعره فاستحسنه وشجعه (ص٤٠ ـ ٤٣).

وفي هذه الرحلة زار قبر الفردوسي (ص٥١). وفي هذه السنة نفسها نجده في نيسابور (ص٩).

وفي سنة ١١٨/٥١٢ كان في نيسابور أيضاً (ص٦٩). وفي هذا البلد سمع عام ١١٢٠/٥١٤ من المعزّي قصة السلطان محمود مع الفردوسي (٥٠ ـ ٥١).

وفي سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) ذهب إلى نيسابور وزار قبر الخيام ورأى بعينيه تحقق ما قاله قبل أربع وعشرين سنة (ص٦٣).

وفي سنة ١١٥٢/٥٤٧ كان العروضي مرافقاً للسلطان علاء الدين الغوري في محاربة السلطان سنجر السلجوقي في صحراء أوبة على حدود هراة حيث اختفى زمناً بعد هزيمة الغورية (ص٦٥ ـ ٦٧، ٨٧ ـ ٨٨).

وقد رأينا من قبل أنّه كتب كتابه بين سنتي ٥٥١ و٥٥٢ هجرية. ولا يعرف عنه شيء بعد ذلك(*).

(*) أرقام الصفحات المذكورة هنا تشير إلى النص الفارسي لطبعة جب التذكارية.

ـ ٣ ـ

الحواشي

وصاحب الحواشي، محمد القزويني، في غنى عن التعريف. فهو العلّامة المحقق الذي يعرفه مؤرخو الآداب والحياة العقلية الإسلامية بأبحاثه القيّمة وتحقيقاته التاريخية العميقة الدقيقة التي مكّنه منها رجوعه إلى المخطوطات المبعثرة في مكاتب أوروبا وآسيا وإلى الكتب القديمة والبحث فيها في مثابرة وجد للكشف عن الحقيقة التي ينشدها. وسيجد القارىء العربي هذا المجهود الضخم الذي اضطلع به القزويني في حواشيه، وسيرى المؤرخون إلى أي حد كشف هذا العالم عن بعض القضايا الغامضة فأوضحها وجلاها.

وقد أقام القزويني في أوروبا مدّة طويلة واعتمد عليها المستشرقون في نشر الكتب الفارسية القيمة. وزرناه في باريس أكثر من مرّة. وحدّثه الدكتور عبد الوهاب عزام عن ترجمة «چهار مقاله» وحواشيه عليها إلى العربية فسرّه هذا وقال إنّه كتب حواشي أخرى كثيرة بعد طبع الكتاب.

ولم يتيسر لنا الاطلاع على الحواشي الجديدة إذ لم تنشر حتّى اليوم فيما نعلم، ولعلنا نزيد بعض هذه الحواشي في الطبعة الثانية لهذه الترجمة إن شاء الله.

چهار مقاله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد والشكروالثناء لذلك الملك الذي خلق عالم العود والمعاد بتوسط الملائكة الكروبيين والروحانيين، وبرأ عالم الكون والفساد بتوسط ذلك العالم. ودبره بالأمر والنهي عن الأنبياء والأولياء، وحفظه بالسيف والقلم في أيدي الملوك والوزراء.

والصلاة على سيّد الكونين أكمل الأنبياء، والسلام على أهل بيته وأصحابه أفضل الأولياء.

ثمّ الثناء على سلطان الوقت، الملك العالم العادل المؤيد المظفر المنصور (حسان الدولة والدين نصرة الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشركين قاهر الزنادقة والمتمرّدين عمدة الجيوش في العالمين، افتخار الملوك والسلاطين، ظهير الأيام، مجير الأنام، عضد الخلافة، جمال الملة جلال الأمّة، نظام العرب والعجم، أصيل العالم، شمس المعالي، ملك الأمراء أبو الحسن علي بن مسعود[١] نصير أمير المؤمنين)[*].

جعل الله حياته على مرامه، وأكثر الناس طوع سلطانه، ونظام ذرية آدم بتدبيره واهتمامه. فهو اليوم أفضل سلاطين الوقت في الأصل

(*) ما بين القوسين كتبه المؤلف بهذه العبارات العربية.

والنسب والرأي والتدبير، والعدل والإنصاف، والشجاعة والسخاوة، وتزيين الملك، وترتيب الولاية، ورعاية الصديق، وقهر العدو، وحفظ الجيش وحراسة الرعية، وتأمين المسالك، وتسكين الممالك، بالرأي السديد والعقل الرشيد، والحزم القويّ، والعزم الماضي. فسلسلة آل شَنْسَب بجماله منضدة ومنظّمة، ويد دولة هذه الأسرة بكماله مؤيدة ومسلّمة، متّعهُ الله وملوك أسرته بالمُلك والمِلك، والتخت والبخت، والصيت والظفر، والأمر والنهي بمنّه وعميم فضله.

فصل

مضى الناس منذ عهد بعيد، ودرجوا على هذا الرسم القديم أنّ المؤلف في فاتحة الكلام وديباجية الكتاب يذكر طرفاً من محامد المخدوم، ويدعو قليلاً للممدوح.

ولكنّي أنا العبد المخلص، سأجعل في هذا الكتاب، مكان المدح والثناء على السلطان، تذكيره بالنعم التي أنعم بها الباري تعالى وتقدّس على هذا السلطان ابن السلطان لتعرض على رأيه السديد، فيشكر هذه النعم، فقد جاء في الكتاب غير المخلوق، والكلام غير المحدث: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(+) فإن شكر العبد كيمياء إنعام الرب المنعم.

فليعلم هذا السلطان الكبير والملك العظيم أنّه لا يلقى اليوم على هذه الكرة الغبراء، تحت هذه المظلة الزرقاء ملك أكثر رفاهية، من

(+) سورة ١٤، آية ٧.

هذا السيد؛ ولا كبير أظفر بمراده من هذا الملك، فموهبة الشباب قائمة، ونعمة الصحة ثابتة، والأبوان في نعمة الحياة، والأخوة من اليمن واليسار في طاعته. وأي أب كالسيد الملك المعظم، المؤيد المظفر المنصور فخر الدولة والدين كسرى إيران، (ملك الجبال أطال الله بقاءه، وأدام إلى المعالي ارتقاءه) فهو أعظم سلاطين الوقت، وأفضل ملوك العصر بالرأي والتدبير، والعلم والحِلم، والعُدّة والعدد، والكنوز والخزائن، قد نصب نفسه مِجّناً دون أبنائه بعشرة آلاف فارس رامح حتّى لا تهب الصبا شديدة، على أحد من عبيده.

وفي الستر الرفيع، والخدر المنيع أدام الله رفعتها، داعية كلّ دعوة منها، في صميم السحر على السدة الإلهية، ترد الجيش الجرار، والجند الكرار.

وأخ كالسيد ابن السيد (شمس الدولة والدين، ضياء الإسلام والمسلمين عز نصره) الذي بلغ الغاية والنهاية في خدمة هذا السيد أدام الله علوّه، وهذا السيد والحمد لله، لم يدخر وسعاً في المجازاة والمكافأة، بل يرى الدنيا منيرة بوجهه، ويمضي العمر حلواً بجماله.

وأخرى من النعم أكبر أنّ المنعم ذا الكمال، والواهب المنزّه عن الزوال، متّعه بعمّ كسيد العالَم وسلطان الشرق (علاء الدين والدنيا أبو علي الحسين بن الحسين اختيار أمير المؤمنين أدام الله عمره وخلد ملكه) في خمسين ألف دارع مَجاهد قهروا جيوش العالم كلها، وقهروا ملوك العصر أجمعين.

والله تبارك وتعالى يرفق كلّاً بالآخر، ويمتع بعضهم ببعض، وينير العالم بآثارهم بمنّه وجوده وكرمه.

اوّل الكتاب

أراد العبد المخلص والخادم المتخصص أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي ـ وهو منذ خمس وأربعين سنة بخدمة هذا البيت موسوم، وبرحم عبودية هذه الدولة مرقوم ـ أن يخدم المجلس الأعلى السلطاني أعلاه الله بكتاب مرتّب على قوانين الحكمة بحجج قاطعة وبراهين ساطعة، ويبين فيه ما السلطنة، وما السلطان ومن أين هذا التشريف ولمن هذا الإكرام، وهذا الحمد كيف يوخّى به، وهذه المنّة كيف تتلقّى ليكون ثاني سيد ولد آدم، وثالث خلق العالم كما جاء في الكتاب المحكم والكلام القديم نظم لآلئ هذه الأسماء في سلك واحد، وتجليتها في سمط مفرد قوله عزّ وجل: ﴿...أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(+) فليس في مدارج الموجودات، ومعارج المعقولات بعد النبوة التي هي غاية مراتب الإنسانية، مرتبة وراء المُلك وذلك الفضل من الله.

والله عزّ وجل جعل سلطان الوقت في هذه المنزلة، وأوجب له هذه الرتبة ليسير على سنن الملوك الماضين، ويرشد الرعايا إلى نهج القرون السالفة.

فصل

ليعلم الرأي العالي أعلاه الله أنّ الموجودات لا تعدو اثنين: إمّا موجود وجوده بنفسه، وإمّا موجود وجوده بغيره. فالموجود الذي وجوده بنفسه يسمّى واجب الوجود، وهو الباريء تقدّس وتعالى فهو

(+) سورة ٤، آية ٦٢.

موجود بنفسه، فقد كان أزلاً إذ لم يكن محتاج غيره وهو دائم أبداً لأنّه قائم بنفسه لا بغيره.

والموجود الذي وجوده بغيره يسمّى ممكن الوجود. وممكن الوجود مثلنا. لأنّ وجودنا من المنيّ، والمنيّ من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من الماء والأرض والشمس، ووجود هذه من شيء آخر. وكلّ هذه لم تكن بالأمس ولن تكون غداً.

وإذا استقصى المتأمل وجد سلسلة الأسباب هذه تنتهي إلى سبب لم يكن له وجود بغيره ووجوده واجب بنفسه فهو خالق الأشياء كلّها، وكلّها وجدت به، وهي به قائمة.

وإذا تفكّر الناظر قليلاً في هذا المقام تبيّن أنّ كلّ الموجودات وجود مشوب بالعدم وهو وجود متّصل بدوام الأزل والأبد.

ولأنّ أصل المخلوقات العدم جاز أن تعود إلى العدم. وقد قال أولو البصيرة من الناس (كلّ شيء يرجع إلى أصله) ولا سيما في عالم الكون والفساد. فنحن، ممكني الوجود، أصلنا العدم، وهو، واجبَ الوجود، عينه الوجود. وقد قال هو جلّ ثناؤه ورفع سناؤه في الكلام المبين والحبل المتين: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(+).

وينبغي أن يعلم أنّ هذا العالم الذي يقع في خلال فلك القمر وفي دائرة هذه الكرة الأولى يسمّى عالم الكون والفساد. وينبغي أن يُتصوّر أنّ في مقعّر فلك القمر ناراً وفلك القمر محيط بها، وفي داخل كرة النار الهواء والنار محيطة به، وفي داخل الهواء الماء والهواء محيط به، وفي داخل الماء التراب والماء محيط به، وفي وسط الأرض نقطة موهومة كلّ خط يمتدّ منها إلى فلك القمر يلاقي الآخر.

(+) سورة ٢٨، آية ٨٨.

وكلّما قلنا «تحت» فإنّما نريد هذه النقطة أو ما هو إليها أقرب. وكلّما قلنا «فوق» أردنا الفلك الأقصى أو ما هو أقرب إليه. وهو فلك فوق فلك البروج. وليس وراءه شيء والعالم الجسماني ينتهي إليه، أي هو درع له.

والله سبحانه وتعالى حين أراد بحكمته البالغة أن يخلق في هذا العالم المعادن والنبات خلق الكواكب ولا سيما الشمس والقمر، وربط كون هذه وفسادها بحركات تلك. وخاصية الشمس أن تُحمي الأشياء بالعكس (بالإشعاع) حين تلاقيها وبواسطة الحرارة تجذب إليها. فقد أحمت الماء بالملاقاة وبالحرارة جذبته مدّة طويلة حتّى انكشف ربع الأرض بسبب كثرة البخار الذي صعد من هذا الربع وارتفع.

وطبع الماء أن يقبل التحجر، كما يرى في بعض الأمكنة ويدرك برأي العين، فلذا ظهرت الجبال من الماء بحرارة الشمس، وصارت الأرض مرتفعة قليلاً في هذا الجزء وانحدر الماء عنها فيبست على مثال ما يدرك بالعين. فسمّي هذا الربع، الربع المكشوف بهذا السبب. ويُسمّى الربع المسكون أيضاً لأنّ للحيوانات فيه مسكناً.

فصل

ولما ظهرت آثار هذه الكواكب في أقطار هذه العناصر وانعكست من هذه النقطعة الموهومة ظهرت هذه الجمادات من بين الماء والتراب بمعونة الهواء والنار كالجبال والمعادن والسحاب والبَرَد والمطر والرعد والبرق والكواكب المنقضّة وذوات الذؤابة(*) والنيازك

(*) الكواكب المنقضّة وذات الذؤابة، من عبارات الأصل، وذو الذؤابة هو ما نسمّيه المذنّب.

والعصيّ والهالة والحريق والصاعقة والزلزلة والعيون المختلفة كما بيّنّا في «الآثار العلوية» ولا يتّسع هذا المختصر للبسط والشرح.

ولمّا مضى زمان وتواترت أدوار الفلك، ونضج مزاج العالم السفلي، وبلغت نوبة الانفعال هذه الفَرجةَ التي بين الماء والهواء، ظهر عالم النبات. ثمّ خلق الله تبارك وتعالى لهذا الجوهر الذي ظهر منه النبات أربعة خدّام وثلاث قوى. فأوّل الخدام الأبعة أن يجذب إليه كلّ ما يلائمه، وهذا يسمّى الجاذبة، والثاني أن يحفظ كلّ ما جذبت إليه الجاذبة وهذا يسمّى الماسكة. والثالث أن يهضم هذا المجذوب ويصيّره ملائماً لحاله حتّى يصير مشابهاً له، وهذا يسمّى الهاضمة. والرابع أن يدفع ما لا يلائمه، وهذا يسمّى الدافعة.

وأمّا القوى الثلاث فإحداها قوّة تنمّيه بنشر الغذاء في داخله نشراً مناسباً تساوياً، والثانية قوّة تصاحب هذا الغذاء ليبلغ الأطراف، والثالثة أنّه إذا بلغ الكمال وشرع يتناقص ظهرت فيه قوّة وأعطته البذر حتّى إذا فني في هذا العالم بقي ما ينوب عنه فيضان نظام العالم من الأختلال ولا ينقطع النوع، وهذه تسمّى القوّة المولّدة.

فهذا العالم يزيد على عالم الجماد بهذه المعاني التي ذكرت. وقد اقتضت حكمة الخالق البالغة أن يتّصل هذان العالمان أحدهما بالآخر على الترادف والتوالي، فترقى الطين، وهو أوّل شيء في عالم الجماد، وانتقل من رتبة إلى أشرف منها حتى صار مرجاناً، وهو آخر عالم الجماد، واتّصل هذا بأوّل شيء من عالم النبات، وأوّل عالم النبات الشوك وآخره التمر والعنب اللذان تشبّها بعالم الحيوان، فهذا يطلب الفحل ليثمر وذاك يفرّ من العدوّ، فإنّ الكرم يفرّ من العشَقة وهي نبات إذا التفّ بأغصان الكرم يبس، فيهرب الغصن منه.

فليس في عالم النبات أشرف من الكرم والنخل لهذه العلة وهي أنّهم تشبّها بالعالم الذي فوقهما، ونزعا إلى الخروج من دائرة عالمهما وترقيا إلى المستوى الأشرف.

فصل

ولمّا كمل هذا العالم وأثرت آباء العالم العلوي في أمهات العالم السفلي، وبلغت النوبة فرجة الهواء والنار نشأ ولد ألطف، وظهر عالم الحيوان، ومعه القوى التي للنبات وزاد عليها قوتين. قوة الإدراك وتسمّى المدركة، وبها يدرك الحيوان الأشياء، والثانية القوّة التي بها يتحرّك الحيوان، فيتجه إلى ما يلائمه، ويفرّ ممّا ينافره وتسمّى القوّة المحركة.

والقوّة المدركة تتشعّب إلى عشرة فروع؛ خمسة تسمّى الحواس الظاهرة، وخمسة تسمّى الحواس الباطنة. فالحواس الظاهرة كاللمس والذوق والبصر والسمع والشم.

فأمّا قوّة اللمس فهي قوّة منتشرة في لحم الحيوان وجلده فإذا مسّه شيء أحسته الأعصاب وأدركته من اليبوسة والرطوبة، والحرارة والبرودة، والصلابة واللين، والخشونة والنعومة.

وأمّا الذوق فقوّة مرتبة في العصب المنتشر على سطح اللسان تدرك الطعام المتحلل من الأجرام التي تماسّه. فتميز بين الحلو والمرّ والحريف والحامض وأمثالها.

وأمّا السمع فقوّة مرتبة في العصب المتفرق الذي في سطح الصماخ تدرك الصوت الذي يصل إليه من تموج هواء يضغط بين متقارعين، أعني جسمين يقرع أحدهما الآخر، فيتموج الهواء من

تقارهما ويحدث الصوت فيؤدّيه إلى هواء في تجويف الصماخ ويماسّه فيتّصل بهذا العصب فيكون السمع.

وأمّا البصر فقوّة مرتبة في العصبة المجوّفة تدرك الصورة التي تنطبع في الرطوبة الجليدية من الأشباح والأجسام الملوّنة بتوسّط جسم شفاف بينه وبين سطوح الأجسام الصقيلة.

وأمّا الشم فقوّة مرتبة في زيادة خارجة من مقدم الدماغ مثل حلمة الثدي تدرك ما يوصل إليها الهواء المستنشق من رائحة تخالطه أو البخار الذي يجلبه الهواء أو ينطبع فيه باستحالته من جسم ذي رائحة.

فصل

وأمّا الحواس الباطنة فبعضها تدرك صور المحسوسات، وبعضها تدرك معاني المحسوسات.

فأولاها الحس المشترك وهو قوّة مرتّبة في التجويف الأوّل من الدماغ قابلة بنفسها جملة الصور التي تقبلها الحواس الظاهرة وتنطبع فيها لتؤدّيها إلى هذه القوّة. وإنّما يكون المحسوس محسوساً حين تقبله.

والثانية الخيال وهي قوّة مرتبة في آخر تجويف مقدّم الدماغ تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الحواس الظاهرة فيبقى فيها بعد غيبة المحسوسات.

والثالثة القوّة المتخيلة ـ وحينما تذكر مع النفس الحيوانية تسمّى متخيلة، وحينما تذكر مع النفس الإنسانية تسمّى المفكرة ـ وهي قوّة مرتبة في التجويف الأوسط من الدماغ. وعملها أن تركب الجزئيات

التي في الخيال بعضها مع بعض وتفرّق بين بعضها وبعض باختيار الفكر.

والرابعة قوّة الوهم. وهي قوّة مرتّبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ. وعملها أن تدرك المعاني غير المحسوسة التي تكون في المحسوسات الجزئية. كالقوّة التي يميز بها الحمل بين أمّه والذئب، والطفل بين الرسن المرقش والثعبان.

والخامسة القوّة الحافظة، وتسمّى الذاكرة أيضاً. وهي قوّة مرتبة في التجويف الآخر من الدماغ. وهي تحفظ ما يدركه الوهم من المعاني غير المحسوسة. ونسبتها إلى قوّة الوهم كنسبة قوّة الخيال إلى الحسّ المشترك ولكن هذه تحفظ المعاني وتلك تحفظ الصور.

وكلّ هؤلاء خادمات النفس الحيوانية. وهي جوهر منبعه القلب. وحينما يعمل في القلب يسمّى الروح الحيواني. وحينما يعمل في الدماغ يسمّى الروح النفساني. وحينما يعمل في الكبد يسمّى الروح الطبيعيّ، وهو بخار لطيف ينبعث من الدم ويسري في أعلى الشرايين، وهو في الضوء كالشمس.

* * *

وكلّ حيوان فيه القوّتان المدركة والمتحركة وهذه القوى العشر المتشعبة منهما يسمّى حيواناً كاملاً. وكلّ ما نقصه بعضها ناقص مثل النملة لا عين لها، والثعبان الذي لا أذن له ويسمّى الثعبان الأصمّ. ولا أنقص من الخراطين وهي دودة حمراء تكون في طين النهر وتسمّى «آكلة الطين»[+]، وفيما وراء النهر تسمّى «غاكُ كرْمه»[٢]. فهي أوّل

(+) گل خواره.

الحيوان، وآخره النَسناس، وهو حيوان في فيافي تركستان (منتصب القامة ألِفيّ القدّ عريض الأظفار) ويحبّ الإنسان كثيراً فكلّما رأى إنساناً جاء إلى عرض الطريق وأدام النظر إليه وإذا رأى إنساناً منفرداً أخذه. ويقال إنه يلقح منه فهو بعد الإنسان أشرف الحيوان، لأنّه أشبه الآدمي في أشياء: الأوّل القامة المنتصبة والثاني عرض الأظفار، والثالث شعر الرأس.

حكاية

سمعت من أبي الرضا بن عبد السلام النيسابوري في نيسابور في المسجد الجامع سنة عشر وخمسمائة(+) قال:

كنّا نذهب إلى طمغاج(٣) في قافلة فيها بضعة آلاف جمل وبينما نسير في يوم حارّ رأينا على الرمل امرأة قائمة عارية الرأس والبدن في غاية الجمال، لها قدّ كالسرو ووجه كالقمر وشعر طويل، وهي تديم النظر إلينا. وقد كلمناها كثيراً فلم تجب. فلمّا قصدنا نحوها فرّت. وبلغ من عدوها في فرارها أن حصانا لم يدركها قط.

وكان المكارون في القافلة من الترك فقالوا إنّها إنسان وحشيّ يسمّى النسناس.

وينبغي أن يعلم أنّه أشرف الحيوان بهذه الأشياء الثلاثة التي ذكرت.

ولمّا زادت لطافة المزاج على كر الدهور ومرّ الأيام وبلغت النوبة الفرجة التي بين العناصر والأفلاك نشأ الإنسان. وقد جمع كلّ ما في عالم الجماد والنبات والحيوان وزاد عليها قبول المعقولات. وصار

(+) ١١١٦ ـ ١١١٧.

بالعقل ملكاً على كلّ الحيوانات وتصرّف فيها كلّها؛ فاتّخذ من عالم الجماد الذهب والفضة والجواهر لزينته. وصنع من الحديد والزنك والنحاس والرصاص والقصدير أوانيه وآلاته.

ومن النبات أُكُلا ولباساً وفراشاً، واتّخذ من عالم الحيوان مركباً وحُمولة. واتّخذ من العوالم الثلاثة أدوية وعالج بها نفسه. وقد تيسّر له كلّ هذا التفوّق بما عرف المعقولات. وبتوسّط المعقولات عرف الله. وإنّما عرف الله بما عرف نفسه (من عرف نفسه فقد عرف ربّه).

ثمّ هذا العالم إذاً ثلاثة أقسام: قسم قريب من الحيوان كسكان الصحارى والجبال الذين لا ترتقي هممهم فوق تدبير المعاش بجلب المنفعة ودفع المضرّة.

وقسم أهل البلاد والمدائن الذين لهم التمدّن والتعاون واستنباط الحرف والصناعات. وعلومهم مقصورة على تدبير الشركة التي بينهم ليبقى النوع.

والقسم الثالث هم الذين فرغوا من هذا كلّه. وعملهم ليلاً ونهار وسرّاً وجهاراً أن يفكروا ما نحن؟ وكيف وُجدنا؟ ومن الذي أنشأنا؟ أعني الباحثين عن حقائق الأشياء والمتأملين في مجيئهم وذهابهم: كيف جئنا وأين نذهب.

وهذا القسم نوعان أيضاً: نوع يبلغون كنه مطلوبهم بالتعلّم والتلقف والتكلف والقراءة والكتابة وهم يسمّون الحكماء. ونوع يبلغون منتهى هذه الفكرة بغير معلّم ودون كتابة، وأولئك يسمّون الأنبياء.

وخصائص النبي ثلاث: الأولى أن يعلم العلوم غير معلَّم. والثانية أن يخبر عن الماضي والمستقبل لا من طريق المثال والقياس. والثالثة أنّ لنفسه قوّة على أن ينزع من كلّ جسم يشاء صورته ويبدّل بها صورة

أخرى وهو لا يستطيع هذا إلّا أن تكون له مشابهة بعالم الملائكة. فليس في عالم الإنسان أكمل منه. أمره في مصالح العالم نافذ، لأنّ عنده كلّ ما عندهم، وزيادة ليست عندهم وهي اتصاله بعالم الملائكة. وهذه الزيادة تسمّى بالإجمال النبوّة، وبالتفصيل كما بيّنا.

وما دام هذا الإنسان حيّاً يبيّن للأمّة مصالح الدارين بأمر الباري عزّ اسمه وبواسطة الملائكة. فإذا توجّه إلى العالم الآخر بانحلال الطبيعة ترك من إشارات الباري عزّ اسمه ومن عباراته هو دستوراً يقوم مقامه.

ولا بدّ له من نائب في كلّ حين ليقيم شرعه وسنته. وهذا الشخص ينبغي أن يكن أفضل الجماعة وأكمل أهل الوقت ليحيي هذه الشريعة ويُمضي هذه السنة، ويسمّى الإمام. وهذا الإمام لا يستطيع أن يذهب إلى آفاق المشرق والمغرب والشمال والجنوب ليرعى القاصي والداني، ويبلغ أمره العاقل والجاهل. فلا بدّ له من نوّاب يقومون مقامه في أطراف العالم. وليس لكلّ منهم القوّة القاهرة التي تنفذ أمره. فلا بدّ من سائس ولا غنى عن قاهر وهذا السائس والقاهر يسمّى ملكاً وتسمّى هذه النيابة الملك. فالمُلكُ نائب الإمام، والإمام نائب النبي، والنبي نائب الله عزّ وجل. وما أحسن ما قال الفردوسي في هذا المعنى:

«اعلم أنّ النبوة والملك جوهران في خاتم واحد»(*).

وقد قال سيد ولد آدم: «الدين والملك توأمان». فهما في الشكل والمعنى لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص.

فينتج من هذا أنّه ليس بعد النبوة عبء أثقل من الملك ولا عمل

(*) چنان دان كه شاهي وپيغمبري   دو گوهر بود دريك انگشتري

أقوى من الملك، فلزم أن يكون حوله جماعة، يرجع إلى رأيهم ومشورتهم وتدبيرهم الحل والعقد في العالم، والصلاح والفساد بين عباد الله. وينبغي أن يكون كلّ واحد منهم أفضل أهل الوقت وأكملهم.

ثمّ الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب من خواصّ الملوك، ولا غنى للملك عنهم. فقوام الملك بالكاتب، وتخليد الاسم بالشاعر، ونظام الأمور بالمنجم، وصحة البدن بالطبيب. وهذه الأعمال الأربعة الشاقّة والعلوم الشريفة من فروع علم الحكمة، الكتابة والشعر من فروع علم المنطق، والتنجيم من فروع العلم الرياضي، والطب من فروع العلم الطبيعي.

فهذا الكتاب مشتمل على أربع مقالات:

الأولى، في ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل.

والثانية، في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر.

والثالثة، في ماهية علم النجوم وتمكّن المنجم في هذا العلم.

والرابعة، في ماهية علم الطب وهدي الطبيب وصفته.

فقد أوردنا في رأس كلّ مقالة ما يليق بهذا الكتاب من الحكمة وأتبعناه بعشر حكايات[٤] طريفة من نوادر هذا الباب وبدائع هذه المقالة وقعت لهذه الطبقة، ليتبيّن للملك ويعلم أنّ الكتابة ليست أمراً أمماً، وأنّ الشعر ليس شغلاً يسيراً، وأنّ علم النجوم علم ضروري، وأنّ الطب صفة لازمة. وأنّ الملك العاقل لا مناص له من هؤلاء الأشخاص الأربعة: الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب.

المقالة الأولى

في ماهية الكتابة وصفة الكاتب الكامل
وما يتعلق بهذا

الكتابة صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية، ينتفع بها في المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة، في المدح والذم، والاحتيال والاستعطاف والإغراء، وتكبير الأعمال، وتصغير الأمور، والتصرّف في وجوه الاعتذار والعتاب، وفي إحكام العلائق، والتذكير بالسوابق، وترتيب الكلام وتنظيمه في كلّ واقعة على الوجه الأولى والمنهج الأحرى.

فينبغي أن يكون الكاتب كريم الأصل، شريف العرض، دقيق النظر، عميق الفكر، ثاقب الرأي، وأن ينال الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته، وينبغي ألا يكون بعيداً من القياسات المنطقية، غريباً عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من أصحاب الأغراض وأولي الأغماض ولا يغتر بهم.

وأن يصون عرض مخدومه في مقام الترسل عن المنازل الدنية، والمواضع الخاملة، ولا يشتد في أثناء الكتابة، وسياق الترسل على

أرباب الحرمة وذوي الحشمة، وإن كان بين المخدوم والمخاطب خصومة وجب أن يصون قلمه ولا يقع في عرض المخاطب إلّا من جاوز الحد، وخرج عن التصوّن، فقد قيل: (واحدة بواحدة والبادي أظلم).

وينبغي أن يلتزم الطريق الأوسط في الألقاب، ويكتب إلى كلّ إنسان ما يلائم أصله ونسبه ومُلكه وولايته وعسكره وخزائنه إلّا من شدّد في هذا وتكبّر وجاوز الحد وزاد في الانبساط إلى الدرجة التي لا يعدها العقل موافقة للمكاتبة وملائمة للمراسلة. فيجوز للكاتب ولا حرج عليه أن يأخذ القلم ويمضي قدماً، ويبلغ في هذه السبيل أقصى الغاية، ومنتهى النهاية، فإنّ أكمل الناس وأفضلهم صلوات الله عليه يقول «التكبر مع المتكبر صدقة» وعليه ألا يدع غباراً ينال مخدومه في ميدان المكاتبة من هواء المراسلة.

وينبغي أن يلزم في سياق الكلام نهجاً يجعل الألفاظ تابعة للمعاني، ويوجز ويقصر الكلام فقد قال فصحاء العرب: خير الكلام ما قلّ ودل. وحيثما جاءت المعاني في أثر الألفاظ طال الكلام، ودُعي الكاتب مكثاراً (والمكثار مهذار).

ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتّى ينال من كلّ علم نصيباً، ويأخذ عن كلّ أستاذ نكتة، ويسمع من كلّ حكيم لطيفة، ويقتبس من كلّ أدب طُرفة. فعليه أن يجعل ديدنه قراءة كلام ربّ العزّة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والاضطلاع على صحف الخلف، مثل:

ترسل الصاحب(١) والصابي(٢) وقابوس(٣) وألفاظ الحمادي والإمامي وقدامة بن جعفر(٤) ومقامات البديع والحريري وحميد(٥)، وتوقيعات البلعمي(٦) وأحمد بن حسن(٧) وأبو نصر الكندُريّ(٨)،

ورسائل محمد عبده[٩] وعبد الحميد[١٠] وسيد الرؤساء[١١]، ومجالس محمد بن منصور، وابن عبادي[١٢] وابن النسَّابه العلوي.

ومن دواوين العرب: ديوان المتنبي والأبيوردي[١٣] والغزّي[١٤].

ومن شعر العجم: أشعار الرودكي ومثنوي الفردوسي ومدائح العنصري.

فكلّ واحد ممّن عددت نسيج وحده في صناعته، ورصد وقته. وكلّ كاتب يحصّل هذه الكتب ويديم مطالعتها يشحذ خاطره، ويصقل ذهنه، وينير طبعه، ويسمو كلامه ويستحق اسم الكاتب.

فأمّا معرفته القرآن فقد يخرج بآية من عُهدة ولاية كما فعل الإسكافي.

الحكاية الأولى

كان الإسكافي[١٥] من كتّاب آل سامان رحمهم الله، وقد أجاد هذه الصناعة، وبلغ ذروتها وأحسن الخروج من مضايقها. وكان يحرر في ديوان رسائل نوح بن منصور[١٦]، ولكنّهم لم يعرفوا قدره، ولم يقدروا فضله. فذهب من بخارى إلى هراة عند ألبتكين. وكان ألبتكين تركياً عاقلاً فطناً، فأكرمه وفوّض إليه ديوان رسائله وحسنت حاله.

ولما ظهر الشبان في الحضرة واستخفوا بالقدماء احتملهم ألبتكين حيناً ثمّ انتهى أمره إلى العصيان بما أصابه من الاستخفاف بإغراء جماعة من المحدثين. فكتب الأمير نوح من بخارى إلى زابلستان ليأتي سبكتكين بالجيش، ويأتي أصحاب سيمجور من نيسابور فيقاتلوا ألبتكين. وكانت حرب شديدة معروفة، وواقعة فظيفة مشهورة.

فلمّا بلغت تلك الجيوش هراة أرسل الأمير نوح عليَّ بن محتاج الكاشاني، وكان حاجب بابه، إلى ألبتكين برسالة كالماء والنار

مضمونها وعيد، وسياقها تهديد فلم يدع مجالاً للصلح ولا سبيلاً للمسالمة، كما يكتب في مثل هذه الواقعة، وتلك الداهية سيد ضَجِر قاص إلى عبد عاص. وكانت الرسالة تفيض بأن سنأتي ونأسر ونقتل.

فلمّا سلم الحاجب أبو الحسي علي بن محتاج الكاشاني الكتاب، وأدّى الرسالة ولم ينقص منها شيئاً زاد ألم ألبتكين وهاج وقال: أنا عبد أبيه، ولكن هذا السيد حينما تحوّل إلى دار البقاء لم يستخلفه عليّ بل استخلفني عليه. وإن لزمني في الظاهر أن أكون في طاعته فالقضية على خلاف هذا عند التحقيق، لأنّي في مراحل الشيب، وهو في منازل الشباب. والذين أغروه بهذا هم ناقضو هذه الدولة لا ناصحوها، وهادمو هذه الأسرة لا خادموها.

وفي شدّة الغضب قال للإسكافي إذا كتبت جواب الرسالة فلا تدخر وسعاً في الاستخفاف. وأريد أن تكتب الجواب على ظهر الرسالة.

فكتب الإسكافيّ الجواب على البديهة، وكتب في أوّله: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١٧).

فلمّا بلغت الرسالة أمير خراسان نوح بن منصور وقرأها تعجّب كثيراً، وتحيّر رؤساء الدولة وعض الكتاب أناملهم.

ولمّا انقضى أمر ألبتكين اختفى الإسكافي واستمرّ في خوف وفزع إلى أن أرسل نوح إليه ودعاه وفوّض إليه الكتابة فارتفع أمره، وعلت مكانته بين أرباب الأقلام وذاع صيته.

ولو لم يحسن معرفة القرآن لم يهتد إلى هذه الآية في تلك الواقعة. ولم يعلُ أمره إلى هذه الدرجة.

الحكاية الثانية

علت مكانة الإسكافي فتمكن في خدمة الأمير نوح بن منصور. وعصى ما كان ابن كاكوي في الري وقُهستان[١٨]، وخرج من ربقة الطاعة. وبعث عمّالاً إلى خَوار وسِمْنَك، واستولى على بعض مُدن قومس ولم يبال بالسامانيين.

وكان ما كان رجلاً جريئاً حازماً فخاف نوح بن منصور وشُغل بالتفكير في أمره. وولّى «تاش» القائد حربه في سبعة آلاف فارس. وأمره أن يذهب إليه، ويطفىء هذه الفتنة، ويكفيه هذا الأمر الصعب على الوجه الذي يرى فيه المصلحة.

وكان تاش عاقلاً، سديد الرأي، حُوَّلاً قُلّباً، مظفّراً في الحرب. ما همّ بأمر فرجع عنه خائباً، ولم يُهزم في حرب قط. وقد بقي لملك بني سامان، رونق عظيم، ولأمرهم نضارة تامة طول حياته.

وقلق الأمير لهذه الواقعة، واضطرب لها قلبه. فأرسل إلى الإسكافي وخلا به وقال إنّي مشفق من هذا الأمر العظيم فإن ما كان رجل شجاع وله مع الرجولة والشجاعة كفاية وسخاء. وقليل من أمثاله عُرف بين الديلم (ندر في الديالمة مثله) فينبغي أن تذهب مع تاش، وتذكره بكلّ ما يغفل عنه من أمر الجيش في هذه الواقعة. وسأقيم أنا في نيسابور ليشتد بي أزر الجيش، وينكسر قلب العدوّ. ويجب أن يأتيني كلّ يوم رسول بملطّفة[١٩] من رسائلك. وتثبت في هذه الملطفة خلاصة ما يقع، لتسلو به نفسي. قال الإسكافي سمعاً وطاعة. وفي الغد نشر تاش راياته، ودق طبوله ونصل من بخارى على المقدمة وعبر جيحون في سبعة آلاف فارس، وتبعه الأمير في بقية الجيش إلى نيسابور. فخلع على تاش والجند. وتقدّم تاش حتّى بيهق وجاوزها إلى قومس، وتوجّه شطر الرّي في عزم قوي، وحزم كامل.

وكان ما كان قد نزل على أبواب الري في عشرة آلاف محارب دارع، واستند إلى الري حتّى جاء تاش فجاوز المدينة ونزل بإزائه، وتردّدت بينهما الرسل فلم يتفقا على شيء فقد غرّ ما كان هذا الجيش الهائل الذي جمعه من كلّ مكان.

وصمم الفريقان على الحرب. وكان تاش ذئباً مُسناً تمرّس بقيادة الجيوش أربعين سنة، وشهد وقائع كثيرة. فأحكم التدبير حتّى إذا التقى الجمعان تقدّم في القلب أبطال ما وراء النهر وخراسان وحارب نصف جيش ما كان، وكف النصف الآخر عن الحرب، وقتل ما كان.

ولمّا فرغ تاش من القتل والأخذ والأسر توجّه إلى الإسكافي وقال لا بدّ أن نرسل حمامة ونرسل بعدها نجّاباً، ولكن عليك أن تجمل الوقائع في جملة واحدة تبيّن عن كلّ أحوالنا، وتخف على الحمامة وتبلغ بها ما نريد.

فأخذ الإسكافي رقعة مقدار إصبعين وكتب: «أمّا ما كان فصار كاسمه والسلام». أراد بما حرف النفي وبكان الفعل الماضي «ومعناه بالفارسية: ما كان چون نام خويش شد يعني نيست شد».

فلمّا بلغت الحمامة الأمير نوح بن منصور لم يعجب من هذا الفتح كما تعجب من هذا اللفظ. وزاد في الإحسان إلى الإسكافي وقال لا يدرك هذه النكت إلّا رجل فارغ القلب.

الحكاية الثالثة

كلّ صناعة لها بالفكر تعلق يحتاج صاحبها أن يكون فارغ القلب مرفهاً وإلّا طاشت سهام فكره ولم تجتمع على هدف الصواب لأنّه لا يلائم بين الكلمات إلّا باجتماع خاطره.

حكى أنّ أحد كتّاب خلفاء بني العباس رضي الله عنهم كان يكتب

رسالة إلى والي مصر وكان قد جمع خاطره واستغرق في بحر الفكر وشغِل بتأليف كلام كالدرّ الثمين والماء المعين.

فدخلت عليه جاريته بغتة وقالت نفذ الدقيق. فاضطرب طبعه، وتفرّق خاطره حتّى انقطع سياق الكلام وبلغ من اضطرابه أن كتب في الرسالة: «نفذ الدقيق» وأتمّ الرسالة وبعث بها إلى الخليفة وهو لا يشعر بهذه الكلمة التي كتب.

فلمّا أخذ الخليفة الرسالة وطالعها حتّى بلغ هذه الكلمة تحيّر ولم يستطع أن يفهمها على وجه من الوجوه لشدّة غرابتها فأرسل إلى الكاتب وسأله عنها فخجل وصدقه الخبر في هذه الواقعة. فتعجّب الخليفة كثيراً وقال: إنّ لأوّل هذه الرسالة على آخرها رجحاناً كرجحان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، حرام أن يشغل فكر بليغ مثلك بضوضاء الحاجات.

وبالغ في الإحسان إليه حتّى لم تستقر في أذنه من بعد مثل هذه الكلمة. فلا جرم استطاع أن يجمع معاني الكونين في لفظين.

الحكاية الرابعة

كان الصاحب الكافي إسماعيل بن عباد الرازي وزير شاهنشاه. وكان فاضلاً كاملاً وترسّله وشعره، على هذه الدعوى، شاهدا عدل وقاضيا صدق. وكان الصاحب عدليّ المذهب. وأصحاب العدل يتشدّدون في التقوى والتنسّك ويجيزون أن يخلد المؤمن في جهنم في شعيرة. وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه.

وكان في قم قاضٍ من قِبَله. وكان للصاحب اعتقاد راسخ في نسكه وتقواه. والأخبار عنه تتوالى بخلاف ما يعتقد الصاحب فلا يصدقها حتّى شهد اثنان من ثقات أهل قم أنّ القاضي أخذ خمسمائة

دينار رشوة في خصومة كانت بين فلان وفلان. فأنكر الصاحب هذا إنكاراً شديداً من وجهين، جرأة القاضي وضعف دينه، وكثرة الرشوة. وأخذ القلم فوراً وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. أيّها القاضي بقمّ، قد عزلناك فقم.

ويعلم الفضلاء ويعرف البلغاء أنّ هذه الكلمات في أي مرتبة في باب الإيجاز والفصاحة. لا عجب أن يكتب الفصحاء والبلغاء هذه الكلمة على القلوب وينقشوها في الأرواح منذ ذلك اليوم.

الحكاية الخامسة

لمغان مدينة في ديار السند من أعمال غزنة. وبينها وبين الكفار اليوم جبل عال. وأهلها في خوف دائم من غارة الكفار وبياتهم، ولكن اللمغانيين رجال أقوياء شجعان وأهل كسب وفيهم مع الجلادة لجاجة عظيمة لا يحجمون أن يشكوا عاملاً بيضة أو منّ من التبن بل بأقل من هذا يسوّغون لأنفسهم أن يأتوا إلى عزنة ويقيموا شهراً أو شهرين ولا يرجعوا حتّى ينالوا ما يريدون. وقصارى القول إنّ لهم في اللجاجة مهارة، وعلى الإصرار صبر.

وقد بيّتهم الكفار ليلة فأخربوا وأتلفوا، وقد كانوا قوماً يتمرغون في غير تراب(*).

فلمّا وقعت هذه الواقعة اجتمع جماعة من أعيانهم وتوجّهوا إلى غزنة ومزّقوا ثيابهم وحسروا عن رؤوسهم ودخلوا غزنة نائحين وذهبوا إلى قصر السلطان وبكوا وناحوا. وحدّثوا عمّا أصابهم أحاديث تبكي الحجر.

(*) (بى خاك مراغه كرندى)، والظاهر أنّه كناية عن شدّة المكر.

ولم يكن قد عرف عنهم هناك هذه الشدّة واللجاجة والتزوير والتمويه. فرثي لهم الرئيس الكبير أحمد بن الحسن الميمندي، ووهب لهم خراج هذه السنة، وأمنهم من الحيف. وقال ارجعوا وجدّوا كثيراً، وأنفقوا قليلاً لتعودوا كما كنتم أوّل العام القابل.

فرجع اللمغانيون في فرح عظيم، واستبشار كثير. وبقوا هذه السنة مرفّهين، ولم يبذلوا حتّى الماء لأحد. ولما انتهت السنة رجعت هذه الجماعة ورفعوا قصتهم إلى الرئيس. وخلاصتها أنّ السيد الرئيس الكبير عمّر عام أوّل ولايتنا بالرحمة والعطف وحفظها بحياطته وحمايته. وعاد أهل لمغان بكرمه وعطفه كما كانوا واستطاعوا أن يقيموا بهذا الثغر. ولكنّهم لا زالت أحوالهم مختلفة ويخشون، إن طلب الخراج هذا العام، أن يستأصل بعضهم ويرجع أثر هذا الخلل إلى الخزانة المعمورة. فتلطف بهم الرئيس أحمد بن الحسن وحطّ عنهم مال السنة الثانية. فاستغنى أهل لمغان في هاتين السنتين. ولم يرضهم هذا فطمعوا في السنة الثالثة أن يوهب لهم الخراج أيضاً. فرجعت هذه الجماعة إلى الديوان وعرضوا قصتهم. وعرف الناس كلّهم أنّ اللمغانيين مبطلون فكتب الرئيس الكبير على ظهر القصة:

«الخَراج خُراج أداؤه دواؤه»

فسار هذا الكلام مثلاً منذ عهد هذا الرئيس، وضرب في مواطن كثيرة. طيّب الله ثراه.

الحكاية السادسة

ظهر في عهد دولة آل عباس رضي الله عنهم سادة عظام. وأمر البرامكة معروف مشهور وقد عرف مبلغ صلاتهم وهباتهم. ولكن ذو الرياستين[٢١] الحسن بن سهل وأخوه الفضل بلغا السماء وانتهى

أمرهما إلى أن خطب المأمون بنت الفضل له وكانت جارية كاملة الجمال. وليس لها في الفضل مثال.

وقد استقرّ الرأي على أن يذهب المأمون إلى دار العروس ويقيم بها شهراً ثمّ يرجع إلى داره بالعروس. وفي اليوم الذي ضرب للذهاب أراد الخليفة على المعتاد أن يلبس أحسن ثيابه ـ وكان المأمون يديم لبس السواد. فظنّ الناس أنه يلبسه لأنّه شعار العباسيين حتّى سأله يوماً يحيى بن أكثم لماذا يفضل أمير المؤمنين الثياب السود. قال المأمون للقاضي: سود الثياب لباس الرجال والأحياء. فما تزف امرأة في ثياب سود. ولا يكفن ميت في ثوب أسود. فتعجّب يحيى من هذا الجواب. فأراد المأمون ذلك اليوم أن ينظر ثياب الخزائن فلم يعجبه شيء من ألف قباء أطلس ومعدني وملكي ونسيج وممزّج ومقراضي وأكسون(٢٢). ولبس السواد وركب إلى دار العروس.

وكان الفضل قد زيّن داره زينة حيّرت الكبراء. وجمع نفائس تقصر الأنفاس عن وصفها. ولما بلغ المأمون باب الدار رأى ستراً معلقاً أحسن من ربيع الصين، وأنفس من شعار الدين. نقشه يعلق بالقلوب ولونه يمتزج بالأرواح. فالتفت إلى الندماء وقال: لو اخترت ما اخترت من ألف القباء لاستحييت منه هنا، الحمدلله على أن اقتصرت على هذا السواد.

وممّا تكلفه الفضل ذلك اليوم أنّ المأمون حين توسّط الدار أتى بطبق مملوء بقطع من الشمع على هيئة اللؤلؤ كلّ واحدة في حجم البندقة. وفيها رقعة كتب عليها اسم ضيعة. فنثر ما في الطبق تحت قدم المأمون. فكلّ من أخذ من رجال المأمون قطعة من هذا الشمع أرسل إليه قبالة هذه الضيعة.

فلمّا أتى المأمون بيت العروس رأى بيتاً مجصّصاً منقّشاً. عليه

إزار صيني أكثر رونقاً من المشرق حين تنفّس الصبح، وأجمل من البستان حين يتفتح الورد. وقد استوعب البيتَ حصير من نسج الذهب، رصعت بالدرّ والعقيق والفيروز ووضعت على هذا النمط خمس حشايا جلست عليها دمية أغلى من العمر والحياة، وأطيب من الشباب والصحة. قامة يقرّ لها سرو غاتْفَر بالعبودية، وعارض تقر له الشمس المضيئة بالسيادة، شعرها غيرة المسك والعنبر، وعينها حسد الجزع والعبهر. وقامت كالسرو مائسة وتقدّمت إلى المأمون، وحيته كثيراً، واعتذرت إليه، وأخذت بيده فأجلسته في صدر المسند ووقفت أمامه للخدمة.

فأمرها المأمون أن تقعد فجثت، وطأطأت رأسها، ورمت البساط بطرفها.

فتولّه المأمون. وكان قد وهبها قلبه فوهبها الروح معه. ومدّ يده إلى قبائه وأخرج ثماني عشرة لؤلؤة كلّ واحدة كبيضة عصفور أضوأ من كواكب السماء، وأكثر رونقاً من ثنايا الحسناء، ومن المشتري وزحل أحسن تدويراً، بل أعظم نوراً. ونثرها فتدحرجت على البساط واستمرّت حركتها لتدويرها واستواء البساط، ولم تسكن فلم تلتفت العروس إلى هذه الجواهر ولم ترفع رأسها. فزاد شغف المأمون ومدّ يده وشرع يباسطها وهمَّ بعناقها. فغلبها الحياء. وبلغ من تأثر هذه العروس الرقيقة أن عرض لها ما يعرض للنساء؛ واحمرّت وجنتاها من الخجل والحياء وقالت فوراً: يا أمير المؤمنين، ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾(*).

فقبض المأمون يده. وكاد يذهل من فصاحة هذه الآية، والتلطف

(*) سورة ١٦، آية ١.

في إيرادها في هذه الحادثة. فلم يستطع أن يصرف بصره عنها، ولبث في هذا البيت ثمانية عشر يوماً، ولم يشغل إلّا بها.

وارتفع أمر الفضل وبلغ ما بلغ.

الحكاية السابعة

وأمّا في زماننا فإنّ أمير المؤمنين المسترشد بالله[٢٣] ابن المستظهر بالله من خلفاء بني العباس، طيّب الله تربته، ورفع في الجنان مرتبته خرج من بغداد في جيش مهيّأ، وأُبّهة عظيمة ومال لا ينفد، وسلاح لا يعدّ متوجهاً إلى خراسان لوحشة كانت من سلطان العالم سنجر وكان هذا من مكر أصحاب الأغراض وتمويه أهل الشر وتمويرهم.

فلمّا بلغ كرمانشاهان خطب يوم الجمعة خطبة تجاوزت أوج الشمس في الفصاحة وانتهت إلى العرش وعلّيّين. وأعرب فيها عن ضيق صدره وخيبة رجائه شاكياً من آل سلجوق. وقد أقرّ فصحاء العرب وبلغاء العجم أنّ أحداً بعد الصحابة رضوان الله عليهم ـ وهم تلاميذ صاحب الرسالة وورثة جوامع الكلم ـ لم ينظم مثل هذه الفقرات فصاحة وجزالة.

قال أمير المؤمنين المسترشد بالله:

فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾(*).

(*) سورة ٥٧، آية ١٦.

الحكاية الثامنة

وقعت حرب على أبواب سمرقند بين گورخان الخطائي[٢٤] وسلطان العالَم سنجر فهزم جيش المسلمين هزيمة منكرة، واستولى گورخان على ما وراء النهر[٢٥]. بعد أن قُتل إمام الشرق حسام الدين أنار الله برهانه ووسّع عليه رضوانه.

ثمّ ولّى گورخان على بخارى أتمتكين ابن الأمير بياناني وابن أخي أتسز[٢٦] ملك خوارزم. ولمّا عزم على الرجوع أوصى به إلى الأستاذ الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز، وكان إمام بخارى وابن برهان[٢٧]، وأمره أن يصدر في أعماله كلّها عن إشارته، ولا يعمل شيئاً بغير أمره، ولا يتصرّف في أمر إلّا في حضوره.

ورحل گورخان عائداًإلى برسخان.

ولم يكن لعدله نهاية، ولا لنفاذ أمره حدّ. والحق أنّ حقيقة الملك لا تعدو هذين.

ولما خلا الجو لأتمتكين ظلم الناس، وشرع يصادر أهل بخارى. فذهبت طائفة من البخاريين وفداً إلى برسخان[٢٨] وتظلّموا. فلمّا سمع گورخان ظلامتهم كتب إلى أتمتكين على طريقة أهل الإسلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يعلم أتمتكين أنّه إن تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا وسخطنا منه قريب. ليفعل أتمتكين ما يأمر به أحمد. وليأمر أحمد بما أمر به محمد والسلام».

وقد تفكّرنا مراراً وتأمّلنا فإذا شرح هذه الرسالة ألف مجلد بل أكثر. ومضمونها بيّن واضح كلّ الوضوح، لا يحتاج إلى شرح. وقلّما رأيت مثلها.

الحكاية التاسعة

غاية فصاحة القرآن إيجازاللفظ وإعجاز المعنى. وكلّما تيسّر للفصحاء والبلغاء تضميناً منه أدهش السامعين، وأقام قيامة العقلاء. وهذا دليل واضح، وبرهان قاطع على أنّ هذا الكلام لم تجربه أنفاس مخلوق، ولم يحدثه فم ولا لسان، وأن رقم القِدم مثبت على ناصية عباراته وإشاراته.

حكى أنّ أحد المسلمين كان يقرأ هذه الآية أمام الوليد بن المغيرة: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(*). فقال الوليد: والله إنّ عليه لطلاوة، وإنّ له حلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمُغدق. وما هو قول البشر.

فإن كان الأعداء قد بلغوا هذا المقام في ميادين الإنصاف، فانظر ما يبلغ الأصدقاء. والسلام.

الحكاية العاشرة

ومن سنن ملوك العصر وجبابرة الزمان الأوّل أن يتفاخروا بالعدل والفضل ويتنافسوا فيهما. وكانوا كلّما أرسلوا رسولاً زوّدوه بالحكم والألغاز والرموز. وكان الملك يستعين بأرباب العقل والتمييز، وأولي الرأي والتدبير، يعقدون مجلساً بعد مجلس حتّى يتفقوا على أجوبة هذه المسائل وتتضح هذه الألغاز والرموز، وحينئذ يأذنون للرسول في العودة.

(*) سورة ١١ ٤٤.

وكانت هذه العادة متبعة إلى زمان السلطان العادل يمين الدولة والدين محمود بن سبكتكين (رحمه الله).

ولمّا جاء السلاجقة بعده وكانوا بداة لا علم عندهم بأخبار الملوك ومآثرهم درست في عهدهم أكثر رسوم الملك، وانطمس كثير من ضروريات السلطان، ومن هذا ديوان البريد فقس عليه غيره.

وقد روى أنّ السلطان يمين الدولة محموداً (رحمه الله) أرسل يوماً رسولاً إلى بغراخان[٢٩] فما وراء النهر. وأثبت في الرسالة التي بعث بها هذا الفصل:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(*). وقد اتفق أرباب الحقائق وأصحاب الدقائق على أنّ المراد التقوى من الجهل. فليس نقصان لأرواح الناس أسوأ من نقصان الجهل، وأدنأ من قلّة العلم، والكلام القديم يشهد بصحة هذه القضية وصدق هذا الخبر: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(**)، فنحن نريد من أئمة ما وراء النهر وعلماء الشرق وأفاضل الحضرة الخاقانية أن يبيّنوا لنا ضروريات هذه المسائل:

ما النبوة، وما الولاية، وما الدين، وما الإسلام، وما الإيمان، وما الإحسان، وما التقوى، وما الأمر بالمعروف، وما النهي عن المنكر، وما الصراط، وما الميزان، وما الرحمة، وما الشفقة، وما العدل، وما الفضل؟

فلمّا بلغت هذه الرسالة حضرة بغراخان واطلع على مضمنها ومكنونها، دعا أئمة ما وراء النهر من كلّ صوب، وفاوضهم في هذا

(*) ٤٩ (١٣).

(**) ٥٨ (١١).

المعنى. فالتزم بعض كبار أئمة ما وراء النهر أن يؤلف كلّ منهم في هذا الباب كتاباً ويبيّنوا أجوبة هذه المسائل في فصول الكتاب وسألوا النظرة أربعة أشهر. وكان في هذه المهلة أنواع من الضرر أقواها نفقات الخزانة للرسل والوفود وفي تعهد الأئمة.

فقال محمد بن عبده الكاتب[٣٠]، وكان كاتب بغراخان، وله في العلم تعمّق، وفي الفضل تفوّق، وفي النظم والنثر تبحّر، وكان أحد فضلاء الإسلام وبلغائه: «أنا أجيب هذه الأسئلة في كلمتين إجابة إذا اطلع عليها أفاضل الإسلام، وأماثل المشرق رضوا بها، وأقرّوا بحسنها، ثمّ أخذ القلم وكتب في حاشية المسائل على طريقة الفتوى:

قال رسول الله ﷺ: «التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله».

فعض أئمة ما وراء النهار جميعاً أناملهم تعجّباً وتحيّروا وقالوا: «هذا جواب كامل وهذا لفظ شامل». وتهلل الخاقان العظيم إذ كفاه كاتبه ولم يحتج إلى الأئمة.

وحينما بلغ الجواب غزنة، وقع الإجماع على استحسانه.

فينتج من هذه المقدمات أنّ الكاتب العاقل، والأديب الفاضل جمالٌ للملك، وأعظم رفعة للملك. وبعد فنتم هذه المقالة بهذا الخطاب والسلام.

المقالة الثانية

في ماهية الشعر، وصلاحية الشاعر

الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهِمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، ويرد الحسن في زي القبيح، ويجلو القبيح في صورة الحسن. ويثير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإيهام للطباع إنقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام كما روى.

الحكاية الأولى

سئل أحمد بن عبد الله الخجستاني[1]: كنت رجلاً مكارياً فكيف نلت أمارة خراسان. قال كنت في خجستان من بادغيس أقرأ يوماً ديوان حنظلة البادغيسي فبلغت هذين البيتين[2]:

إذا كانت العظمة بين فكّيْ الأسد فخاطر وخذها من بين فكيه[*]

فإمّا أن تنال العظمة والعز والنعمة والجاه، وإمّا أن تلق، كالرجال، الموت وجهاً لوجه.

(*) مهتری گر بکام شیر در است شو خطر کن زکام شیر بجوی
یا بزرگ وعزّ ونعمت وجاه یا چو مردانت مرگ رویاروی

فطمحت نفسي فما استطاعت أن ترضى بالحال التي كنت فيها. فبعت الحُمر واشتريت فرساً، ورحلت عن وطني ولحقت بعليّ بن الليث أخي يعقوب بن الليث وعمرو بن الليث. وكان بازي دولة الصفاريين يطير في ذروة أوج عِلّيين، وكان على الأخ الأصغر وكان ليعقوب وعمرو عليه إقبال عظيم. ولما ذهب يعقوب من خراسان إلى غزنة أرجعني عليّ بن الليث من رباط سنگين، ووجّهني إلى خراسان لشحنة الإقطاعات وكنت جمعت من ذلك الجيش على الطريق مائة فارس، وكان لي عشرون فارساً من قبل.

وكان من إقطاعات علي بن الليث كرُوخ هراة[٣]، وخواف نيسابور. ولما بلغت كروخ أظهرت منشور التولية وما حصلتُه فرقتُه على العسكر. فصار فرساني ثلاثمائة. ولمّا بلغت خواف[٤] وعرضت المنشور لم يقبل رؤساؤها وقالوا لا نحتاج إلى شحنة بأكثر من عشرة رجال. فاجتمع رأيي على أن أخلع طاعة الصفاريين فأغرت على خواف وسرت منها إلى قرية پُشت[٥] ثمّ إلى بيهق[٦]. واجتمع عليّ ألفا فارس فتوجهت تلقاء نيسابور واستوليت عليها. فارتفع شأني وما زال يرتفع حتّى استخلصت لنفسي خراسان كلّها.

وأصل هذا كلّه هذان البيتان من الشعر.

ويقول السلّامي[٧] في تاريخه إنّه بلغ من أمر أحمد بن عبد الله أنّه وهب في ليلة واحدة بنيسابور ثلاثمائة ألف دينار وخمسمائة فرس وألف ثوب. وهو اليوم في التاريخ من الملوك القاهرين. وسبب هذا بيتان من الشعر. وفي مثال هذا كثير بين العرب والعجم. ولكنّا اقتصرنا على هذا.

فلا غنى للملك عن الشاعر المجيد يخلّد اسمه، ويبقى ذكره في الدواوين والكتب. لأنّ الملك إذا نزل به القضاء لم يبق من جيشه

وماله وخزائنه شيء ولكن يبقى اسمه خالداً بشعر الشعراء. يقول الشريف المجلّدي الجرجاني:

ما الذي بقي من نعيم آل ساسان وآل سامان؟ إنّما في مدائح الرودكي وأغاني باربد(*) وقصصه(**).

وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خلدت بشعر جماعة لهم نظم رائع وشعر شائع. كما بقيت أسامي آل سامان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن محمد الرودكي، وأبي العباس الربنجَني، وأبي المثل البخاري، وأبي أسحق الجوبياري، وأبي الحسن الأغْجي، والطحاوي، والخبّازي النيشابوري، وأبي الحسن الكسائي.

وأمّا أسامي ملوك آل ناصر الدين(+) فقد بقيت بأمثال العنصري، والعسجدي، والفرْخي، والبهرامي، والزينتي، وبزر جمهر القايني، والمظفري، والمنشوري، والمنوچهري، والمسعودي، والصارامي، وأبي حنيفة الأسكاف، والراشدي، وأبي الفرج الروني، ومسعود بن سعد بن سلمان، ومحمد الناصر، والشاه بورجا، وأحمد بن خلف، وعثمان المختاري، ومجدود السنائي.

وأمّا أسامي آل خاقان فقد بقيت باللؤلؤي، والكلابي، والنجيبي الفرغاني، وعمعق البخاري، والرشيدي السمرقندي، ونجّار الساغرجي، وعلي البانيذي، وابن درغوش، وعلي السپهري، والجوهري، والسغدي، وابن تيشه، وعلي الشطرنجي.

(*) المغني المشهور الذي ظهر في بلاط كسرى پرويز.

(**) از آن چندان نعيم اين جهاني — كه ما ند از آل ساسان وآل سامان
ثناى روكى ما ندست ومدحت — نواى باربد ما ندست ودستان

(+) يعني آل سبكتكين.

وأمّا أسامي آل بويه فقد بقيت بالأستاذ المنطقي، والكياغضائري، وبُندار.

وأمّا أسامي آل سلجوق فبقيت بفرّخي الجرجاني، ولامعي الدهستاني، وجعفر الهمداني ودرفيروز الفخري، وبرهاني، والأمير معزّى وأبي المعالي الرازي، وعميد الكمالي، وشهابي.

وأمّا أسامي ملوك طبرستان فبقيت بقَمَري الجرجاني، ورافعي النيسابوري، وكفائي الگنجي، وكوسه الفالي، وابن كله.

وأسامي ملوك الغور آل شنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي القاسم الرفيعي، وأبي بكر الجوهري، وأقل العباد نظامي العروضي، وعلي الصوفي.

ودواوين هذه الجماعة ناطقة بالكمال والجمال والعُدّة والعِدّة، والعدل والبذل، والأصل والفضل، والرأي والتدبير والتأييد والتأثير لهؤلاء الملوك الماضين والسادة الغابرين (نوّر الله مضاجعهم ووسّع عليهم مواضعهم).

كم عظيم، نعموا بنعم الملوك، وأفاضوا الهبات، وأعطوا هؤلاء الشعراء المفلقين واليوم عفت منهم الآثار، ولم يبق من خَدَمهم وحَشَمهم ديّار. وكم بنوا من جواسق مزخرفة وأنشأوا من حدائق مزدهرة، وقد سوّيت اليوم بها الأرض، وصارت قفاراً يبابا. يقول المنصف:

كم بني محمود من	قصور تطاول القمر علواً،
لا ترى منها لبنة واحدة	وإنّما بقي مديح العنصري[*]

(*) يا كاخا كه محمودش بنا كرد / كه از رفعت همي بامه مرا كاد
انبينى زآن همه يك خشت برپاي / مديح عنصري ما تدست برجاى

وملك العالم علاء الدنيا والدين[٨] أبو علي الحسين بن الحسين اختيار أمير المؤمنين أطال الله عمره ونصر رايته توجّه إلى غزنة ليثأر لهذين الأميرين الشهيد شهريار والملك حميد، وفرّ أمامه السلطان بهرامشاه، فحمله الحزن على هذين الشهيدين، وكان الغزنويون استخفوا بهما وسفهوا عليهما، على أن يأمر بنهب غزنة، وأخرب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم واشترى مدائحهم بالذهب، وخبأها في الخزائن ولم يجرؤ أحد في هذا العسكر أو هذه المدينة أن يسمّي أحدهم سلطاناً. على حين كان الملك نفسه يقرأ في الشاهنامة ما قال أبو القاسم الفردوسي:

أوّل ما ينطق به الطفل الرضيع في مهده «محمود».

تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل.

مَلك العالم «محمود»، ذو العزّة القعساء الذي جمع بين الذئب والحمل على مورد الماء[*].

وأرباب العقول يعلمون أنّه لم تبق هناك حشمة محمود، ولكن حرمة الفردوسي ونظمه. ولو علم محمود ما ترك هذا الرجل الحرّ محروماً آيساً.

* * *

(*) چو كودك لب از شير مادر بشست — زگهواره محمود گويد نخست
بتن زنده پيل وبجان جبرئيل — بكف ابر بهمن بدل رود نيل
جهاندار محمود شاه بزرگ — بآبشخور آرد همی ميش وگرگ

فصل

في صفة الشاعر وشعره

ينبغي أن يكون الشاعر (سليم الفطرة، عظيم الفكرة، صحيح الطبع، جيّد الروية، رقيق النظر) متنوّعاً في أنواع العلوم، آخذاً بأطراف الرسوم، لأنّ كلّ علم يتّصل بالشعر كما يتّصل الشعر بكلّ علم.

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورة، طلق الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً، وعلى ألسنة الأحرار مذكوراً. يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن. وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يبق مسطوراً مقروءاً.

وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره، ومات قبل قائله وكيف يخلّد غيره إن لم يخلّد نفسه.

ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلّا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريّق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين، ويديم القراءة في دواوين الأئمة، ويلتقط منها ليعلم كيف تصرّفوا في مضايق القول، ودقائق الكلام حتّى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه، ويتجلّى له مزايا الشعر ونقائصه فيرتقي قوله، ويعلو طبعه.

فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر وانقاد له الكلام عمد إلى علم الشعر وقرأ العروض، وألمّ بتصانيف الأستاذ أبي الحسن السرخسي البهرامي مثل غاية العروضين وكنز القافية، وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها، ليكون

جديراً بالأستاذية ويظهر إسمه على صحيفة الزمان مع أسماء الأساتذة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم، حتّى يستطيع أن يوفي الممدوح حق نعَمه، بتخليد اسمه.

وعلى السلطان أن يربّي مثل هذا الشاعر ليتهيأ لخدمته، ويذيع اسمه في مدائحه.

فإن لم يبلغ الشاعر هذه الدرجة لم يجدر بالالتفات إليه، وإضاعة المال لديه لا سيما إذا كان شيخاً.

وقد تأمّلت في هذا الباب فلم أجد في العالم كلّه أسوأ من الشاعر الهرم، ولا أضيع من المال الذي يهدى إليه.

وأمّا الشاب المستقيم الطبع فإن كان شعره رديئاً فهو مرجوّ أن يكون حسناً. ويجب في شرعة المروءة تربيته ويُفترض تعهده، ويلزم تفقده.

وليس أحسن في صحبة الملوك من حسن البديهة، فإنّ بالبديهة ينبسط السلطان، ويزهو مجلسه، ويبلغ الشاعر مقصوده.

ولم ينقل أحد ما ناله الرودكي من آل سامان بالبديهة والارتجال.

الحكاية الثانية

حكى أنّ نصر بن أحمد ـ الذي كان واسطة عقد آل سامان، وبلغت دولتهم في أيامه أوجهاً، واستكملت أسباب التمتع، ووسائل العلوّ، من خزائن مملوءة، وعسكر جرّار، وعبيد مطيعين ـ كان يشتو بدار الملك بخارى، ويضيف في سمرقند أو بمدينة من مدائن خراسان.

ووقع الاختيار على بادغيس من أعمال هراة في ربيع إحدى

السنين، وبادغيس أطيب مراعي خراسان والعراق، فيها زهاء ألف قناة فيها الماء والمرعى، في كلّ واحدة كفاية جيش.

فلمّا رعت الدواب واكتنزت واشتدّت، وصلحت للميدان والحرب، توجّه نصر بن أحمد تلقاء هراة ونزل في مَرغ سپيد على أبوابها، وضُرب المخيّم هناك. وكان الوقت ربيعاً وقد هبّت الشمال، ونضجت فواكه مالِن وكَروخ التي لا يلقى مثلها في كثير من البلاد وإن وجدت لم تبلغ هذه الكثرة.

فاستراح الجيش، وسكن إلى هواء طيب، وماء بارد، وقوت وافر، وفاكهة كثيرة، ورياحين شتّى، ونعم الجند وتمتعوا بالربيع والصيف.

ولما جاء الخريف ونضج العنب، وازدهر الشاهسفَرم والحَماحِم والأقحوان أخذوا حقّهم من نعيم الشباب، وأعطوا عنفوان الشباب نصيبه. وطال الخريف، ولم يشتدّ البرد، ونضج العنب شديد الحلاوة. وفي سواد هراة مائة وعشرون لوناً من الأعناب كلّ واحد ألطف من الآخر وألذّ. ومنها صنفان لا يوجدان في جهة أخرى من الربع المسكون: الپرنيان والكَلِنجَرى. رقيق القشرة، صغير البذرة، كثير الماء كأن ليس فيه أجزاء أرضية. ويبلغ العنقود من الكلنجرى خمسة أمنان والحبة خمسة دراهم، أسود كالقار، وحلو كالسكر يسهل الإكثار من أكله لما فيه من مائية.

وكلّ أنواع الفواكه الأخرى جيّد.

فلمّا رأى الأمير نصر بن أحمد الخريف وثمراته أعجبه جدّاً. وأخذ النرجس يزهر؛ وأُلقى الكشمش في مالن واستخرجوا المنقّى(*)

(*) المنقى: هو الزبيب الذي أخرج بذره.

وعلّقت العناقيد، وملأوا بها الخزائن. وانتقل الأمير والجند إلى قريتي غوره ودرواز فرأوا دوراً كلّ واحدة كالجنة العليا، ولكلّ منها حديقة وبستان أمامها، في مهبّ الشمال، فأمضوا الشتاء هناك، وأخذ النارنج يُجلب من جهات سجستان والترنج من نواحي مازندران. فقضوا شتاء طيّباً جدّاً.

فلمّا جاء الربيع أرسلت الخيل إلى بادغيس، وضرب المعسكر في مالِن بين نهرين. فلمّا دخل الصيف نضجت الفواكه. فقال الأمير نصر بن أحمد أين نذهب في الصيف؟ لا مقام أطيب ممّا هنا، نرحل في الخريف. ولمّا دخل الخريف قال نتمتع بخريف هراة ونرحل. وهكذا أخّر الرحيل من فصل إلى فصل (أحال فصلاً إلى فصل) حتّى أتى على هذا أربع سنين، إذ كانت دولة السامانيين في عنفوانها، والمملكة عامرة والملك بغير منازع، والجند مطيع، والوقت مساعد، والبخت موافق. ولكن مع هذا كلّه ملّ الجند، واشتاقوا إلى ديارهم. ورأوا الملك ساكناً إلى المقام، قد تمكّن هوى هراة من رأسه، وعشق هراة في قلبه، يشبهها في حديثه بجنة عدن، بل يفضلها عليها، ويراها أجمل من ربيع الصين. فعلموا أنّه يريد أن يمضي الصيف بها.

فتوجّه قادة الجند، وأعيان المملكة إلى الأستاذ أبي عبد الله الرودكي. ولم يكن في ندماء السلطان أعظم جاهاً منه ولا أنفذ قولاً، قالوا نهدي إليك خمسة آلاف دينار إذا وضعت لحناً يحرّك السلطان من هذه الأرض. فإنّ قلوبنا قد أفعمها الشوق إلى أولادنا، وأرواحنا بلغت الحلقوم حنيناً إلى بخارى.

فقبل الرودكي، إذ كان قد جسّ نبض الأمير، وعرض مزاجه وعلم أنّه لا يؤثّر فيه بالنثر فعمد إلى الشعر فنظم قصيدة ودخل على

الأمير حين الصبوح، وجلس مكانه. فلمّا فرغ المطربون أخذ هو الرباب وشرع ينشد هذه القصيدة في نغمة العشاق:

ما يزال يهب علينا عرف جيحون[٩]

وما يزال يهب علينا عرف الحبيب

ثمّ انتقل إلى نغمة أهدأ وأنشد:

إنّ رمل جيحون (آموي) وطريقه الوعر لا يزال تحت أقدامي كالحرير.

ولا يزال ماؤه، من فرط شوقه لوجه الحبيب، يعلو حتّى يبلغ وسط حصاننا. فلتسعد بخارى ولتطل حياتها، وليحيا الأمير ولا زال سعيداً.

إنّ الأمير القمر وبخارى السماء،

والقمر لا يزال يرنو للسماء

إنّ الأمير السرو وبخارى البستان،

والسرو لا يزال متّجهاً نحو البستان(*)

فلمّا بلغ الرودكي هذا البيت بلغ تأثّر الأمير أنّ نزل عن التخت وأسرع غير منتعل فركب فرس النوبة وتوجّه شطر بخارى حتّى حمل وراءه المَوزَج والغاشية(**) فرسخين إلى بروته. وهناك لبسهما. ولم يعرّج على مكان حتّى بخارى.

(*) بوی جوی مولیان آید همي — بوی یار مهربان آید همی
ریگ آموی ودرشتی راه او — زیر پایم پرنیان آید همی
آب جیحون از نشاط روی دوست — خنگ مارا تامیان آید همی
میر ماهست وبخاری آسمان — ماه سوی آسمان آید همی
میر سرواست وبخاری بوستان — سرو سوی بوستان آید همی

(**) جلد رقيق مزين يوضع فوق الخف.

وضاعف الجند للرودكي خمسة الآلاف دينار.

وسمعت في سمرقند سنة أربع وخمسمائة(*) من الدهقان أبي رجاء أحمد بن عبد الصمد العابدي قال حدث جدّي أبو رجاء أنّ الرودكي لمّا رجع إلى سمرقند هذه المرّة كانت أمتعته محمولة على أربعمائة جمل.

والحقّ أنّ هذا الرجل العظيم كان جديراً بهذا فإنّ أحداً لم يعارض هذه القصيدة حتّى اليوم. ولم ير الشعراء في طاقتهم الخروج من هذه المضايق.

وممّن عرفوا بين العجم بعذوبة القول ولطف الطبع أمير الشعراء المعزّي الذي بلغ شعره الغاية في الطلاوة والنضارة، والنهاية في العذوبة والسلاسة. وقد سأله زين الملك أبو سعد هندو بن محمد بن هندو الأصفهاني(١٠) أن يعارض هذه القصيدة. قال لا أقدر. فألحّ عليه فنظم أبياتاً منها هذا البيت:

يجيء الآن رستم من ما زندران،

ويجيء الآن زين الملك من إصفهان(+)

وكل عاقل يعرف أي فرق بين هذا الكلام وذاك الكلام. ومن يستطيع أن يقول بهذه العذوبة التي تبدو في قوله مادحاً في هذه القصيدة:

يبقى ما أفاء الشعر من الثناء والمديح،

ولو أصاب الفقر الخزانة(++)

(*) ١١١٠ - ١١١١م.

(+) رستم ازماندزران آيد همى زين ملك أز إصفهان آيد همى

(++) آفرين ومدح سود آيد همى گر بگنج اندر زيان آيد همى

وفي هذا البيت سبعة من محاسن الصنعة: المطابقة، والتضاد، والمردّف، وبيان المساواة، والعذوبة، والفصاحة، والجزالة[١١].

وكل أستاذ متبحر في علم الشعر إذا تفكّر قليلاً علم أنّي في هذا مصيب والسلام.

الحكاية الثالثة

عشق السلطان يمين الدولة محمود لأياز التركي معروف مشهور. ويقال إنّه لم يكن وسيماً جدّاً ولكن كان أسمر الوجه مليحه رشيقاً، ظريفاً عاقلاً رزيناً، عارفاً بآداب الخدمة، وكان في هذا نادرة زمانه.

وهذه الأوصاف هي التي تبعث العشق، وتؤكد المودة. وكان السلطان يمين الدولة محمود رجلاً ديّناً تقيّاً. وقد جاهد نفسه كثيراً في عشق أياز فلم يخرج عن جادة الشرع ومنهج المروءة قيد خطوة.

وكان في مجلس المنادمة ليلة فلمّا أثر فيه الشراب، وعمِل العشق، نظر إلى أياز فرأى عنبراً يضطرب على وجه قمر، ورأى سنبلاً يتثنى على صفحة الشمس، تشابك الدرع وتتابع حلقات السلسلة، في كلّ حلقة ألف فؤاد وفي كلّ حلقة مائة ألف روح.

فاختطف العشق زمام الاصطبار من يده. وبرز محتسب «آمناً وصدقنا» وقام أمام السلطان يمين الدولة وقال حذار يا محمود! لا تخلط العشق بالفسق، ولا تمزج الحق بالباطل، فإن بهذه الزلة تضطرب عليك ولاية العشق وتسقط من جنة العشق كما سقط أبوك وتقع في عناء دنيا الفسوق.

وكان سمع إقباله حديداً فسمع هذا النداء، وخشي ألّا يثبت جيش صبره لجند طرر أياز، فأخرج سكيناً وقال لأياز هيّا قاطع

طرّتيك. فحيّاه أياز وأخذ السكين من يده وقال من أين أقطع. قال من النصف. فثني أياز طرّته وقدَّر وامتثل. ووضع طرفي طرّتيه أمام محمود.

فيقال إنّ هذا الامتثال صار سبباً آخر للعشق. فطلب محمود ذهباً وجوهراً وأعطى أياز أكثر ممّا عوّده، وغلبه السكر فنام.

فلمّا هبّ عليه نسيم السحر قام فجلس على سرير الملك وتذكّر ما فعل فدعا أياز ورأى طرّتيه مقطوعتين. فأغار جيش الندم في قلبه واستولى خمار العربدة على رأسه. فكان ينام ويقوم. ولم يجرؤ أحد من المقرّبين أن يسأله ماذا به، حتّى توجّه الحاجب عليّ القريب[١٢]، وهو حاجبه الكبير، إلى العنصري وقال ادخل إلى السلطان، وأره نفسك واحتل حتّى تطيّب نفسه. فامتثل العنصري أمر الحاجب الكبير ودخل على السلطان وحيّا.

فرفع السلطان رأسه إليه وقال: يا عنصري كنت أفكر فيك الساعة. أنت ترى ما وقع فقل في هذا المعنى قولاً مناسباً.

فحيّاه العنصري وقال على البديهة:

لم تعيب قطع طرّة الحبيب	ولم تقعد وتقوم مهموماً؟
ألا فاطرب وانشط واشرب	فإنّ زينة السرو في شذبه[*]

فسرّ السلطان يمين الدولة محمود من هذين البيتين كلّ السرور،

(*) کیف عیب سر زلف بت از کاستن است
چه جای بغم نشستن وخاستن است
جای طرب ونشاط ومی خواستن است
کاراستن سرو زپیراستن است

وأمر أن يؤتى بالجواهر فملأ فمه بالجوهر ثلاث مرّات، ودعا بالمطربين، وشربوا ذلك اليوم إلى الليل على هذين البيتين. وانصرف هذا الداهية مسروراً بهذين البيتين. والسلام.

وينبغي أن يعلم أنّ البديهة ركن من أعلى أركان الشعر وعلى الشاعر أن يروض طبعه حتّى يستطيع أن يثير المعاني بديهة فإنّ البديهة تخرج الفضة من خزائنها، وملاءمة الحال تطيب نفس السلطان.

وهذا كلّه واجب مراعاةً لنفس المخدوم وطبع الممدوح، وأكثر ما أصاب الشعراء من الصلاة العظيمة كان بالبديهة ومراعاة الحال.

الحكاية الرابعة

كان الفرّخي من سجستان. وهو ابن چولوغ علام الأمير خلف بانو(١٣). وكان جيّد الطبع يحسن قرض الشعر، ويضرب على الرباب.

وكان في خدمة أحد جهاقين سجستان. وكان هذا الدهقان يعطيه كلّ عام من الغلة مائتي مكيال كلّ واحد خمسة أمنان، ومائة درهم نوحيّ من الفضة. وكان في هذا كفايته. ولكنّه تزوّج امرأة من موالي خلف أيضاً فكثرت نفقاته، وزادت تبعاته. فأصابته فاقة ولم يكن في سجستان أحد يُقصد إلّا الأمراء. فرفع الفرخيّ قصّته إلى الدهقان أن قد زاد الخرج فلو زاد الدهقان كرماً غلّتي إلى ثلاثمائة مكيال، والفضة إلى مائة وخمسين لعل هذا يفي بحاجاتي.

فوقع الدهقان على ظهر القصة أنّ هذا القدر لا يُضن به عليك ولا سبيل إلى الزيادة. فلمّا قرأ فرخي هذا يئس وأخذ يسأل الصادر والوارد لعلّه يجد في أطراف العالم وأكنافه ممدوحاً يقصد إليه ليصيب

خيراً عنده، حتّى أخبر أنّ الأمير أبا المظفر الصاغاني(١٤) في صاغان يحسن إلى الشعراء، ويفيض على هذه الجماعة الصلات والجوائز الفاخرة وأنّه لا ندّ له اليوم من ملوك العصر وأمراء الوقت في هذا الباب.

فنظّم قصيدة في مدح الأمير أبي المظفر:

غادرت سيستان مع قافلة الحِلّة، لابساً حُلّة غزلها من القلب ونسيجها من الروح(*).

وهي في الحق قصيدة حسنة أجاد بها وصف الشعر كلّ الأجاد وبذ الشعراء في المدح، ثمّ تزوّد وتوجّه تلقاء صاغان فبلغ الحضرة أوان الربيع وكان الأمير في الموسَم(**).

وسمعت أنّه كان عنده ثمانية عشرة ألف حِجرة أصيلة وراء كلّ واحدة مهرها. وكان يذهب كلّ سنة ويَسم المِهار.

وكان العميد أسعد وكيل الأمير في الحضرة، يهيىء الإنزال ليحملها إلى الأمير. فذهب فرخي إليه وأنشده قصيدة، وعرض عليه قصيدة الأمير. وكان العميد أسعد رجلاً فاضلاً محبّاً للشعراء فرأى لفرّخي شعراً سلساً بيّن العذوبة، بارع الصنعة. ورأى فرّخي سجزيّاً لا رواء له، يلبس جبّة ممزقة، ويضع عمامة كبيرة، وفي رجليه نعلان غليظان جدّاً. وشعره في السماء السابعة.

فلم يصدق أنّ هذا الشعر يلائم هذا السجزي. فقال على سبيل

(*) با كاروان حِلة برفتم ز سيستان   باحلـه تنيـده ز دل بافتـه زجان

(**) في الأصل داغگاه: مكان الوسم أي وسم الحيوان بالكي. فترجمناها باسم المكان من وسم.

الامتحان: الأمير في الموسم وأنا ذاهب إليه ومستصحبك إلى الموسم وهو بقعة جميلة جدّاً «ترى مرجاً أخضر مترامي الأكناف(+)»، تملؤه الخيام والمصابيح كالنجوم وينبعث من كلّ خيمة نغمات العود، والندماء جالسون يشربون ويتمتعون. وفي ساحة الأمير نار موقدة كالجبل والمهار توسَم. والأمير آخذ القدح بيد والوهق بالاخرى. يشرب الشراب، ويهب الخيل.

فأنشىء قصيدة تناسب الوقت، وصف الموسم لاستصحبك إلى الأمير.

فانصرف فرّخي تلك الليلة وأنشأ قصيدة رائعة، فلمّا أصبح توجّه بالقصيدة إلى العميد أسعد. وهي:

منذ غطّى المرج وجهه بوشاح أخضر،
واكتست قمم الجبال قوس قزح من حرير،
تضوّعت الأرض بالمسك كنافة الغزال،
وتلألأ ورق الصفصاف لا يحصى كريش الببغاء،
وصباح الأمس هاجت الريح نفحات الربيع،
حبذا ريح الشمال ويا طيب نسيم الموسم.
وكأنّما الريح بطيب المسك عطرت أكمامها،
وتزيّت حافة البستان بأجمل الدمى،
وتزيّن «النسترن» بقلادة من لؤلؤ،
والأرغوان تحلّى بقرط من لعل أحمر،
وعلت كأس الكميت أغصان الورود،
وتدلّت من شجيرات الجميز أيد ببنان،

(+) جهاني در جهاني سبزه بيني.

واكتسى البستان ألواناً وضياء وبلونها تحلّت الأغصان.
بكت السحب لآلىء قد جرت في الأرض ماء(*)،
وكأنّ الملك العادل قد حباها بالخلع،
وبلغت الأرض من السعادة ذروة
وقف الدهر حيالها فرحاً بل حائراً من أمرها.
وترى المرج الأخضر مترامي الأكناف كأطباق السماء
وصفوفاً من خيام كالقلاع المتراصة.
ثمل العاشق من خمر وحب في الخباء،
وحيثما الخضرة محبوب سعيد بحبيب.
وعلا صوت الرباب العذب بالخضرة مشوب،
فطغى على صوت السقاة يديرون كؤوس راح،

(*) چون پرند نیلگ ون برروی پوشد مرغزار
پرنیان هفت رنگ اندر سر آرد کوهسار
خاك راچون ناف آهو مشك زاید بي قیاس
بیدرا چون پرطوطی برگ روید بي شمار
دوش صبحدم بوی بهار أورد باد
حبذا باد شمال وخرما بوی بهار
باد گوئی مشك سوده دارد اندر آستین
باغ گوئی لعبتان جلوه دارد برکنار
نسترن لؤلوی بیضا دارد اندر مرسله
ارغوان لعل بدخشی دارد اندر گوشوار
تا برآن جامهای سرخ مُل برشاخ گل
پنجهای دست مردم سر فرو کرد از چنار
باغ بو قلمون لباس وشاخ بو قلمون نمای
آب مروارید گون وابر مروارید بار

ثمل العشاق من قبلات وعناق،
وترنّحت الحسان من دلال وعتاب،
وتغنّى المطرب النشوان لا يحفل بنائم من خمار.
باب كسرى قد أضاء أسفل الجبل بنار،
هي شمس بل لواء كسرى من ديباج أصفر.
ذهب يلمع عن بعدٍ وفيه من حياة
وفرة قد لا تدانيها الفتوة والشباب.
هذه مكواة خيله عود مرجان أم ياقوت
تلمس الناس فتشبه حَبُّ رمّان نضيد(*).

(*) راست پنداری که خلتهای رنگین یافتند
باغهای پر نگار از داغگاه شهریار
داغگاه شهریار اکنون چنان خرم بود
کاندرو از خرّمی خیره بماند روز گار
سبزه اندر سبزه بینی چون سپهر اندر سپهر
خیمه اندر خیمه چون سیمین حصار اندر حصار
هرکجا خیمه است خفتهعاشقی با دوست مست
هرکجا سبزه است شادان یاری از دیداریار
سبزها با بانگ چنگ مطربان چرب دست
خیمها با بانگ نوش ساقیان می گسار
عاشقان بوس وکنار ونیکوان ناز وعتاب
مطربان رود وسرود وخفتگان خواب وخمار
بردر پرده سراي خسرو پیروز بخت
از پی داغ آتشی افروخته خورشید وار
برکشیده آتشی چون مطرد دیبای زرد
گرم چون طبع جوان وزرد چون زرعیار
داها چون شاخهای بسدّ یاقوت رنگ
هریکی چون نار دانه گشته اندر زیر نار

وصفوف من شباب لم يذوقوا النوم من فرط النشاط،
وصفوف من خيول في انتظار.
ها كم كسرى السعيد على ظهر الجواد عبار البحار
قد أمسك القوس كاسفنديار
يتثنى ويتمايل مثل طرر الحسان،
ولكنّه كعهد الصداة المجربة في استقامته.
هو الأمير العادل أبو المظفر شاه مع حاشيته:
سعيد، مجدود، موفق، قادر.
كلّ ما يقع من صيد في أنشوطته
يكتب اسمه فوق جبينه وذراعه ووجهه.
ولكنّه إذ يسمّ الخيل يهب الهبات
يهدي الشعراء خيلاً باللُجام ويعطي الزوّار خيلاً في الحبال(*).
فلمّا سمع الرئيس أسعد هذه القصيدة تحيَّر إذ لم يكن سمع مثلها

(*) ريد گان خواب ناديده مصاف اندر مصاف
مـركـبـان داغ نـاكـرده قـطـار انـدر قـطـار
خـسـرو فـرخ سـيـر بـربـارهء دريـا گـذر
بـاكـمـد انـدر ميـان دشـت چـون اسـفـنـديـار
همچو زلف نيكوان مروگيسو تاب خوزه
هـمـچـو عـهـد دوسـتـان سـال خـورده اسـتـوار
ميـر عـادل بـو الـمظفـر شاه با پبوستگان
شـادمـان وشـادخـوار وگـامـران وكـامـگـار
هـركـرا انـدر كـمـنـد شـسـت بـازي در فـكـنـد
گـشـت نـامـش بـرسـريـن وشـانـه ورويـش نـگـار
هرچه زين سو داغ كرداز سوى ديگر هديه داد
شـاعـران را بـا لـگـام وزائـرانـرا بـا فـسـار

قط. فترك أعماله كلّها، وأركب الفرّخي وتوجّه تلقاء الأمير. وبلغ الأميرَ حين الغروب وقال: «يا مولاي! أتيتك بشاعر لم يُر مثله منذ غيّب الدقيقيَّ التراب(+)».

وقصّ ما جرى. فأذن الأمير للفرّخي. فلمّا دخل خدم(++) فمدَّ الأمير يده، وقرّب مكانه وسأله ولاطفه ووعده إحسانه.

وبعد أن دارت الكوس مرّات قام الفرخي وأنشدَ هذه القصيدة بصوت حزين حسن:

غادرت سجستان مع قافلة الحِلة

فلمّا أتمّها وكان الأمير عارفاً بالشعر ويقرضه كذلك أكثر تعجّبه من هذه القصيدة. فقال العميد أسعد: يا مولاي انتظر لترى خيراً منها. فسكت الفرّخي وصمت إلى أن بلغ سكر الأمير غايته. فقام وأنشد تلك القصيدة. قصيدة الموسم. فتحيّر الأمير والتفت إلى الفرّخي في هذه الحيرة وقال:

حُشِد ألف مهر كلّها خَتْلِيّة غرّاء[١٥] محجّلة الأربع. والأمر إليك أنت رجل سجزي وعيّار فما استطعت أن تمسكه فأمسك فهو لك.

وكان الشراب قد غلب عليه وأثّر فيه كلّ التأثير. فخرج ونزع عمامته من فوق رأسه وألقى بنفسه وسط القطعان. واستقبل قطيعاً وأخرجها إلى جهة أخرى من الصحراء، وأجزاها يميناً وشمالاً وكلّ ناحية فلم يستطع أخذ واحد منها ثمّ ظهر في طرف المعسكر رباط

(+) في الأصل: «منذ وضع الدقيقي وجهه في نقاب التراب». وهذا كناية عن الموت.

(++) حيا الأمير على الطريقة المعتادة إذ ذاك.

خرب فدخلت المهار هذا الرباط وكان الفرّخي قد بلغ منه النصب مبلغه. فوضع عمامته تحت رأسه في دهليز الرباط وغلبه النوم من فرط السكر والتعب.

وعدّت المهار فإذا هي اثنان وأربعون وأخبر الأمير الخبر فضحك كثيراً وتعجّب وقال رجل مجدود سيعلو أمره، أحرسوه والمهار وأيقظوني حين يستيقظ. فامتثلوا أمر الملك.

وقام الفرّخي مطلع شمس الغد وكان الأمير قد قام. فصلّى وجلس للناس، ولاطف الفرّخي: وسلمت إليه كلّ تلك المهار وأمر له بفرض مع عدّة خاصّة، وخيمتين وثلاثة بغال وخمس جوار وثياب للباس والفرش... وعلا أمر الفرّخي في خدمته، وصار ذا أبهة تامة.

الحكاية الخامسة

أرتبع ملك الإسلام سنجر بن ملك شاه (أطال الله بقاءه وأدام إلى المعالي ارتقاءه) سنة عشر وخمسمائة(*) في برية تروق[١٦] في حدود طوس وأمضى هناك شهرين. ووصلت من هراة إلى هذه الحضرة على سبيل الانتجاع وكنت معدماً، لا مال ولا زاد، فأنشأت قصيدة، وتوجّهت إلى أمير الشعراء المعزّي أستعينه.

ورأى شعري واختبرني في أنواع منه، فأعجبته فأكرمني وقضى حقّي.

وكنت يوماً عنده أستزيد الزمان وأشكو، فعطف عليّ وقال قد تعبتَ في هذا العلم، وبلغتَ غايته ولا بدّ له من أثر، وكذلك كانت

(*) ١١١٦ ـ ١١١٧م.

حالي، وما ضاع شعر جيّد قط، وسيكون لك في هذه الصناعة حظ، فشعرك سلس عذب، آخذ في الترقين فاصبر، وسترى لهذا العلم حسنات. وإن جار عليك الزمان أوّل الأمر فسيواتيك من بعيد.

كان أبي، أمير الشعراء البرهاني (رحمه الله) قد انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء في قزوين أوّل دولة ملكشاه، وأوصى بي السلطان بهذا البيت من تلك القطعة الرائعة:

لقد انتهيت وإنّ ابني لخلف صدق لي استودعه الله والملك(*).

فحوّل إلى ما كان لأبي من وظيفة وصلات[١٧]، وأصبحت شاعر ملكشاه، وقضيت في خدمة سلطان الزمان سنة لم أستطع رؤيته خلالها إلّا من بعيد، ولم أحصل من الصلات والوظيفة على مَنٍّ أو درهم واحد. وزادت نفقاتي، وأثقل القرض كاهلي، وتعقّد الأمر. وكان الوزير الكبير نظام الملك (رحمه الله) لا يميل إلى الشعر لأنّه لم يكن يحسنه، وما عُني بأحد غير الأئمة والمتصوّفة.

وفي يوم كان غداته غرّة رمضان، ولم يكن لدي لنفقة هذا الشهر والعيد دانق، ذهبت وأنا ضيق الصدر إلى علاء الدولة الأمير على فَرَامَرز[١٨]، وهو أمير، محب للشعر، ونديم السلطان الخاص وصهره. وكان ذا مهابة، جريئاً، وهو يشغل منصباً رفيعاً في تلك الدولة، وكان يرعاني. فقلت: أطال الله عمر الأمير ليس كلّ عمل قدر عليه الأب يقدر عليه الابن، وليس ما تيسّر للوالد ميسّراً للابن. لقد كان والدي رجلاً جلْداً شهماً، وكان موسعاً عليه في الرزق من هذه الصناعة (الشعر)، وكان سيّد العالم السلطان الشهيد الپ ارسلان

(*) من رفتم وفرزند من آمد خلف صدق
اورا بخدا وبخداوند سپردم

يقدّره، فما كان منه لا يتأتى إليّ، فإنّ لي حياءً يمنع، وقد زاده طبع دقيق. وقد خدمت سنة، واستدنت ألف دينار وما مُنحت دانقاً. وأودّ الإذن لي العودة إلى نيسابور فأقضي ما عليّ من دين وأنفق ممّا يتبقى، وأدعو للدولة القاهرة.

فقال الأمير علي: لقد صدقت، وقد قصرنا جميعاً ولن نفعل بعد ذلك. سيخرج السلطان في صلاة المغرب لرؤية الهلال فعليك أن تكون حاضراً هناك حتّى نرى ما يجود به الحظ. ثمّ أمر لي في الحال بمائة دينار لنفقات شهر رمضان، فأحضروا لي على الفور كيساً به مائة دينار، فعدت مسروراً وأوصيت بشراء ما لهذا الشهر. وذهبت إلى باب مخيم السلطان وقت صلاة العصر، فكان من الصدف أن يصل علاء الدولة في هذا الوقت نفسه فحييته. فقال حسناً فعلت وقد أتيت في الوقت المناسب، ثمّ نزل ودخل عند السلطان، وخرج السلطان من مخيمه ساعة الغروب وفي يده القوس، وكان علاء الدولة على يمينه. فهطعت وحييت: وقد أتمّ الأمير على أفضاله عليّ. وشغلوا برؤية الهلال، وكان السلطان أوّل من رآه فكان سروره عظيماً؛ فقال لي علاء الدولة؛ قل شيئاً يا ابن البرهاني في هذا الهلال الجديد فقلت هذين البيتين على الفور:

أيّها القمر، إنّك كحجاب الحبيب،
أو أنت كقوس الملك.
أو أنت كنعل الفرس من الذهب الخالص
أو كأنّك القرط في أذن الفلك(*)

(*) اي ماه چو ابروان يارى گوئى — يانى چو كمان شهر يارى گوئى
نعلى زده از زرّ عيارى گوئى — در گوش سپهر گو شوارى گوئى

فلمّا أنشدت هذا الشعر استحسنه الأمير عليّ كثيراً، وقال السلطان إذهب للإسطبل وخذ الحصان الذي تريد. وكنّا في هذه الساعة قُرب الإسطبل. فأشار الأمير علي إلى حصان فأحضروه وأعطوه لخدمه، وكان يقوّم بثلاثمائة دينار نيسابوري. وذهب السلطان إلى المصلّى فصلّيت معه المغرب، ثمّ ذهبنا إلى المائدة. فقال الأمير لي ونحن جلوس عليها: يا ابن البرهاني إنّك لم تقل شيئاً فيما أفاض عليك سلطان الدنيا من التشريف. قل على الفور «دوبيت». فنهضت وأدّيت التحية وقلت هذا الدوبيت كما اتفق:

حين رأى السلطان النار مشتعلة في خاطري

رفعني من الأرض فوق القمر.

وحين سمع منّي لحناً عذباً كالماء

وهبني حصاناً من خيله يسابق الريح(*)

فلمّا أنشدت هذا الدوبيت استحسنه علاء الدولة كثيراً، ووهبني السلطان، من أجل استحسانه إياه، ألف دينار. ثمّ قال علاء الدولة إنّ وظيفته وصلاته لم تصله وسألازم الوزير (نظام الملك) غداً حتّى يأمر بصرف وظيفته من الخزانة ويجعل صلته على أصفهان. فقال السلطان «لعلك فاعل هذا فليس للآخرين هذه الحسبة، ثمّ نادوه بلقبي». وكان لقب السلطان معز الدنيا والدين، فناداني الأمير علي بالأستاذ معزي، فقال السلطان بل الأمير معزي. وقد كان من أمر هذا العظيم الرفيع النسب أن أمر لي في اليوم التالي وقت صلاة الظهر بألف دينار وبوظيفة ألف ومائتي دينار ما أمر بإعطائي ألف مَنٍّ غُلّةً.

ولمّا مضى شهر رمضان دعاني إلى الحضرة وجعلني من ندماء

(*) نعلی زده از زرّ عیاری گونی   در گوش سپهر گو شواری گونی

السلطان وبدأ حظّي في الترقّي. وقد استمرّ هذا الأمير يُعنى بي وإنّ كلّ ما أنا فيه اليوم هو من رعايته. الله تبارك وتعالى ينير قبره بأنوار رحمته بمنّه وفضله.

الحكاية السادسة

كان آل سلجوق جميعاً يحبّون الشعر. ولكن لم يكن منهم من أحبّه أكثر من طغانشاه بن الب ارسلان[١٩]. وقد كانت محاوراته ومجالسه كلّها مع الشعراء، وكذلك كان ندماؤه جميعاً من الشعراء، مثل الأمير أبي عبد الله القرشي وأبي بكر الأزرقي[٢٠] وأبي منصور بن يوسف وشجاعي النسوي وأحمد البديهي وحقيقي ونسيمي، وهؤلاء كانوا في خدمته. والغادون والرائحون كثيرون، كلّهم مرزوق منه ومحظوظ.

وكان الأمير يلعب ذات يوم النرد مع البديهي، وكان اللعب على عشرة آلاف وقد أوشك على الانتهاء. كان عند الأمير حجران في بيت «الشيش» ولأحمد البديهي حجران في بيت «اليك» واللعب للأمير، فاحتاط كثيراً ثمّ رمى ليأتي «بالدُش»، فجاء الزهر «هبيك»، فغضب غضباً شديداً وخرج عن طبعه، وحق له هذا. وقد اشتدّ به الغضب فكان يمسك السيف كلّ لحظة، وارتعد الندماء كالورق على الشجر. فقد كان أميراً وحدَثا ومقموراً محرجاً.

فنهض أبو بكر الأزرقي واقترب من المطربين وأنشد هذا الدوبيت:

إذا طلب الملك «دوش» يأتي «الهبيك».

حتّى لا تظنّ أنّ الزهر لا يعدل.

فإنّ هذه «الضربة» التي ضربها هي مقصد لذلك،

جاءت إلى الخدمة ساجدة على الأرض(*)

حينما كنت في هراة سنة ٥٠٩(**) حكى لي أبو منصور بن يوسف أنّ الأمير طغانشاه قد سُرّ بهذا الدوبيت وعاوده النشاط فَقَبّل عيني الأزرقي. ثمّ طلب الذهب، خمسمائة دينار، وأخذ يملأ به فمه فلم يبق منه غير قطعة واحدة. وهكذا عاد إليه مرحه فوهب. وسبب هذا كلّه دوبيت واحد، رحم الله تبارك وتعالى الاثنين بمنّه وكرمه.

الحكاية السابعة

رفع رجل ذو غرض في شهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة(٢١)(+) قصة إلى السلطان إبراهيم بأنّ ابنه الأميرسيف الدولة محمود قد اعتزم على الذهاب إلى العراق والالتحاق بخدمة ملكشاه؛ فأغار هذا صدر السلطان، فكان أن أمر بالقبض عليه فجأة وقيده، وأرسله إلى القلعة، كما قُيِّد ندماؤه وأُرسلوا إلى القلاع. وكان من هؤلاء مسعود بن سعد بن سلمان الذي أرسل إلى قلعة ناي في وجيرستان(٢٢). فأرسل هذا إلى السلطان «دوبيت» قال فيه:

(*) يقصد أنّ «الدش» قد جاء كما أراد الأمير إلّا أنّه احتراماً للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر «الهيك».

گرشاه دوشش خواست دويك زخم افتاد

تاظن نبرى كه كعبتين داد نداد

آن زخم كه كرد رأى شاهنشه ياد

در خدمت شاه روى برخاك نهاد

(**) ١١١٥م.

(+) ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠م.

أيّها الملك، قد كان ينبغي أن يقع ملكشاه في أسرك حتّى يحك قيدك قدميه

أمّا من أنجبه سعد بن سلمان فإنّه لن يضرّ مُلكك ولو كان سماً(+)

وقد رفع على الخاص هذا الدوبيت إلى السلطان فلم يتأثر به. ويعرف أرباب العقل وأصحاب الإنصاف أي درجة بلغت حبسيات مسعود علواً ولأي مرتبة سمت فصاحة، وأنّه ليحدث أحياناً وأنا أقرأ أشعاره أن يقف شعر جسدي، كما يحدث أحياناً أن يفيض الدمع من عيني. وقد قرئت هذه الأشعار كلّها على السلطان واستمع لها فلم يتأثر في أي موضع منها[٢٣]. ثمّ مات وترك هذا الرجل الحر في السجن. وقد دامت فترة سجنه اثنتي عشرة سنة بسبب تقرّبه إلى سيف الدولة، كما طال حبسه ثماني سنوات أيام السلطان مسعود ابن إبراهيم بسبب تقرّبه إلى أبي نصر الفارسي[٢٤]. ولم يستمع إلى الكثير من القصائد الغراء والدرر النفيسة التي أبدعها طبعه الوقاد. وبعد ثماني سنوات أخرجه من السجن ثقة الملك طاهر بن مُشكان[٢٥].

وقد أمضى هذا الرجل الحر كلّ عمره، في دولتهم، سجيناً وبقيت هذه الوصمة لهذه الأسرة الكبيرة. وأنا حائر هنا فعلى أي وجه أحمل هذا الأمر أعلى ثبات الرأي أم على غفلة الطبع أم على قسوة القلب أم على الحقد. ومهما يكن فإنّه ليس حسناً. ولم أر عاقلاً يحمد لتلك الدولة هذا الحزم والاحتياط. وقد سمعت من سلطان العالم غياث الدنيا والدين محمد ابن ملكشاه، عند باب همدان في حربه مع

(+) در بندِتو ايشاه ملكشه بايد ... تا بند تو پاي تاجداری سايد
آن كس كه زپشت سعد سلمان آيد ... گر زهر شود ملك ترا نگزايد

الأمير شهاب الدين قُتُلْمُش الب غازي الذي كان زوج أخته[٢٦]، طيّب الله تربتهما ورفع في الجنان رتبتهما، أن حبس الخصم علامة على الحقد لأنّ الأمر لا يعدو واحداً من اثنين إمّا أن يكون الخصم مصلحاً أو مفسداً، فإذا كان مصلحاً فحبسه ظلم وإذا كان مفسداً فتركه على قيد الحياة ظلم أيضاً. وفي الجملة فقد انقضى ما لقي مسعود وستبقى هذه الوصمة إلى يوم القيامة.

الحكاية الثامنة

كان مُلك الخاقانيين[٢٧] أيام السلطان خضر بن إبراهيم[٢٨] عظيم الشأن وبلغ حسن سياستهم ومهابتهم الأوج - وكان هذا السلطان عاقلاً عادلاً، وكان زينة الملك فيما وراء النهر وقد سلّمت له تركستان - وكان مستريحاً تماماً من ناحية خراسان، فقد توطدت بينه وبينها صلات النسب والصداقة واستقرّ بينهما العهد والميثاق. ومن جملة عظمة ملكه أنّه كان حين يركب، يتقدّم حصانه سبعمائة مجنّ من الذهب والفضة عدا الأسلحة الأخرى. وكان صديقاً عظيماً للشعراء، فكان في خدمته الأستاذ الرشيدي، والأمير عَمْعَق ونجيبي الفَرغاني ونجار الساغرجي، وعلي البانيذي، وابن دَرْغُوش، وابن الأسفرايبني، وعلي السپهري، وكانوا ينالون منه صلات ثمينة ويأخذون منه تشريفات غالية. وكان الأمير عمعق أمير الشعراء، وكان له من هذه الدولة حظ كامل وثراء عظيم، من الغلمان الترك والجواري الحسان والخيل المُجَلّية والأدوات الذهبية والأكسية الفاخرة وغيرها كثير من الناطق والصامت. وكان عظيم الاحترام في مجلس الملك، فكان من الضروري أن يُلزم بخدمته الشعراء

الآخرون، فطمع في أن يخدمه الأستاذ الرشيدي، كما يفعل الآخرون، ولكنّه لم يفعل. فقد كان الرشيدي على صغره عالماً في تلك الصناعة. وكانت ممدوحته الست زينب بينما كان جميع حرم خضر خان تحت إمرته. وكان مقرّباً جدّاً من السلطان، الذي كان يثني عليه ويقرّ بفضله، حتّى ارتفع شأن الرشيدي وصار سيّد الشعراء وأصبح للسلطان اعتقاد فيه وأجزل له الصلات. فذات يوم، في غيبة الرشيدي، سأل السلطان عمعق قائلاً: «كيف ترى شعر عبد السيد الرشيدي». فقال عمعق: «شعر في غاية الجودة منقّى ومنقح، ولكن يلزمه بعض الملح». ولم يمض على ذلك كثير من الوقت حتّى دخل الرشيدي وأدّى الخدمة وطلب الجلوس. فاستقدمه السلطان، وقال له، قاصداً الإيقاع بينهما كما هي عادة السلاطين: «سألت أمير الشعراء كيف شعر الرشيدي فقال: إنّه حسن ولكن بلا ملح، فعليك أن نقول بيتين في هذا المعنى». فأدّى الرشيدي الخدمة ثمّ جاء إلى مكانه وجلس وقال هذه القطعة على البديهة:

لقد عبت شعري بأن لا ملح فيه، وقد يكون هذا جائزاً
إنّ شعري كالسكر والشهد، فالملح لا يصلح لهما،
أمّا شعرك فلفت وباقلاء، فالملح يلزمك أيّها الخبيث(*)

فلمّا عرض هذا الشعر سر الملك سروراً عظيماً. والعادة في ما وراء النهر، في مجالس الملك والمجالس الأخرى، أن يضعوا الذهب والفضة في الأطباق، ويسمّونها سيم طاقا أو جفت. وقد وُضع

(*) شعر هاي مرا به بى نمكى — عيب كرد روا بود شايد
شعر من همچو شكر وشهدست — وندرين دو نمك نكو نايد
شلغم وباقليست كفتهء تو — نمك اي قلتبان ترا بايد

في مجلس خضرخان أربعة أطباق بها الذهب الأحمر من أجل العطاء، في كلّ منهما مائتان وخمسون ديناراً، وكان يهب منها بقبضة يده. وقد أمر بما في هذه الأطباق الأربعة للرشيدي. وأظهر له غاية الاحترام. واشتهر. لأنّه كما أنّ الممدوح يعرف بشعر الشاعر المجيد، فكذلك يعرف الشاعر بصلة الملك القيمة، فإنّ هذين المعنيين متلازمان.

الحكاية التاسعة

الأستاذ أبو القاسم الفردوسي من دهاقين طوس، من قرية تسمّى باژ[٢٩] من ناحية طبران[٣٠]. وهي قرية كبيرة تخرج ألف رجل. وكان للفردوسي شوكة عظيمة في قريته، وكان في غنى عن أمثاله بما تغله ضياعه. وكانت له بنت واحدة فكان ينظم الشاهنامة وكلّ أمله أن يعدّ جهاز هذه البنت من صلة ذلك الكتاب، فاشتغل به خمساً وعشرين سنة حتّى أتمه، والحق أنّه لم يترك شيئاً وأنّه بلغ بالكلام إلى سماء العليين وأوصله في العُذوبة إلى ماء معين. وأي طبع تتهيأ له هذه القدرة ليصل بالكلام إلى الدرجة التي أوصله الفردوسي إليها في كتابه الذي كتبه زال إلى سام بن نريمان في ما زندران بشأن طلب الزواج من روذبة ابنة ملك كابل:

ثمّ أمر بكتابة خطاب إلى سام ملؤه المديح والدعاء والسلام.

فاستفتح بذكر الله الذي أمر بالعدل وعدَل.

ومنه إلى سام بن نيرمن رب السيف والدرع والخوذة، دعاء.

إنّه صارع الخيل وقت المعركة وآكل الرخ في الموقعة.

إنّه مثير الريح وقت الحرب وناثر الدم من السحاب الأسود.

إنّه فضل في فضل بالشجاعة، وقد رفعت رقبته رأسه عزةً(*).

وأنا لم أر في كلام العجم مثل هذه الفصاحة وكذلك في كثير من كلام العرب. ولمّا أتمّ الفردوسي الشاهنامة كان نساخه أبا علي الديلمي وكان راويه أبادلف وشكرحيّ (حسين) بن قتيبة الذي كان عامل طوس وله على الفردوسي أيادٍ، وهو يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة:

ولعلي الديلمي وأبي دلف، بين أكابر المدينة، نصيب موفور(**).

ولم يكن حظي منهم إلّا أحسنت. لقد تحطمت قوتي تحت قولهم أحسنت.

(*) يكى نامه فرمود نزديك سام — سرا سر درود ونويد وخرام
نخست از جهان آفرين ياد كرد — كه هم داد فرمود وهم داد كرد
وزو باد بر سام نيرم درود — خداوند شمشير وكوپال وخود
چمانندهء چرمه هنگام كرد — چرانندهء گركس اندر نبرد
فزايندهء باد أور دگاه — فشانندهء خون ز ابر سياه
مردى هنر ر هنر ساخته — سرش از هنر گردن افراخته

(**) في هذه الأبيات تقديم وتأخير، ونحن نذكر القطعة كلّها حتّى يبيّن المعنى: حينما مضى عليّ خمس وستون سنة زدت همي ونصبي، وشقيت بتاريخ الملوك ونحس كوكبي. والكبراء والأحرار أولو العلم كتبوه جميعاً مجاناً وهم ينظرون إيّ من بعيد كأنّي كنت أجيرهم. ولم يكن حظي منهم إلّا أحسنت. لقد تحطمت قوّتي تحت قولهم أحسنت. زمّوا رؤوس البدر العتيقة، وانقبض صدري المنور. ولكن لعلي الديلمي، بين أكابر المدينة، نصيب موفور، ذلك الرجل ذو البصيرة يسر عملي وسني نجاحي. وأبو نصر الوراق كذلك نال بهذا الكتاب من الكبراء شيئاً كثيراً. وحسين ابن قتيبة ذلك الحر الذي لم يبغ منّي الكلم بغير جزاء، كان منه الطعام واللباس والفضة والذهب وبه تحرّكت يدي وقدمي، مستريحاً من الخراج أصله وفرعه متقلباً في رغد ورفاهية. الشاهنامة، ج٢، ص٢٧٥، هامش (عزام بك).

وحسين بن قتيبة ذلك الحر الي لم يبغ منّي الكلم بغير جزاء.

لم أكن أعبأ بالخراج أصله وفرعه، وكنت أتقلب في رغد ورفاهية(*).

وكان حي (حسين) بن قتيبة عامل طوس. وقد رأى من واجبه أن يضع عن الفردوسي الخراج، لا جرم أن يبقى اسمه حتّى يوم القيامة، ويقرأه الملوك. ثم كتب على الديلمي الشاهنامة في سبعة مجلدات. وأخذ الفردوسي أبا دلف وتوجّه تلقاء الحضرة في غزنة، وتوسّل بالرئيس الكبير أحمد بن الحسن الكاتب فقبلها. وكان السلطان محمود يعرف له أياديه، ولكن الرئيس الكبير كان له منافسون يدأبون على الإيقاع به والغض من قدره. فسأله محمود هذه الجماعة ماذا نعطي الفردوسي؟ قالوا: خمسين ألف درهم، بل هذا كثير. لأنّه راجل رافضي ومعتزلي. وهذا البيت دليل على اعتزاله فهو يقول:

إنّك لن ترى الخال بعينيك، فلا تجهدهما(+).

وهذه الأبيات دليل على رفضه فإنّه قال:

«إنّ الحكيم يرى هذه الدنيا بحراً ثارت بموجه ريح عاصف، فيه سبعون سفينة قد نشرت شرعها، بينهن سفينة كالعروس، مجلوة في زينتها كعين الديك. وفيها محمد وعلي وأهل بيت النبي والوصي. فإن كنت ترجو الدار الآخرة فتبوأ مكانك عند النبي والوصي. فإن أصابك

(*) ازين نامه از نامداران شهر — على ديلم وبو دلف راست بهر
نيامد دز احسنتشان بهره ام — بكفت اندر احسنتشان زهره ام
حي قتيبه است از آزادگان — كه از من نخواهد سخن رايگان
نيم آگه از اصل وفرع خراج — نبيني مرنجان دو بيننده را

(+) به بينند گان آفر بننده را — نبيني مرنجان دون بيننده را

من هذا شر فإثمه عليّ. ذلك مذهبي وطريقتي. عليه ولدت وعليه أموت. وما أنا إلّا تراب قدم حيدر»[*].

وكان السلطان محمود رجلاً متعصباً فعملت فيه هذه السعاية وأصغي إليها، فأرسل إلى الفردوسي عشرين ألف درهم. فاغتمّ جدّاً وذهب إلى الحمام ثمّ خرج وشرب فقاعاً، وقسّم هذه الفضة بين الحمامي والفقاعي. وكان يعلم سطوة محمود ففارق غزنة بليل، ونزل بهراة في دكان إسماعيل الورّاق والد الأزرقي (الشاعر)، وتوارى في داره ستة أشهر حتّى بلغ طلاب السلطان طوسا وعادوا.

فلمّا أمن الفردوسي توجّه من هراة إلى طوس، وحمل الشاهنامة وسار إلى طبرستان، إلى الأصبهبذ شهريار[31] الذي كان ملك طبرستان، من آل باوند. وهي أسرة عظيمة يتصل نسبها بيزدجرد بن شهريار فكتب في الديباجة مائة بيت في هجاء محمود. وقرأها على شهريار وقال: «سأحوّل هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك. فإنّ هذا الكتاب كلّه أخبار أجدادك ومآثرهم». فتلطف شهريار وأكرمه وقال: «يا أستاذ إنّ محموداً قد حُمل على هذا، ولم يُعرض عليه كتابك كما ينبغي وسُعي بك. ثمّ انت رجل شيعي. وكلّ من تولّى

(*) خردمند گیتی چو دریا نهاد | برانگیخته موج ازو تند باد
چو هفتاد کشتی درو ساخته | همه باد بانها بر آفراخته
میانه یکی خوب کشتی عروس | بر آراسته همچو چشم خروس
پیمبر بدو اندرون با علی | همه أهل بیت نبی ووصی
اگر خلد خواهی بدیگر سرای | بنزد نبي ووصی گیر جای
گرت زین بد آید گناه منست | چنین دان واین راه راه منست
برین زادم وهم برین بگذرم | یقین دان که خاك پی حیدرم

آل النبي لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم لهم أنفسهم. ومحمود ملكي. فدع الشاهنامة باسمه، وأعطني الهجاء لأغسله، وأعطيك شيئاً يسيراً. سيدعوك محمود ويسترضيك. ولا يضيع جهد كتاب مثل هذا».
وفي اليوم الثاني أرسل إليه مائة ألف درهم وقال: اشتريت كلّ بيت بألف درهم، فأعطني مائة البيت هذه، وأرض عن محمود. فأرسل الفردوسي الأبيات فأمر (شهريار) بغسلها، وغسل الفردوسي مسودتها أيضاً. وضاع الهجاء وبقيت منه هذه الأبيات الستة.

«لقد قالوا طاعنين: إنّ هذا المنطيق شابَ على حب النبي وعلى
ولئن حكيتُ لهم حبّي لأحمين مائة مثل محمود.
إنّ ابن الأمة لا يرجى خيره ولو كان أبوه ملكاً.
حتّام أطيل الكلام في هذا، وهو كالبحر لا أعرف له قراراً؟
لم يكن للملك قدرة على الخير، وإلّا لرفعني على العرش.
ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظماء(*)»

والحق أنّ شهريار قدم إلى محمود يداً عظيمة وقد عرف له محمود حقّه.

وقد سمعت سنة ٥١٤(**) في نيسابور من الأمير المعزى أنّه سمع

(*) مرا غمز کردند کان پر سخن — بمهر نبی وعلی شد کهن
اگر مهر شان من حکایت کنم — چو محمود را صد حمایت کنم
پرستار زاده نیاید بکار — وگر چند باشد پدر شهریار
ازین در سخن چند رانم همی — چو دریا کرانه ندانم همی
به نیکی نبد شاه را دستگاه — وگرنه مرا بر نشاندی بگاه
چو اندر تبارش بزرگلا نبود — ندانست نام بزرگان شنود

(**) ١١٢٠ ـ ١١٢١.

من الأمير عبد الرزاق بطوس أنّ محموداً كان في الهند مرّة، وبينا هو عائد منها إلى غزنة عرض له ثائر في قلعة حصينة. وكان منزل محمود في اليوم الثاني عند باب هذه القلعة. فأرسل إليه رسولاً أن ائت غداً، وقدّم الطاعة، واخدم حضرتنا، والبس التشريف، وارجع. فلمّا كان الغد ركب محمود. وبينما الرئيس الكبير(+) يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان.

فقال السلطان للرئيس الكبير: ماذا يكون الجواب؟ فأنشد الرئيس بيت الفردوسي هذا:

إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجزر والميدان وأفراسياب(++).

قال محمود: لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه؟ قال للمسكين أبي القاسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وأتمّ هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة. قال محمود: أحسنتَ بما ذكرتني، فقد آسفني أن يُحرم عطائي هذا الرجل الحر، ذكّرني في غزنة لأرسل إليه شيئاً. فلمّا جاء الرئيس غزنة ذكّر محموداً. فقال السلطان: مر لأبي القاسم الفردوسي بستين ألف دينار، يعطاها نيلجا، وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس، ويعتذر إليه. ومضت سنون والرئيس في شغل بهذا. ثمّ أنجز الأمر وحمل الإبل. ووصل النيلج سالماً إلى طبران. وبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسي تخرج من باب رزان. وكان في ذلك الوقت، في

(+) لقب الشيخ الأجل شمس الكفاة أحمد بن الحسن الميمندي وزير السلطان محمود.

(++) اگر جز بکام من آید جواب من وگرز وميدان وافراسياب

طبرستان، واعظ متعصب فقال أنا لا أجيز حمل جنازة الفردوسي إلى قرافة المسلمين، فإنّه كان رافضياً، وأطال الناس التحدّث إلى هذا العالم ولكن حديثهم لم يجد معه شيئاً. وكان للفردوسي حديقة عند هذه البوابة فدفنوه بها، وهو فيها اليوم. وقد زرت تلك المقبرة سنة ٥١٠(*).

ويقولون إنّ الفردوسي خَلّف بنتاً عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت وقالت: لا حاجة بي إليها. فكتب صاحب البريد إلى السلطان وعُرض الأمر عليه فأمر بأن يخرج ذلك العالم من طبران لما بدا منه من فضول، وأن يطرد من بيته وأن يعطي المال إلى الشيخ أبي بكر بن إسحق الكرامي[٣٢] ليعمر به رباط چاهه في حدود طوس، على طريق مرو ونيسابور. فلمّا بلغ الأمر طوساً امتثلوه. وبناء رباط چاهه من هذا المال.

الحكاية العاشرة

لمّا كنت في خدمة السلطان ملك الجبال[٣٣] نوّر الله مضجعه ورفع في الجنان موضعه، وكان عظيم الثقة بي وكان يبدي همّة عالية في رعايتي، كان من بين من وفد على الحضرة يوم عيد الفطر من عظماء وأبناء عظماء مدينة بلخ عمّرها الله، الأمير العميد صفي الدين أبو بكر محمد بن الحسين الروانشاهي، وهو شاب (فاضل مفضل وكاتب مجيد ومستوف صالح) وله من الأدب وثمراته نصيب، وهو محبّب إلى القلوب، تمدحه الألسن. ولم أكن في هذه الأثناء ماثلاً بالخدمة.

(*) ١١١٦ - ١١١٧.

وقد اتفق أنّ قال الملك في هذا المجلس نادوا النظامي. فقال الأمير العميد صفي الدين: «هل النظامي هنا؟» فقيل له «نعم». وقد حسب أنّه النظامي المنيري، فقال له: نعم إنّه شاعر مجيد ورجل مشهور. فلمّا جاء الفراش وناداني تنعلت ودخلت ثمّ أدّيت الخدمة وجلست في مكاني، فلمّا دارت الكؤوس مرّات قال الأمير العميد إنّ نظامي لم يجيئ. فقال ملك الجبال: جاء، ها هو جالس هناك. فقال الأمير العميد: لم أقصد هذا النظامي إنّه رجل آخر وأمّا هذا فأنا لا أعرفه. وحينئذ رأيت الملك وقد تغيّر والتفت إليّ في الحال وقال: هناك نظامي غيرك؟ فقلت نعم يا مولاي، يوجد نظاميان أحدهما السمرقندي ويسمّونه نظامي المنيري والآخر النيسابوري ويسمّونه نظامي الأثيري، وأمّا أنا فيسمّونني نظامي العروضي. فقال: أأنت الأفضل أم هما.

وقد أدرك الأمير العميد أنّه أساء التعبير ورأى الملك متغيّراً فقال: أيّها الملك إنّ هذين النظاميين عربيدان وهما يعكران صفو المجالس بعربدتهما فيفسدانها. فقال الملك متلطفاً: «انتظر حتّى ترى هذا وقد شرب خمسة كؤوس من الخمر المثلثة وأفسد المجلس. ولكن أي هؤلاء الثلاثة أشعر؟». فقال الأمير العميد: لقد رأيت ذينك الإثنين وأعرفهما حق المعرفة ولكن لم أر هذا ولا سمعت شعره فلو قال في هذا المعنى الذي ذكرنا بيتين فأرى طبعه وأسمع شعره فإنّي أحكم أي هؤلاء الثلاثة افضل؟

فالتفت الملك إليّ وقال: هيّا يا نظامي ولا تخجلنا، وأنشد ما طلب الأمير العميد. وكنت أثناء خدمتي للملك فياض الطبع وهاج الخاطر، وكنت من إكرامه وإنعامه عليّ أنشد الشعر بالبديهة،

فأمسكت القلم وقلت هذه الأبيات الخمسة ولما تدر الكؤوس مرّتين:

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوي الدنيا باسمنا، أنا في ورساد[٣٤] أمام عرش ملكي والآخران في مرو أمام السلطان، والحقيقة أنّ كلّا مِنّا، مفخرة خراسان اليوم.

ومع أنّهما يقولان شعراً رقيقاً كالروح، ومع أنّهما يعرفان فن القول كالحكمة

فإنّ الشراب إذا تمكّنت منهما نزلاً عن صناعتهما(*).

فلمّا أنشدت هذه الأبيات تقدّم الأمير العميد صفي الدين بالخدمة ثمّ قال: أيّها الملك دع النظاميين الآخرين فإنّي لم أعهد في أحد من شعراء ما وراء النهر وخراسان والعراق هذا الطبع الذي يمكنه من ارتجال مثل هذه الأبيات الخمسة وخاصّة بهذه المتانة والجزالة والعذوبة، فإنّها مقرونة بعذب الألفاظ ومشحونة بالمعاني الجديدة، فلتسعد يا نظامي فليس لك على وجه البسيطة نظير. إنّ له يا مولاي طبعاً لطيفاً وخاطراً قويّاً وفضلاً تاماً، وإنّ إقبال الملك وهمّته، رفعهما الله، قد زاداه فصيراه نادرة زمانه، وسوف يتقدّم فإنّه شاب والمستقبل له.

(*) در جهان سه نظاميئيم اي شاه — كه جهاني ز ما بافغانند
من بورساد پيش تخت شهم — وآن دو در پيش سلطانند
بحقيقت كه در سخن امروز — هر يكي مفخر خراسانند
گرچه همچون روان سخن گويند — ورچه همچون خرد سخن دانند
من شرابم كه شان چو دريابم — هر دو از كار خود فرو مانند

فتهلّل وجه الملك العظيم وظهرت بشاشة طبعه وأثنى عليّ فقال: لقد وهبتك (خمس)(*) منجم رصاص ورساد من هذا العيد حتّى عيد الأضحى فأرسل عاملاً. ففعلت وبعثت إسحق اليهودي وكان ذلك في تمام الصيف وهو موسم العمل وفيه يكثر إذابة المعدن حتّى أنّه جمع في سبعين يوماً إثني عشر ألف منّ من ذلك الخمس(**) الذي مُنحت. وارتفع تقدير الملك لي ألف مرّة. نوّر الله تبارك وتعالى قبره العزيز (بشمع رضاه) وفرّح روحه الشريف (بجمع الغَنَاء) بمنّه وكرمه.

(*) (**) زدنا هذه الكلمة «خمس» هنا حتّى يتسق النص. ولعلّ النسّاخ نسوها. أمّا القزويني فقد ذهب في حواشيه ص١٩٢ إلى أنّ المقصود من الجملة «درمدت هفتاد روز دوازده هزار من سرب از آن خمس بدين دعا گوى رسيد» غير مفهوم، وقال إمّا أن تقرأ «در إزاء خمس» باعتبار النظامي من آل النبي [صلّى الله عليه وسلّم] وأنّه مستحق للخمس. وإمّا أن تقرأ «بدون خمس» أي بعد إخراج الخمس نتج إثنا عشر ألف مَنّ. وربّما كان المقصود أنّ السلطان وهبه خمس إنتاج المنجم، ولذا زدنا كلمة الخمس ووضعناها بين قوسين.

المقالة الثالثة

في علم النجوم

يقول أبو الريحان البيروني[1] في الباب الأوّل من كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم»[2]: «لا يسمّى الرجل منجماً ما لم يُحط بأربعة علوم، الأوّل الهندسة والثاني الحساب والثالث الهيأة والرابع الأحكام».

أمّا الهندسة فهي صناعة يعرف بها أصول أوضاع الخطوط وأشكال السطوح والمجسمات والنسبة الكلية بين المعايير وما يقدر بها ونسبة هذه إلى الأوضاع والأشكال. وقد اشتمل على أصول هذا العلم كتاب «أوقليدس النجار» الذي نقحه ثابت بن قرّة[*].

والحساب صناعة يعرف بها أحوال أنواع الأعداد وخصائص كلّ منها بذاته، ونسبة الأعداد إلى بعضها وتوالدها، ثمّ فروع الحساب من تنصيف وتضعيف وضرب وقسمة وجمع وتفريق وجبر ومقابلة. وقد اشتمل على أصوله كتاب «أرثماطيقي» وعلى فروعه «تكملة أبي منصور البغدادي»[3] أو «صدباب»[4] (مائة باب) للسجزي.

والهيأة علم يعرف به أحوال أجزاء العالمين العلوي والسفلي

(*) ولد سنة ٢٢١/٨٣٦ وتوفي سنة ٢٨٨/٩٠١.

وأشكالهما وأوضاعهما، ونسبة كلّ منهما إلى الآخر، وما بينهما من المقادير والأبعاد، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك، وتعديل الكرات وقطع الدوائر التي تتمّ بها هذه الحركات. وقد اشتمل على هذا العلم كتاب «المجسطي»، وأحسن تفاسيره وشروحه «تفسير النيريزي»[٥] و«مجسطي الشفا»[*]؛ وأمّا فروع هذا العلم فهي علم الزيجات وعلم التقاويم.

والأحكام علم من فروع العلم الطبيعي وأساسه التخمين، والمقصود به الاستدلال من أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وبقياس الدَرَج والبروج، على مجرى الحوادث التي تفيض عن حركاتها، من أحوال أدوار العالم والملك والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل والتسايير والاختيارات والمسائل. ويشتمل عليه، حسب ما ذكرنا، تصانيف أبي معشر البلخي[٦]، وأحمد بن عبد الجليل السجزي[٧]، وأبي الريحان البيروني، وكوشيار الجيلي[٨].

وإذاً ينبغي أن يكون المنجم طيب النفس، زكي الخَلْق، رضي الخُلُق. كما أنّ العته والجنون والكهانة من شرائط هذا العلم، ومن لوازم هذه الصناعة. وينبغي أن يكون طالع المنجم الذي يريد أن ينبىء بالأحكام في سهم الغيب، أو في مكان ملائم منه. ومن توفّر له برج سهم الغيب كان مسعوداً، وكان مكانه محموداً، ووقع ما يقول قريباً من الصواب. ومن شرائط المنجم أن يذكر «مجمل أصول كوشيار»[٩]، وأن يداوم قراءة «كارمهتر»[١٠]، وأن ينظر في «قانون المسعودي»[١١] و«جامع شاهي» حتّى تبقى معلوماته وتصوّراته حاضرة.

(*) أي كتاب الشفا لابن سينا.

الحكاية الأولى

كان يعقوب بن إسحاق الكندي[١٢] يهودياً، ولكنّه كان فيلسوف زمانه، وحكيم عصره، وكان مقرّباً عند المأمون. وقد دخل عليه يوماً فاتخذ لنفسه مجلساً أعلى من مجلس أحد أئمة الإسلام، فقال هذا: «إنّك رجل ذمي فكيف تتّخذ مكاناً أعلى من مكان أئمة الإسلام». فأجاب يعقوب: «لأني أعلم ما تعلم، وأنت تجهل ما أعلم». وكان هذا الإمام يعرف أن ليعقوب علماً بالنجوم، ويجعل مدى علمه بغيرها فقال: «سأكتب شيئاً على قصاصة من الورق فإن خبّرت به سلمتُ بما قلت». ثمّ تراهنا على أن يقدم الإمام رداء. وأن يقدّم يعقوب بغلة بعدّتها تقوّم بألف دينار، وكانت واقفة على باب القصر. وطلب الإمام دواة وورقة فكتب على جانب منها، ثمّ وضعها تحت بساط الخليفة وقال: «أحدس». فطلب يعقوب بن إسحق لوحاً، ثمّ نهض وأخذ الارتفاع وأعدّ الطالع، ثمّ رسم الزايجة على اللوح وقوّم الكواكب وثبّتها في البروج، ثمّ استكمل شرائط الخَبْي والضمير[*] وقال: «يا أمير المؤمنين قد كُتب على هذه الورقة شيء كان نباتاً فصار حيواناً». فمدّ المأمون يده تحت البساط وأمسك الورقة فأخرجها، وكان الإمام قد كتب عليها: «عصا موسى». فتعجب المأمون تعجباً عظيماً كما دهش الإمام، فأخذ يعقوب الرداء فشقّه نصفين أمام المأمون. وقال: «سأتخذ منه جوربين».

(*) شرح البيروني هذين الاصطلاحين في كتابه «التفهيم...» فقال: الخبي هو ما أخفى في قبضة اليد. والضمير ما أضمره الرجل وأدركه المنجم بالسؤال. وكثيراً ما يخطىء المنجم في الحدس فيهما، والخطأ فيهما أكثر من الصواب (الورقة ١٥٧ ب من نسخة المتحف البريطاني. حواشي القزويني ص٢٠٦ ـ ٢٠٧).

ذاعت هذه القصة في بغداد، ومنها سرت فانتشرت في العراق وخراسان، فأخذ فقيه من فقهاء بلخ، وكان فيه تعصب العلماء، سكيناً فخبأها في كتاب للنجوم، كي يذهب إلى بغداد ويحضر درس يعقوب، ويبدأ تعلّم النجوم، ثمّ ينتهز الفرصة فيغتاله. وسافر بهذا العزم من بلد إلى بلد حتّى بلغ بغداد، فذهب إلى الحمام ثمّ خرج منه لابساً ثوباً جديداً، ووضع الكتاب في كمّه، وتوجّه إلى بيت يعقوب. فلمّا بلغ الباب، وجد خيلاً كثيرة عليها عُدد من الذهب، منها ما هو لبني هاشم وما هو لعظماء القوم وأعيان بغداد. فتقدّم ودخل ومضى في حلقة الدرس نحو يعقوب فأثنى ثمّ قال: «أريد أن أقرأ شيئاً في علم النجوم على مولانا». فقال يعقوب: «بل جئتَ من المشرق لقتلي لا لقراءة النجوم، ولكنّك ستندم على هذا. وستقرأ النجوم وستبلغ الكمال في هذا العلم وتكون من كبار المنجمين في أمّة محمد ﷺ. فتعجّب جميع العظماء الحاضرين من هذا الكلام، واعترف أبو معشر، وأخرج السكين من الكتاب فحطمها ورمى بها، ثمّ ثنى ركبتيه، وأكبّ على التعلّم خمسة عشر عاماً حتّى بلغ في علم النجوم ما بلغ.

الحكاية الثانية

يحكى أن يمين الدولة السلطان محمود بن ناصر الدين(*) كان جالساً على سطح جوسق ذي أربعة أبواب في حديقة هزار درخت أو (ألف شجرة) بمدينة غزنين، فالتفت إلى أبي الريحان البيروني وقال: «أخبرني مِن أي هذه الأبواب الأربعة سأخرج؟ قل واكتب اختيارك

(*) محمود الغزنوي الذي حكم من ٢٨٨/٩٩٨ ـ ٤٢١/١٠٣٠.

على ورقة ثمّ ضع الورقة تحت بساطي»، وكانت هذه الأبواب كلّها تؤدّي إلى الطريق؛ فطلب أبو الريحان الاسطرلاب وأخذ الارتفاع وأعدّ الطالع وتفكّر ساعة ثمّ كتب على الورقة ووضعها تحت البساط. وقال محمود «أحَكمتَ». قال: نعم. فأمر محمود بإحضار عامل ومعه فأس ومسحاة لفتح باب خامس في الجدار الشرقي ثمّ خرج من هذا الباب وامر بإحضار الورقة فإذا أبو الريحان قد كتب عليها «إنّ الخروج لا يكون من أحد هذه الأبواب الأربعة بل سيفتح باب في الجدار الشرقي ومنه يكون الخروج».

فلمّا قرأ السلطان محمود هذا الكلام غضب، وأمر بإلقاء أبي الريحان في ساحة القصر، فألقوه، ولكنّه وقع على شبكة معلقة في الطابق الأوسط فانشقت وهوى البيروني في رفق إلى الأض فلم يصب جسمه برض. وقال السلطان أحضروه فصعدوا به إليه فقال له: «يا أبا الريحان إنّك لم تحط علماً بما جرى لك». فقال: «بل كنت أعلم به يا مولاي». قال: فما دليلك؟ فنادى غلامه وأخذ منه التقويم فاستخرج منه تحويله فكان مكتوباً في أحكام ذلك اليوم «إنّه سيلقى بي من مكان عال ولكنّي أبلغ الأرض بسلام وأنهض معافى». فلم يرق هذا الكلام لمحمود أيضاً وازداد غضبه وقال: احملوه إلى القلعة واحبسوه. فحبسوه في قلعة غزنين فلبث فيها ستة أشهر.

الحكاية الثالثة

قالوا: ولم يكن أحد يجرؤ على ذكر أبي الريحان عند السلطان محمود طوال هذه الأشهر الستة، وكان قد عيّن لخدمته أحد غلمانه، فكان يقوم بقضاء ما يحتاج إليه، يخرج ثمّ يعود. وبينما الغلام يمر يوماً بحديقة غزنين إذا بعرّاف يناديه: أرى في طالعك كثيراً ممّا يقال،

هات حلوانك لأحدّثك عنه. فأعطاه الغلام درهمين، فقال له العرّاف: «إنّ أحد أعزائك في ضيق وسيخلص منه في مدى ثلاثة أيام، فيلبس الخلعة والتشريف ويعود عزيزاً مكرماً». فسارع الغلام إلى القلعة وحدث سيّده مبشراً بما سمع. فضحك أبو الريحان وقال: «ألا تعلم أيّها الأبله أنّه لا يجوز الوقوف بمثل هذه الأماكن وأنّك قد أضعت الدرهمين سدى».

قيل: وكان الوزير الكبير أحمد بن حسن الميمندي طوال هذه الأشهر الستة يترقب الفرصة ليتحدّث عن أبي الريحان، ثمّ رأى السلطان معتدل المزاج في المصطاد فانتهز الفرصة وأخذ ينتقل من حديث إلى حديث حتّى انتقل إلى علم النجوم فقال: «مسكين أبو الريحان، فقد صدقت نبوءته في هذين الحكَمين ولكنّه لقي القيد والسجن بدلاً من الخلعة والتشريف» فقال محمود: ليعلم الوزير أنّي أعرف هذا، ويقال إنّه ليس لهذا الرجل نظير غير ابن سينا، ولكن حكميه كانا على خلاف رأيي والملوك كالأطفال الصغار، ينبغي أن يكون الكلام وفق رأيهم ليكون للمتحدّث نصيب منهم وكان من الخير له لو أخطأ ذلك اليوم في أحد حكميه، مُرْغداً بإطلاق سراحه، وبأن يعطى حصاناً وعدة من ذهب وحبة ملكية وعمامة من القصب وألف دينار وغلاماً وجارية.

وقد أطلق سراح أبي الريحان في اليوم الذي ذكره العرّاف وأكرم على النحو الذي وصف واعتذر له السلطان قائلاً: «يا أبا الريحان إذا أردت أن تكون سعيداً عندي فاجعل قولك وفق رأيي لا وفق سلطان علمك». فسار أبو الريحان على هذا. وهو أحد شروط خدمة الملك، تنبغي موافقته في الحق والباطل وجعل التقارير وفق هواه.

ولمّا عاد أبو الريحان إلى بيته وجاء أهل الفضل لتهنئته حدّثهم حديث العرّاف فتعجبوا وأرسلوا رسولاً يدعوه فإذا هو شديد الجهل، لا يعرف شيئاً قط. فسأله أبو الريحان: «أعندك طالع المولد» فقال عندي. ثمّ أحضر هذا الطالع فنظر أبو الريحان فوجد منهم الغيب على حاق درجته، فكان كلّ ما يقوله، ولو خبط عشواء، مقارباً للصواب.

الحكاية الرابعة

كان لديّ خادم وُلدت في الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة(*) والشمس والقمر في برج واحد وليس بينهما بعد قط، ولهذا وقع سهما الغيب والسعادة فوق درجة طالعها. وقد لقنتها علم النجوم حينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، فبلغ إتقانها له أنّها كانت تجيب عن المشكل من مسائله، كما كانت أحكامها تقع قريبة من الصواب جدّاً. وكانت المخدرات يذهبن إليها ويسألنها فكان أكثر ما تقول يوافق القضاء.

وجاءتها يوماً عجوز فقالت: إنّ أحد أبنائي سافر منذ أربع سنوات. وليس لديّ أي خبر عنه، لا عن حياته ولا عن مماته، فانظري أحي هو أم ميت. وحدّثيني أين هو، وكيف حاله. فقامت المنجمة وأخذت الارتفاع وصوّبت درجة الطالع ورسمت الزايجة وثبّتت الكواكب وكان أوّل ما قالت: عاد ولدك. فغضبت العجوز وقالت: يا بنيتي إنّي لا أطمع في عودته، حسبك أن تحدّثيني أحيّ هو أم ميت. فقالت: أقول إنّ ولدك قد عاد فاذهبي فإن لم تجديه قد رجع

(*) أول يوليو ١١١٧.

فعودي لأحدّثك كيف هو. فقفلت العجوز راجعة إلى البيت فوجدت ابنها قد عاد ومتاعه ينزل من ظهر الحمار، فاحتضنته. ثمّ أخذت مقنعتين إلى المنجمة وقالت: صدقت فقد عاد ولدي. وأهدتها المقنعتين داعية لها.

ولمّا رجعتُ إلى الدار ذلك المساء وسمعت هذا الخبر سألتها: بأي دليل نبأت ومن أي برج حكمت. قالت: «لم أبلغ هذا، ولكنّي حينما أتممت صورة الطالع دخلت ذبابة فوقعت على حافته فأدركت في قرارة نفسي أنّ هذا الولد قد عاد. ولمّا قلت هذا وانصرفت أمّه تتبيّن الخبر كانت عودته قد تحقّقت لدي حتّى لكأني أراه ينزل المتاع عن ظهر الحمار»، فتحقّق لديّ أنّ هذا كلّه عمل سهم الغيب على درجة الطالع وليس صدق حدسها إلّا منه.

الحكاية الخامسة

كان محمود الداودي بن أبي القاسم الداودي معتوهاً جدّاً، بل كان مجنوناً، ولم يكن له من علم النجوم حظ كبير، ولكنّه كان ملماً بأعمالها، وكان في تقويمه أشكال يستدل منها بنعم أو بلا. وكان الداودي في حاشية الأمير داد أبي بكر بن مسعود بمدينة پنج ديه، وكانت أحكامه قريبة من الصواب. وقد بلغ من الجنون أنّ مولاي ملك الجبال[١٣] أهدى الأمير داد كلبين من الكلاب الغورية، كانا في غاية الضخامة والشراسة فصارعهما الداودي مختاراً وخرج من صراعهما سالماً. وكنت بعد هذا الحادث بسنوات جالساً مع جماعة من أهل الفضل عند دكان المقري الحداد الطبيب في سوق العطارين بمدينة هراة، ودارت ألوان من الحديث شتى، فجرى على لسان أحد الفضلاء: ما أعظم ابن سينا. فرأيت الداودي وقد تميز غيظاً وبرزت

أوداجه وانتفخت وبدت على وجهه أمارات الغضب وقال: يا فلان ماذا كان ابن سينا؟ أنا أكبر منه ألف مرّة، إنّه لم يحارب قطاً ولقد حاربت أمام الأمير داد كلبين غوريين.

فعرفت في ذلك اليوم أنّه مجنون، ومع جنونه هذا رأيت، سنة ثمان وخمسمائة(*) حين نزل السلطان سنجر في صحراء خوزان(١٤) واتجه إلى ما وراء النهر لمحاربة محمد خان(١٥)، أنّ الأمير داد أعدّ مأدبة رائعة للسلطان، وفي اليوم الثالث توجّه إلى النهر وركب في سفينة وأخذ يلهو بصيد السمك وقد دعا الداودي لمصاحبته ليحدّثه هذا النوع من أحاديث الجنون فيضحك منه، وكان الداودي يتطاول على الأمير جهاراً. وقال له الأمير مرّة قل لي كم مَنّاً تزن السمكة التي أصيدها هذه المرّة؛ فقال الداودي: إرفعْ الشص، فرفعه الأمير. فأخذ الارتفاع وسكت لحظة ثمّ قال ألقه الآن. فألقاه الأمير فقال الداودي: أرى أنّك تصيد الآن سمكة وزنها خمسة أمنان. فقال الأمير: كيف يكون السمك الذي يزن خمسة أمنان في هذا النهر يا لعين. فقال الداودي: صه ماذا تدري! فسكت الأمير داد خشية أن يشتمه إن هو تمادى في الكلام، ثمّ إنّ الشص ثقل بعد لحظة دلالة على أنّ صيداً وقع به، فجرّه الأمير فإذا سمكة كبيرة قد علقت به. فلما انتُزعت وُجدت تزن خمسة أمنان(**). فتعجّب الحاضرون وتعجّب الأمير. والحق أنّ الأمر كان عجيباً. وقال الأمير للداودي: ماذا تطلب. فحيّاه وقال: يا ملك الأرض أطلبُ جوشناً ودرعاً ورمحاً لأقاتل الأباوردي.

(*) ١١١٤ ـ ١١١٥.

(**) في النص الفارسي المنشور سبعة أمنان، وفي النسخة المرموز لها بحرف (ل) خمسة أمنان وهو المتفق مع سياق الحكاية.

وكان الأباوردي هذا ضابطاً ملازماً في حاشية الأمير داد، وكان الداودي يبغضه لأنّه لُقّب شجاع الملك بينما لقب الداودي بشجاع الحكماء فكان حانقاً لتلقيب الأباوردي بشجاع. وكان الأمير داد يعرف هذا فدأب يوقع بينهما. وكان الأباوردي، هذا الرجل المسلم، يلقى عناء من الداودي.

وفي الجملة لم يكن هناك شك في جنون الداودي. وقد أوردت هذا الفصل ليعلم الملك أنّ الجنون من شروط هذا الباب.

الحكاية السادسة

كان الحكيم الموصلي من طبقة المنجمين في نيسابور، وكان في حاشية الوزير الكبير نظام الملك الطوسي، وكان هذا يستشيره في مهمات الأمور ويسأله الرأي والتدبير. فلمّا بلغ الموصلي من الكبر عتياً وفترت منه القوى ودبّ الضعف في جسده وأصبح لا يحتمل مشقة السفر الطويل طلب من الوزير أن يعفيه من عمله، ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه كلّ عام تقويماً وتحويلاً. وكان نظام الملك قد تقدّمت به السن ولم يبق من عمره إلّا القليل فقال له: سق التسيير ثمّ انظر متى تفيض روحي ويحل القضاء الواقع والحكم الذي لا مفر منه.

فقال الحكيم الموصلي: بعد وفاتي بستة أشهر. فزاد الوزير في برّه وترفيهه، وسار الموصلي إلى نيسابور وأقام منعماً يرسل التقويم والتحويل كلّ عام.

وكان نظام الملك يسأل كلّ من يأتي من نيسابور، أوّل ما يسأل، كيف حال الموصلي، فإذا وجده سليماً معافى اعتدل طبعه وطاب

قلبه. إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة(*) فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلي، فتقدّم الرجل بالتحية ثمّ قال: ليبقى صدر الأِسلام وارثاً للأعمال لقد مات الموصلي. فقال الوزير: متى؟قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأوّل. فتفطر قلب الوزير الكبير وأفاق فأعاد النظر في أعماله، وفي سجل الأوقاف، ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضي عنه من عبيده، ووفى دينه، وأسعد كلّ من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه. وبقي ينتظر الموت، حتّى كان رمضان فاستشهد على يد تلك الجماعة(**) في بغداد. أنار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه(١٦).

حينما يتقن رصد طالع المولود ورب البيت والهيلاج ويكون المنجم حاذقاً فاضلاً فإنّ حكمه يصيب والله أعلم.

الحكاية الرابعة

في سنة ست وخمسمائة(+)، في مدينة بلخ في شارع النخاسين (برده فروشان) نزل في سراي الأمير أبي سعيد جرة الإمامان عمر الخيام(١٧) ومظفر الأسفزاري(١٨) وقد كنت متصلاً بهذا الأمير فسمعت، أثناء مجلس السمر، حجة الحق عمر يقول: سيكون قبري في موضع ترجه ريح الشمال بشذى الورد، كلّ ربيع. فبدا لي أنّ هذا القول مستحيل، وكنت أعرف أنّ مثله لا يقول جزافاً.

(*) ١٠٩٢ ـ ٣.

(**) الصباحية، أتباع حسن الصباح.

(+) ١١١٢ ـ ١٣.

فلمّا بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة[*]، وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى[١٩] وصارت الدنيا يتيمة من بعده، وكان له عليّ حق الأستاذية، ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة، وقد استصحبت رجلاً يدلّني على قبره، فأخرجني إلى مقبرة الحيرة[٢٠]، وسرت يساراً فرأيت قبره أسفل جدار بستان قد أطلت منه أشجار الكمثري والمشمش وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتّى غطّاه فجالت بخاطري تلك الحكاية التي كنت سمعتها منه في بلخ فغلبني البكاء، إذ لم أر له نظيراً في الدنيا وأقطار الربع المسكون. أسكنه الله الجنات بمنّه وكرمه.

الحكاية الثامنة

ومع أنّي رأيت هذا الحكم من حجة الحق عمر لم أر له في أحكام النجوم اعتقاداً قط، ولا رأيت أو سمعت من العظماء أنّه كان يعتقد بها.

في شتاء سنة ثمان وخمسمائة[**]، في مدينة مرو، أرسل السلطان رسولاً إلى الوزير الكبير صدر الدين محمد بن المظفر[٢١] (رحمه الله) قائلاً: قل للإمام عمر يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتّى نخرج للصيد. وكان الإمام عمر في صحبة الوزير نازلاً في قصره، فأرسل إليه رسولاً ودعاه وقصّ عليه الأمر، فذهب الخيام، وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً، ثمّ ذهب بنفسه فأركب السلطان حسب اختياره.

(*) ١١٣٥ ـ ٣٦.

(**) ١١١٤ ـ ١٥.

فلمّا ركب السلطان وسار في طريقه قليلاً تجمّعت السحب وهبّت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب، وضحك الرُّكبْ، وهَمّ السلطان بأن يعود. فقال الإمام: ليطمئن قلب السلطان فإنّ المطر سينقطع لساعته، ولن تنزل في هذه الأيام الخمسة قطرة منه. فسار السلطان وانقشعت السحب، ولم ينزل طلّ في هذه الأيام الخمسة، ولا رأى أحد سحاباً.

فأحكام النجوم، مع أنّها صناعة معروفة، لا يجوز الاعتماد عليها. كما أنّه لا ينبغي للمنجم أن يمعن فيها، وعليه أن يحيل كلّ حكم يرى على القضاء.

الحكاية التاسعة

وعلى الملك أن يختار، حيثما توجّه نديمه وخادمه. فإن كان مؤمناً قائماً بالفرائض والسنّة مخلصاً له قرّبه وعزّزه واعتمد عليه، وإن كان على خلاف ذلك هجره وحفظ مجلسه من ظلّه فإنّ من لا يعتقد في دين الله (عزّ وجلّ) وفي شريعة محمد ﷺ لا يكون له اعتقاد في إنسان، ثمّ إنّه يكون شؤماً على نفسه، وعلى مخدومه.

في أوائل عهد السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين نوّر الله تربته عصى ملك العرب صدقة[٢٢] وخلع ربقة الطاعة من عنقه وتوجّه من الحلّة إلى بغداد ومعه خمسون ألف عربي، فأرسل أمير المؤمنين المستظهر بالله، إلى أصفهان، كتاباً إثر كتاب، ورسولاً بعد رسول مستنجداً السلطان. وكان السلطان يسأل المنجمين الاختيار، فلا يهتدون إليه. فقد كان صاحب طالع السلطان راجعاً. فقالوا إنّا لا نجد اختياراً يا مولانا، فقال: ابحثوا. وشدّد عليهم وبرم بهم فولّوا هاربين.

وكان هناك غزنوي يمتهن قراءة الفال، وكان له دكان بطريق گنبد (القبة)، وكانت النسوة تجتمعن حوله فيكتب لهن تعاويذ الحب. ولم يكن الرجل واسع العلم. وقد مثل أمام السلطان، إذ كان يعرف أحد خدمه. فقال له: إنّي أعدّ الاختيار فاذهب وفقاً له فإن لم تظفر فاقطع رقبتي. فسر قلب السلطان وركب بناء على حكمه فوراً وأعطاه مائتي دينار نيسابوري. ثم سار فحارب صدقة وهزم جنده وأسره ثمّ قتله.

فلمّا عاد السلطان منصوراً مظفراً إلى أصبهان أكرم قارىء الفأل وأولاه شرفاً عظيماً وقرّبه منه.

ثمّ دعا المنجمين وقال لهم: إنّكم لم تختاروا، وأعدّ هذا الغزنوي الأختيار، فذهبنا وقد أيّدنا الله (عزّ وجلّ)، فلم فعلتم هذا، لعل صدقة قد أرسل لكم رشوة لئلا تعدّوا اختياراً. فخر المنجمون على التراب متضرعين وقالوا: إنّ هذا الاختيار لم يكن ليرضي منجماً قط. وإذا يشاء السلطان فليكتب رسالة وليبعث بها إلى خراسان ليرى ماذا يقول الإمام عمر الخيام. فأدرك السلطان أنّ هؤلاء المساكين يقولون حقّاً، فدعا أحد ندمائه الأفاضل وقال له عليك أن تشرب الخمر غداً في بيتك، وأن تدعو المنجم الغزنوي، وتسقيه وأن تقول له، وهو في شدّة السكر، إنّ هذا الاختيار الذي أعددت لم يكن حسناً فإنّ المنجمين يعيبونه، فحدّثني عن سرّه. ففعل النديم ما أُمر به، وسأل الغزنوي وهو سكران فقال: إنّي علمت أنّ الأمر لا يعدو واحداً من اثنين إمّا أن يهزم هذا الجيش أو ذاك فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلّت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي.

وفي اليوم التالي حدث النديم السلطان (بما سمعَ) فأمر بطرد الكاهن الغزنوي. وقال إنّ رجلاً كهذا يرى في المسلمين هذا الرأي

لرجل مشئوم. ثمّ نادى منجميه ووثق بهم. وقال إنّي أبغضت هذا الكاهن فإنّه لم يُصلّ قط، ومن لا يقوم بالشرع لا يعمل معنا.

الحكاية العاشرة

في شهور سنة سبع وأربعون وخمسمائة[٢٣](*). وقعت الحرب بين سلطان العالم سنجر بن ملكشاه ومولاي السلطان علاء الدنيا والدين[٢٤]، عند باب أوبة[٢٥]، وقد هزم جيش الغور وأسر مولاي سلطان المشرق خلد الله ملكه، كما وقع ابن مولاي ملك العالم العادل شمس الدولة والدين محمد بن مسعود[٢٦] أسيراً في يد الأمير القائد (أمير سپاهسالار) يَرَنْقُش هريوه[٢٧]، فاتفق على دفع خمسين ألف دينار (فدية) وعلى أن يذهب رسوله إلى القصر في باميان ليستعجل هذا المال، فإذا بلغ هراة أفرج عن الأمير، لأنّه كان مطلق السراح من قِبل سلطان العالم (سنجر)، وقد أمر له بخلعة عند مغادرته هراة.

وقد قدّمت في هذه الحال لأكون في خدمته، وقد بلغ منه الحزن يوماً فسألني متى الخلاص ومتى تصل هذه الرسالة. فأخذت الارتفاع بهذا الاختيار، وأصعدت الطالع في ذلك اليوم، باذلاً كلّ جهد؛ وقد بدأ مفتاح الفرج لهذه الشدّة في اليوم الثالث فجئت إليه في اليوم التالي. وقلت: غداً عند صلاة الظهر يأتي الرسول. فأخذ هذا الأمير يفكّر طول يومه حتّى إذا ذهبت لخدمته في اليوم التالي قال لي: اليوم موعدنا. فقلت: نعم. وبقيت في حضرته حتّى صلاة الظهر، فلمّا علا الأذان قال لي متضجراً: أرأيت أنّ صلاة الظهر قد حلّت، ولمّا يأت

(*) ١١٥٢ ـ ٥٣.

الخبر؟ وبينما الأمير في هذا إذا بقاصد يدخل مبشراً بأنّ الحِمل قد أحضر (الفداء) وهو خمسون ألف دينار وأغنام وأشياء أخرى، وكان صاحب الحمل عز الدين محمود حاجي كدخداي الأمير حسام الدولة والدين[٢٨]. وفي اليوم التالي لبس الأمير شمس الدولة والدين خلعة سلطان العالم (سنجر) وأصبح طليقاً فحثّ السير إلى مقر عزّه أسرع ما يكون وكانت الأحوال كلّ يوم في سمو، أدام الله سموّها.

كان في هذه الليالي يعطف عليّ ويقول: يا نظامي اتذكر أنّك أعددت هذا الحكم في هراة، وقد صدق، وكنت أريد أن أملأ فمك ذهباً ولكنّه لم يكن عندي هناك. أمّا هنا فهو عندي. ثمّ طلب الذهب فملأ فمي به مرّتين ثمّ قال إنّ فمك لا يسع كثيراً فافتح كمك ففتحته فملأه ذهباً.

أدام الله بركته على هذه الدولة، وحفظ هذين الأميرين للملك المعظّم الجليل[٢٩] بمنّه وكرمه.

المقالة الرابعة

في علم الطب وهداية الطبيب

الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان حاصلة وتستردها زايلة، وبها يزدان الجسم، بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط.

وأمّا الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق، حكيم النفس، جيّد الحَدْس. والحدس حركة نفسية توحي بالآراء الصائبة، أعني سرعة الانتقال من المجهول إلى المعلوم. ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية. ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق، كما أنّه لا يكون جيّد الحدس ما لم يكن مؤيداً بالتأييد الإلهي، والطبيب الذي لا يكون جيّد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة. ذلك إنّه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون. وبين الأطباء خلاف فجماعة منهم تقول إنّ حركة الانقباض لا تدرك بالحس، ولكن أفضل المتأخرين حجة الحق الحسين بن عبد الله بن سينا يقول في كتاب «القانون» إنّه يمكن بصعوبة إدراك حركة الانقباض بالحس في المهازيل. ثمّ إنّ النبض عشرة أجناس، وكلّ جنس منه ثلاثة هي طرفاه واعتداله. وما لم يصاحب الطبيبَ التأييد الإلهي لا يستطيع أن يصيب الفكرة.

وكذلك التفسرة(*)، فمراعاة الألوان والرسوب والاستدلال من كلّ لون على حالة، ليس من الأمور الهينة. وهذه الدلائل كلّها مفتقرة إلى التأييد الإلهي والهداية الملكية، وهذا هو المعنى الذي أردناه بعبارة الحدس.

وما لم يعرف الطبيب المنطق والجنس والنوع فإنّه لا يستطيع أن يفرّق بين الفصل والخاصّة والعرض، كما أنّه لا يستطيع إدراك العلة، وإذا جهل العلة لا يستطيع أن يصيب في العلاج. ونضرب مثلاً يوضح ما نقول، المرض جنس والحمى والصداع والزكام والهذيان والحصبة واليرقان أنواع، وكلّ منها يغاير الآخر بفصل، ثمّ هو بنفسه جنس؛ فمثلاً الحمى جنس، وحمى اليوم وحمى الغِبّ وحمى شطر الغب وحمى الرِبع أنواع؛ وكلّ نوع منها يختلف عن الأنواع الأخرى بفصل ذاتي، فحمى اليوم تختلف عن الحميات الأخرى بأنّ أطول مدّة لها أربع وعشرون ساعة ولا يحدث فيها تكسر وثقل وتعب وألم؛ والحمى المطبِقة تغاير الحميات الأخرى بأنّها إذا تمكّنت لا تزول قبل بضعة أيام؛ وتختلف حمى الغب عن سائر الحميات بأنّها تظهر يوماً وتختفي يوماً؛ وتغاير حمى شطر الغب سائر الحميات بأن تكون يوماً أشد وطأة ونوباتها أقصر، ثمّ تكون يوماً آخر أكثر هدوءاً ونوباتها أطول؛ وتختلف حمى الربع عن غيرها بأنّها تأتي يوماً وتنقطع يومين ثمّ تعود في اليوم الرابع. وكلّ من هذه الأنواع يكون جنساً وله أنواع. فإن كان الطبيب يعرف المنطق، وكان حاذقاً، وعرف نوع الحمى ومادتها، مركبة أو مفردة، سارع إلى العلاج. فإن حار في معرفة العلة

(*) التفسرة البول الذي يستدل به على المرض وينظر فيه الأطباء ويستدلون بلونه على علة العليل.

فإنّه يتّجه إلى الله (عزّ وجلّ) ويستعينه وكذلك يتجه إليه إذا عجز عن العلاج ويسأله المدد فإليه مرجع كلّ شيء.

الحكاية الأولى

في سنة اثنتي عشرة وخسمائة(*) في سوق العطارين بنيسابور كنت في دكان محمد المنجم الطبيب فسمعت الإمام أبا بكر الدقاق يقول:

أصيب أحد مشاهير نيسابور سنة اثنتين وخمسمائة(**) بالقولنج فدعاني ففحصته وأخذت في علاجه واستخدمت كلّ ما جاء في هذا الباب، ولكن المريض لم يشف البتة، ومضى على ذلك ثلاثة أيام. وقد رجعت من عنده يائساً وقت صلاة المغرب، ظانّاً أنّه سيقضي في منتصف الليل، ونمت في هذا الوسواس، فاستيقظت في الصباح وما كنت أشك أنّه قد مات فصعدت إلى السطح ونظرت تلك الناحية (ناحية بيت المريض). وتسمّعت فلم أسمع صراخاً ينبىء بوفاته، فقرأت الفاتحة ثمّ وليت وجهي تلك الناحية وتمتمت قائلاً: إلهي وسيدي ومولاي إنّك قلت في الكلام المبرم والكتاب المحكم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(+)، وتحسّرت إذ كان شاباً منعماً متنعماً وقد تيسّر له بلوغ كلّ ما يشتهي. ثمّ إنّي توضأت وذهبت إلى المصلّى فصليت السنة، فإذا رجل يقرع باب البيت فنظرت فإذا هو تابع له فبشّرني وقال افتح، فقلت ماذا جرى قال إنّه شفي في هذه الساعة.

(*) ١١١٨ ـ ١٩.

(*) ١١٠٨ ـ ٩.

(+) ١٧ : ٨٤.

فعرفت أنّ هذا من بركات الفاتحة وأنّ هذه «الشربة» من «الصيدلية الربانية». وقد صارت هذه سابقة لي وصفتها في حالات كثيرة. فكانت ناجعة فيها جميعاً ومؤدية إلى الشفاء.

فعلى الطبيب إذاً أن يكون حسن الاعتقاد وأن يعظّم أوامر الشرع ونواهيه.

وعلى الطبيب أن يحصّل في علم الطب «فصول بقراط» و«مسائل حنين بن إسحق»[١] و«مرشد محمد بن زكريا الرازي»[٢] و«شرح النيلي»[٣] الذي أجملَ هذه المؤلفات، وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على أستاذ مخلص. ثمّ إنّ عليه أن يستقصي استقصاءً تاماً الكتب المتوسطة وهي «ذخيرة ثابت بن قرة»[٤] أو «المنصوري»[٥] لمحمد بن زكريا الرازي أو «الهداية» لأبي بكر الأجويني أو «الكفاية» لأحمد بن فرج أو «الأغراض»[٦] لسيّد بن إسماعيل الجرجاني، وذلك على أستاذ مخلص. ثمّ عليه بعد ذلك أن يَحصُل على أحد الكتب المفصّلة مثل «الست عشرة رسالة» لجالينوس أو «الحاوي»[٧] لمحمد بن زكريا أو «كامل الصناعة»[٨] أو «صد باب»[٩] (مائة باب) لأبي سهل المسيحي أو «القانون» لأبي علي بن سينا أو «الذخيرة»[١٠] للخوارزمي. وأن يقرأ هذا الكتاب المفصّل في وقت الفراغ. فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلّها فقد يكتفي بالقانون فإنّ سيّد الكونين وإمام الثقلين يقول «كلّ الصيد في جوف الفرا» فكلّ ما ذكرت موجود في «القانون» مع زيادات كثيرة. وكلّ من يحيط علماً بما في المجلد الأوّل من «القانون» لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته. ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب.

وقد سمعت أمراً عجباً، ذلك أنّ رجلاً انتقد كتاب أبي علي بن سينا وجعل من انتقاده كتاباً سمّاه «إصلاح القانون» وقد رأيت الرجل والكتاب، أمّا الرجل فمعتوه وأمّا الكتاب فمكروه وكيف يجوز لرجل أن يعيب عالماً عظيماً يقرأ له كتاباً فتكون أولى مسائله مشكلة عليه. ولقد انقضت أربعة آلاف سنة أذاب فيها الأوائل أرواحهم وأجهدوا أنفسهم ليضعوا قواعد علم الحكمة فلم يستطيعوا حتّى إذا انقضت هذه المدّة استطاع الحكيم المطلق والفيلسوف الأعظم أرسطاطاليس أن يزنه بقسطاس المنطق، وأن ينقده بمحك الحدود، وأن يكيله بمكيال القياس، حتّى ارتفع عنه الشك وزال عنه الرَيْب وصار منقحاً محققاً. ولم يصل إلى كنه قوله ويسر على جادة سياقه، في الألف والخمسمائة سنة التي تلته، فيلسوف غير أفضل المتأخرين، حكيم المشرق، حجة الحق على الخلق أبي علي الحسن بن عبد الله بن سينا. فكلّ من يعترض على هذين العاملين العظيمين يخرج نفسه من زمرة أهل العقل ويسلكها في سلك المجانين ويعرضها في مجمع أهل العته. حفظنا الله تبارك وتعالى من هذه الهفوات. فالطبيب إذا علم ما في المجلد الأوّل من «القانون» وهو في الأربعين من عمره، يصير أهلاً للاعتماد عليه. ويجب عليه حين يبلغ هذه الدرجة أن يحرص على كتاب من هذه الكتب الصغيرة التي صنّفها الأساتذة المجربون مثل «تحفة الملوك»(١١) لمحمد بن زكريا و«الكفاية»(١٢) لابن مندويه الأصفهاني أو «تدارك أنواع الخطأ في التدبير الطبي»(١٣) لأبي علي أو «خفي علائي»(١٤) أو «التذكرة»(١٥) لسيد بن إسماعيل الجرجاني.

ذلك أنّه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل.

وإذاً ينبغي لكلّ ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددنا في

الطبيب الذي يختار؛ فإنّه لس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كلّ جاهل، وأن يجعل تدبير حياته في حجر كلّ غافل.

الحكاية الثانية

كان بختيشوع[١٦] من نصارى بغداد وكان طبيباً حاذقاً مخلصاً صادقاً وكان في خدمة المأمون. وقد حدث أن أصيب بالإسهال أحد بني هاشم من أقرباء المأمون وكان يحبّه حبّاً جمّاً، فأرسل إليه بختيشوع ليعالجه، فنهض للأمر، وبذل ما يملك من جهد[١٧]، مراعاة للمأمون. وقد حاول كلّ أنواع العلاج ولكن سدى، وجرَّب كلّ نوادر الدواء الذي يذكره ولكن بلا جدوى، وصار الأمر فوق طاقته، فخجل من المأمون وأدرك الخليفة أنّ الطبيب قد خجل فقال له: يا بختيشوع لا تخجل فإنّك قد عملت في جهدك واستنفدت ما في طاقتك ولكن الله لم يشأ فسلّم الأمر للقضاء فإنّا سلمنا به. فلمّا رأى بختيشوع أنّ المأمون قد يئس قال بقي علاج واحد وساجربه تيمّناً بإقبال أمير المؤمنين، وإن كان فيه مخاطرة فلعل الله يجعل فيه الشفاء. وكان المريض يتبرز في اليوم خمسين أو ستين مرّة، فأعدّ بختيشوع مسهلاً وأعطاه إيّاه فزاد الإسهال يوم تعاطاه ولكنّه انقطع في اليوم التالي. فسأله الأطباء ما هذه المخاطرة التي اعددتها؟ فقال إنّ مادة هذا الإسهال تستخرج من الدماغ وهي لا تنقطع ما لم تذهب عنه وكنت أخشى إذا أعطيته المسهل ألا تحتمله قواه فلمّا يئست من علاجه قلت إنّ في المسهل أملاً آخر الأمر، ولا أمل مطلقاً إذا لم أعطه إيّاه. فأعطيته وتوكّلت على الله فإنّه القادر. وقد منّ الله تعالى بالتوفيق فشفي المريض وصحَّ القياس. وقد كان موته متوقعاً إن لم يُعط الدواء وكان الموت والحياة متوقعين إن تناوله فرأيت أنّ إعطاءه أولى.

الحكاية الثالثة(*)

يقول الشيخ الرئيس حجة الحق أبو علي بن سينا في كتاب «المبدأ والمعاد» في آخر فصل «إمكان وجود أمور نادرة عن هذه النفس»:

«وسمعت أنّ طبيباً حضر مجلس ملك من السامانيين وبلغ من قبوله له أن أهّله لمؤاكلته على المائدة التي توضع له في دار الحرم ولا يدخلها من الذكور داخل وإنّما يتولّى الخدمة بعض الجواري. وكانت فيها جارية تقدّم الخوان وتضعه إذ قوّسها ريح ومنعها الانتصاب. وكانت حظية عند الملك فقال للطبيب عالجها في الحال على كلّ حال. فلم يكن عند الطبيب تدبير طبيعي في ذلك الباب يشفي بلا مهلة، ففزع إلى التدبير النفساني وأمر أن يكشف شعرها فما أغنى، ثمّ أمر أن يكشف بطنها فما أثر، ثمّ أمر أن تكشف عورتها فلمّا حاول سائر الجواري ذلك نهضت فيها حرارة قويّة أتت على الريح الحادثة تحليلاً فارتجعت مستقيمة سليمة».

فإن لم يكن الطبيب حكيماً قادراً لا يصل إلى هذا الاستنباط ويعجز عن هذا العلاج وإذا عجز سقط من نظر الملك. وإذاً فمعرفة الأشياء وتصوّر الموجودات الطبيعية جزء من هذا الكتاب، وهو أعلم.

(*) نقلنا هنا النص العربي عن كتاب ابن سينا المذكور، وقد نقله القزويني في حواشيه ص٢٤٠، المتحف البريطاني: . Add. 16, 649, XXXIII, f. 488 وذكر الحكاية كلّ من القفطي (ص١٣٤) وابن أبي أصيبعة (ج١، ص١٢٧) على أنّها حدثت بين بختيشوع وهارون الرشيد.

الحكاية الرابعة[18]

مرض الأمير منصور بن نوح بن نصر أحد ملوك السامانيين أيضاً مرضاً أزمن حتّى أقعده. وقد عجز الأطباء عن مداواته فأرسل رسولاً يدعو محمد بن زكريا الرازي ليعالجه فجاء الرازي حتّى نهر جيحون ولكنّه حينما بلغ شاطئه ورأى ماءه قال: أنا لا أركب السفينة. فقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(*). فليس من الحكمة أن يركب الإنسان المخاطر مختاراً. ثمّ إنّه صنّف كتابه المنصوري في المدّة بين رجوع رسول الأمير إلى بخارى وعودته منها، ثمّ سلّمه إليه وقال: أنا هذا الكتاب وسترى فيه مقصودك ولا حاجة لك إليّ. فلمّا بلغ الكتاب الأمير غضب ثمّ أرسل للرازي ألف دينار وحصاناً بعدته وقال لرسله: ترفقوا به فإن لم يُجد الرفق معه فأوثقوا يديه ورجليه وضعوه في السفينة واعبروا. وقد عمل الرسل برأي الأمير. ولكن الرفق لم يُجد مع الرازي فأوثقوه وأركبوه السفينة وعبروا ثمّ فكّوا وثاقه وقدّموا له الجنيبة بعدّتها فركبها وهو قرير النفس واتجه نحو بخارى. فقال له الرسل: إنّا خفنا أن تخاصمنا بعد أن نعبر النهر ونفك وثاقك ولكنّك لم تفعل ولم نر منك ضجراً أو ضيق صدر. فقال إنّي أعرف أنّ عشرين ألف رجل يعبرون جيحون كلّ سنة ولا يغرقون وأنا أيضاً ربما لا أغرق ولكن يجوز أن أغرق، فإذا غرقت فسيقال إلى يوم القيام: كان محمد بن زكريا أبله إذ ركب السفينة مختاراً فغرق فأكون من الملومين لا من المعذورين.

فلمّا بلغ الرازي بخارى أقبل عليه الأمير فرأى كلّ منهما الآخر.

(*) ٢: ١٩٥.

ثمّ بدأ الرازي العلاج وبذل فيه جهده ولكن بلا جدوى. فدخل يوماً عند الأمير وقال: غداً سأجرّب علاجاً آخر، على أن يُخرج لي الحصان الفلاني والبغل الفلاني. وهاتان الدابتان معروفتان بالسرعة تقطع الواحدة منهما أربعين فرسخاً في الليلة. وفي اليوم التالي حمل الرازي الأمير إلى حمام نهر جيحون (نهر موليان) خارج القصر. ووقف الحصان والبغل معدّين ومشدودين مع غلام له على باب الحمام، ولم يأذن لأحد من خدم الأمير أو حاشيته بدخول الحمام. ثمّ إنّه أجلس الأمير في وسط الحمام وصبّ عليه ماءً فاتراً ثمّ أعدّ شراباً فذاقه ثمّ سقاه إيّاه وأبقاه زماناً ليتيح للأخلاط أن تنضج في مفاصله. وهبَّ فلبس ثوبه ثمّ عاد ووقف أمام الأمير يشتمه، يقول: يا كذا وكذا قد أمرت بقيدي وإلقائي في السفينة والمخاطرة بحياتي فإن لم أجزك على هذا بإزهاق روحك فإنّي لا أكون ابن زكريا. فغضب الأمير غاية الغضب ونهض على ركبتيه وهو في مكانه فأخرج الرازي سكيناً وأوسعه إهانة. فنهض الأمير قائماً غضباً أو فَرقاً.

فلمّا رأى الرازي أنّ الأمير قد قام على رجليه تراجع وخرج من الحمام فركب هو وغلامه الحصان والبغل واتجها نحو جيحون فعبراه وقت العصر ولم يتوقفا عن السير حتّى بلغا مرو. ومنها كتب للأمير كتاباً قال فيه: أطال الله حياة الأمير صحيحَ الجسم نافذَ الأمر. لقد بدأت العلاج وبذلت كلّ ما في الوسع فرأيت حرارة غريزية مع ضعف تام، وأدركت أنّ العلاج الطبيعي قد يطول فعدلت عنه ولجأت إلى العلاج النفساني فحملت الأمير إلى الحمام وتركته حتّى تنضج الأخلاط نضجاً تاماً ثمّ أثرت غضبه حتّى يساعد الغضب في إذكاء الحرارة الغريزية فتقوى وتحلل هذه الأخلاط الزائدة، ولم يكن من الصواب أن أقابل الأمير بعد هذا.

وكان الأمير حينما نهض على رجليه ـ وقد خرج محمد بن زكريا وركب فوراً ـ غشي عليه فلمّا أفاق خرج وأخذ يصيح على الخدم. وسأل أين ذهب الطبيب، فقالوا إنّه خرج من الحمام فركب الحصان وركب خادمه البغل وانصرفا. فعرف الأمير المقصود من فعل الرازي ثمّ خرج ماشياً من الحمام. وذاع الخبر في المدينة، وجلس الأمير في مجلسه وأقام الخدم والحاشية الأفراح وتصدّقوا وذبحوا الذبائح وواصلوا الاحتفال وأخذوا يفتشون عن الطبيب في كلّ مكان فلم يجدوه. وفي اليوم السابع جاء خادم الرازي راكباً البغل ومعه الحصان وسلّم الأمير كتابه فاطلع عليه وتعجّبه وعذر الرازي وأمر له بالصلة حصاناً وعدته، وجبة وعمامة وسلاحاً وغلاماً وجارية، وأمر أن يأخذ وهو في الري ألفي دينار ذهباً كلّ سنة من أملاك المأمون(*)، ومائتي خروار (حمل حمار) من الغلة. وقد أرسل إليه كتاب هذه الصلة والخلع الأخرى مع رجل مشهور من مرو. وشفي الأمير تماماً وبلغ محمد بن زكريا مقصوده.

الحكاية الخامسة

كان لأبي العباس مأمون خوارزمشاه[١٩] وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلي[٢٠]، كان حليم الطبع كريم النفس فاضلاً، وكذلك كان خوارزمشاه حكيم الطبع صديقاً لأهل الفضل، وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة مثل أبي علي بن سينا وأبي سهل المسيحي وأبي الخير الخمار[٢١] وأبي الريحان البيروني وأبي نصر العراق[٢٢]، وكان هذا ابن أخي

(*) هذه العبارة غير واضحة «أملاك مأمون».

خوارزمشاه وكان يلي بطليموس في علم الرياضة وأنواعه. وكان أبو الخير الخمار ثالث بقراط وجالينوس في الطب. وكان أبو الريحان في مكانة أبي معشر وأحمد بن عبد الجليل في النجوم. وكان أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي خلفين لأرسطاطاليس في علم الحكمة الذي يشمل كلّ العلوم. وكانت هذه الطائفة من العلماء في القصر غنية عن أمور الدنيا، وكان لبعضهم أنس لبعض بالمحاورة وطيب عيش بالمكاتبة. ولكن الزمن لم يرض بهذا والفلك لم يُجزه فنغص عيشهم وانقلبت هذه الأيام وبالاً عليهم. فقد أتى أحد العظماء من قبل السلطان يمين الدولة محمود ومعه كتاب فيه إن سمعت أنّ في مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير مثل فلان وفلان فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم ولكي نفيد من علومهم وكفاياتهم ولتكون هذه منّة لخوارزمشاه علينا. وكان الرسول الرئيس حسين بن علي بن ميكال، وكان من أفاضل العصر وأماثله وكان أعجوبة أهل زمانه. وكانت دولة محمود في أوجها وملكه مزدهراً ودولته عالية الشأن وملوك زمانه يهابونه وينامون الليل وهم في فزع منه. فأنزل خوارزمشاه الرئيس حسين بن ميكال مكاناً طيباً وأكرمه إكراماً عظيماً ولكنّه دعا الحكماء وعرض عليهم هذا الكتاب قبل أن يأذن له بحضور المجلس، ثمّ قال لهم إنّ محموداً الغزنوي ملك قوي وعنده جيش ضخم وقد أخضع خراسان وهندوستان وهو يطمع في العراق وأنا لا أستطيع الخروج على مثاله أو عصيان أمره فماذا تقولون في هذا الكتاب. فقال أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي نحن لا نذهب إليه. وأمّا أبو نصر وأبو الخير وأبو الريحان فقد رغبوا في الذهاب إليه وكانوا قد سمعوا بأخبار صلاته وهباته. فقال خوارزمشاه لابن سينا وأبي سهل إنّكما لا ترغبان في الذهاب إلى

محمود فخذا طريقكما قبل أن آذن لهذا الرجل بمقابلتي. ثمّ إنّه يسّرلهما الأسباب وعيّن لهما دليلاً فسارا نحو جرجان عن طريق الصحراء(*).

وفي اليوم التالي دعا خوارزمشاه حسين بن علي بن ميكال إلى المجلس فأكرم وفادته وقال: «إنّي قرأت الكتاب ووقفت على مضمون رسالة السلطان وأمره ولكن أبا علي بن سينا وأبا سهل المسيحي قد رحلا. وأمّا أبو نصر وأبو الريحان وأبو الخير فيستعدون للتوجّه للخدمة».

وقد أخذ هؤلاء أهبتهم في وقت قصير فأرسلهم خوارزمشاه مع الرئيس حسين بن ميكال فجاءوا إلى حضرة السلطان محمود في بلخ والتحقوا بمجلسه.

وكان مقصود السلطان منهم أبا علي بن سينا. وكان أبو نصر العراق نقاشاً فأمره بتصوير ابن سينا على الورق. ثمّ دعا النقاشين وأمرهم برسم أربعين صورة منها فأرسلها مع الأوامر السلطانية إلى أطراف البلاد وأمراء الأقاليم وقال إنّ رجلاً بهذه الصورة اسمه أبو علي ابحثوا عنه وأرسلوه إليّ. ولمّا انصرف أبو علي وأبو سهل مع دليل أبي الحسين السهلي من عند خوارزمشاه حثّا السير فقطعا، إلى الصباح، خمسة عشر فرسخاً. ثمّ إنّهما نزلا صباحاً عند بئر فأخذ أبو علي التقويم ليرى بأي طالع يخرج فلمّا نظر التفت إلى أبي سهل وقال: إنّا سنضل طريقنا حسب هذا الطالع: فقال أبو سهل رضينا بقضاء الله وإنّي أعلم كذلك أنّي لن أنجو بنفسي في هذا السفر فإنّ

(*) النص الفارسي يقول: از راه گر گان أي الذئاب والمقصود به طريق الصحراء الموحش.

تسييري في هذين اليومين إلى العيوق وهو قاطع. فلم يبق لي أمل وسيكون ما بيننا بعد هذا تلاقي الأرواح. ثمّ سارا.

يحكي أبو علي أنّ ريحاً هبّت في اليوم الرابع فثار العجاج وأظلم الكون فضلّوا سبيلهم إذ طمست الرياح معالمه، فلمّا هدأت كان الدليل أكثر منهما جهلاً بالطريق. وقد مات أبو سهل في هذه الصحراء الحارّة بالعطش لفقد الماء وبلغ الدليل وأبو علي بعد آلاف الشدائد مدينة باورد. ثمّ رجع الدليل وسار أبو علي إلى طوس ثمّ بلغ نيسابور فرأى قوماً يطلبون أبا علي فنزل في زاوية شارد الفكر وبقي بها عدّة أيام. ومن هناك اتّجه إلى جرجان وكان قابوس(*) ملكاً عليها، وهو رجل عظيم صديق للفضلاء، حكيم الطبع. وقد عرف أبو علي أنّه لا يمسّه ضر هناك. فلمّا بلغ جرجان نزل في رباط وكان بجواره مريض فعالجه فشفي ثمّ عالج مريضاً آخر فشفي. وكان الناس في الصباح يحضرون له القنينات ليفحص ما فيها من البول وكان له من ذلك رزق يزيد يوماً بعد يوم.

وأمضى على هذا النحو زماناً إلى أن مرض أحد أقرباء قابوس بن وشمگير ملك جرجان فقام الأطباء بعلاجه وبذلوا الجهد وجدوا كلّ الجد فلم تشف علّته. وكان قابوس عظيم التفكّر في هذا فأخبره أحد خدمه أنّه قد جاء إلى رباط كذا طبيب عظيم شاب له يد مباركة جدّاً وقد شفي على يديه أناس كثيرون؛ فأمر قابوس بدعوته والمجيء به إلى المريض لمعالجته فرُبّ يد أكثر بركة من يد. فطلبوا أبا علي وذهبوا به إلى المريض فرآه شاباً غاية في الجمال[٢٤] متسق

(*) شمس المعالي قابوس بن وشمگير، حكم من ٣٦٦ حتّى ٣٧١ (٩٧٦ ـ ٩٨١) ثمّ من ٣٨٨ حتّى ٤٠٣ (٩٩٨ ـ ١٠١٢).

الأعضاء قد طرّ شاربه. ولكنّه مضنى. فجلس ابن سينا وجسّ نبض الفتى وطلب البول وفحصه ثمّ قال أريد رجلاً يعرف غرفات جرجان ومحلاتها كلّها، فأحضروا الرجل وقالوا هذا هو. فوضع أبو علي يده على نبض المريض وأمر الرجل بأن يذكر أسماء محلات جرجان. فأخذ الرجل يذكرها حتّى إذا بلغ اسم محلة معينة تحرّك نبض المريض حركة عجيبة. فقال أبو علي: أذكر أسماء شوارع هذه المحلة فذكرها الرجل ولمّا بلغ اسم شارع معين عادت حرك النبض العجيبة. فقال أبو علي نريد رجلاً يعرف جميع بيوت هذا الشارع. فأحضر الرجل وأخذ يذكر أسماء البيوت حتّى إذا بلغ اسم بيت منها تحرّك النبض الحركة نفسها. قال أبو علي والآن أريد رجلاً يعرف أسماء أهل البيوت ويستطيع أن يذكرها، فأحضروه فأخذ في سرد الأسماء حتّى إذا بلغ اسماً منها حدثت نفس الحركة من نبض المريض. حينئذ قال أبو علي: تمّ الأمر. ثمّ التفت إلى معتمدي قابوس وقال: إنّ هذا الشاب عاشق لفلانة بنت فلان في محلة كذا وشارع كذا وإنّ دواءه وصال تلك الشابة وعلاجه رؤيتها. وأرهف المريض السمع فسمع كلّ ما قاله الرئيس أبوعلي فخجل وغطّى وجهه بالوسادة. فلمّا حقّق الأمر وجد كما قال ابن سينا. فأطلعوا عليه قابوس فعجب عجباً عظيماً. وقال أحضروه عندي فحملوه إليه[٢٥] وكانت معه صورته التي أرسلها السلطان محمود. فلمّا مثل أمامه قال له اأنت أبو علي؟ قال نعم أيّها الملك المعظم! فنزل قابوس من العرش ومشى بضع خطوات ليستقبله ثمّ عانقه وجلس معه على وسادة أمام العرش وأحاطه بالإجلال. ثمّ قال في تلطّف: لا شك أن على الأجل الأفضل والفيلسوف الأكمل أن يشرح طريقة العلاج. فقال أبو علي: لمّا رأيت النبض والتفسرة أدركت أنّ العلة هي العشق وقد بلغ كتمان الشاب لهذا السر أنّي لو

سألته لمّا صدقني، فوضعت يدي على نبضه وذكرت أسماء المحلات فلمّا ذكر اسم محلة المعشوق تحرّك عشقه فتبدّلت حركته فعرفت أنّه في هذه المحلة فأشرت بذكر أسماء الشوارع فلمّا سمع اسم شارع معشوقه حدث الأمر نفسه فعرفت اسم الشارع فأمرت بذكر أسماء البيوت كلّها فلمّا بلغ اسم بيت المعشوق ظهرت الحالة نفسها فعرفت البيت أيضاً فأمرت بذكر أسماء أهل البيوت كلّها فلمّا سمع اسم المعشوقة تغيّر تمام التغيّر فعرفت اسمها أيضاً، فقلت له فلم يستطع أن ينكر ثمّ أقرّ.

فتعجّب قابوس من هذه المعالجة كثيراً ولبث حائراً والحق أنّها عجيبة ـ فقال: أيّها الطبيب الأجل الأفضل الأكمل إنّ العاشق والمعشوق كلاهما ولدا أختيّ وهما ولدا خالة فاعمل الاختيار لنعقد زواجهما. فأعدّ أبو علي الاختيار السعيد وتمّ هذا العقد وتزوّج العاشق بمعشوقه وبرىء هذا الشاب الأمير الجميل الصورة من مرض كاد يهلكه. وبعد ذلك أحسن قابوس إلى أبي علي كل الإحسان. ثمّ انتقل من هناك إلى الري حيث أسندت إليه وزارة الملك شاهنشاه علاء الدولة[٢٦] كما هو معروف في تاريخ الرئيس علي بن سينا.

الحكاية السادسة

كان صاحب «كامل الصناعة» طبيباً لعضد الدولة في فارس بمدينة شيراز، وكان في هذه المدينة حمّال يحمل على ظهره أحمالاً تزن أربعمائة أو خمسمائة منّ، وكان هذا الحمّال يصاب كلّ خمسة أو ستة أشهر بدوار فلا يقرّ له قرار عشرة أو خمسة عشر يوماً وليلة. وانتابه هذا الدوار مرّة ومضى عليه سبعة أيام أو ثمانية فهمّ بقتل نفسه مرّات، فاتفق أخيراً أن مرّ هذا الطبيب الكبير بدار الحمّال

فاسرع إليه أخوته وحيّوه واستحلفوه بالله (عزّ وجلّ) ثمّ قصّوا عليه أحوال أخيهم ودواره، فقال الطبيب أروني إيّاه فحملوه إليه، فلمّا رآه وجده رجلاً قوياً عظيم الهيكل وقد لبس في رجليه حذاء تزن الواحدة منه مَنّاً ونصف مَنّ، ثمّ جسّ نبضه وطلب التفسرة ثمّ قال: احملوه معي إلى الصحراء ففعلوا. فلمّا صاروا في الصحراء قال الطبيب لغلامه انزع العمامة من فوق رأس الحمّال ولفّها حول رقبته وأحكم عقدها، ثمّ أمر غلاماً آخر قائلاً انزع الحذاء من رجليه واضربه به على رأسه عشرين مرّة. ففعل الغلام وعلا صياح أبناء الحمّال. ولكن الطبيب كان من الوقار والهيبة بحيث لم يستطيعوا معه شيئاً. ثمّ قال للغلام: امسك الشال الذي عقدته حول رقبته واركب حصاني واسحبه وراءك واجر به، ففعل الغلام وجرى به كثيراً في الصحراء حتّى نزف الدم من أنفه، فقال الطبيب: الآن دعه. فتركه. كان هذا النزف أنتن من الجيفة، ثمّ قام الرجل في هذا الرعاف وقد نزف من أنفه ثلثمائة درهم ثمّ انقطع الدم. وحملوه بعد ذلك إلى البيت فلم يستيقظ بل ظلّ في سبات أربعاً وعشرين ساعة. وقد زال دواره هذا واستغنى عن العلاج ولم يعاده.

وقد سأله عضد الدولة عن كيفية هذه المعالجة فقال: أيّها الملك إنّ هذا الدم ليس مادة في الدماغ تعالج بيارج الصبر (ياره‌ء فيقرا)[٢٧]، وليس هناك طريقة للعلاج غير ما عملت.

الحكاية السابعة

الماليخوليا علّة حار الأطباء في علاجها. والأمراض السوداوية مزمنة كلّها ولكن للمليخوليا خاصية هي أنّها تزول ببطء. وقد عدد أبو الحسن بن يحيى في كتابه «المعالجة البقراطية»[٢٨] الذي لم يؤلف

أحد مثله في الطب، الأئمة والحكماء والفضلاء والفلاسفة الذين أصابتهم هذه العلة. وقد حكى لي أستاذي الشيخ الإمام أبو جعفر بن محمد أبو سعد المعروف بصرخ (؟) عن الشيخ الإمام محمد بن عقيل القزويني عن الأمير فخر الدولة أبي كاليجار البويهي أنّ أحد أعزّة بني بويه أصيب بالماليخوليا فخيّل إليه مع هذه العلة أنّه صار بقرة، فكان يصيح كلّ يوم ويقول لهذا وذاك إذبحوني فإنّ لكم من لحمي هريسة طيبة. ويلغ به الأمر أنّه امتنع كلّ الامتاع عن الأكل، ومرّت الأيام وهو يذوي وقد عجز الأطباء عن معالجته. وكان الأستاذ أبو علي بن سينا في ذلك الوقت وزيراً، وقد أقبل عليه الشاهنشاه علاء الدولة محمد بن دشمنزيار فوضع شؤون الملك كلّها بين يديه، تاركاً جميع الأمور لرأيه وتدبيره. والحق أنّه لم يكن لملك قط - بعد الإسكندر الذي وزر له أرسطاطاليس - وزير مثل أبي علي. وهو وزير، يستيقظ كلّ يوم مبكراً فيصنّف ورقتين من كتاب الشفا، فإذا طلع الصبح الصادق اجتمع بتلاميذه مثل كيا الرئيس بهمنيار[٢٩] وأبي منصور بن زيله[٣٠] وعبد الواحد الجوزجاني[٣١] وسليمان الدمشقي وأنا أبو كالينجار، وقد كنّا نستبق إلى القراءة عليه حتّى إسفار الصبح ثمّ نصلي وراءه. وكنّا، حين انصرافنا، نجد على باب قصره ألف فارس من الكبراء والعظماء وأرباب الحوائج وأصحاب العرائض، قد تجمّعوا عنده. وكان الأستاذ يركب وتسير هذه الجماعة في خدمته، فإذا بلغ الديوان كان حوله ألفا فارس، وكان يبقى في الديوان حتّى صلاة الظهر. وحين يعود لداره يتغدّى على مائدته الكثيرون، ثمّ يذهب للقيلولة، فإذا استيقظ صلّى، ثمّ يذهب إلى الشاهنشاه فيبقى معه حتّى صلاة العصر، يفاوضه ويحاوره في مهمات الملك، وهما اثنان لا

ثالث لهما. والمقصود من هذه الرواية هو أنّه لم يكن للأستاذ وقت فراغ.

فلمّا عجز الأطباء عن معالجة هذا الشاب ذكروا قصته أمام الشاهنشاه المعظم علاء الدولة والتمسوا شفاعته لدى الأستاذ ليعالجه، فأشار عليه علاء الدولة فقبل، ثمّ قال بشّروا هذا الشاب بأنّ «القصاب آت ليذبحك». فقالوا له ذلك ففرح، وركب الأستاذ وجاء في موكبه المعتاد إلى قصر المريض، ثمّ دخل مع رجلين والسكين في يده وقال: أين هذه البقرة لأذبحها، فقلّد الشاب المريض خوار البقرة، يعني أنّه هنا، فقال الأستاذ جرّوها إلى فناء القصر وأوثقوا يديها ورجليها وأضجعوها. فلمّا سمع المريض هذا جرى إلى وسط القصر واضطجع على جنبه الأيمن فأحكموا وثاق يديه ورجليه ثمّ جاء أبو علي وسن السكين على السكين ثمّ جلس ووضع يده على خصر المريض، كعادة القصابين، وقال: وه، يا لها من بقرة هزيلة، إنّه لا يحلّ ذبحها، اعلفوها حتّى تسمن». وقام فخرج، ثمّ قال للرجال فكّوا يديه ورجليه واحملوا إليه ما آمر به من طعام وقولوا له كلّ لتسمن سريعاً. وهكذا فعلوا ما أمر به الأستاذ، فكانوا يحملون إليه الطعام فيأكله ثمّ كانوا يعطونه ما أمر به الأستاذ من الأشربة والأدوية ويقولون له: كلّ كثيراً فإنّ هذا نافع تسمن عليه البقرة! فكان يسمع ويأكل على أمل أن سمن فيذبحوه. وبعد ذلك بدأ الأطباء في علاجه كما وصف أبو علي، فكان ينقه شهراً بعد آخر حتّى عوفي.

والعقلاء جميعاً يدركون أنّ مثل هذا العلاج لا يستطاع إلّا بالفضل الكامل والعلم التام والحدس الصادق.

الحكاية الثامنة

كان في هراة، في زمان ملشكاه وبعض زمان سنجر[٣٢]، فيلسوف اسمه الأديب إسمعيل. كان رجلاً عظيماً حقّاً، فاضلاً كاملاً. وكان يعيش من دخل طبّه. وله نوادر كثيرة في هذا الضرب من العلاج. مرّ يوماً بسوق المذبح فرأى قصاباً يسلخ الغنم وكان يمدّ يده في جوفها من وقت لآخر فيأخذ الدهن الحار ويأكله. فلما رأى الطبيب هذا الأمر قال لبقال مجاور لهذا القصاب: إذا مات هذا فخبرني بموته قبل أن يدفن. فقال البقال سأخبرك. ولمّا مضى على هذا الحديث خمسة أشهر أو ستة سمع البقال صاحب يوم أنّ فلاناً القصاب قد مات بالأمس فجأة بغير علة أو مرض. فذهب للعزاء فرأى جماعة ممزقة ثيابها وجماعة تحرقها الحسرات، فقد كان الميت شاباً وله أولاد صغار، فتذكّر البقال قول الأستاذ إسمعيل فأسرع وخبره فقال: لقد طال عليه النزع. ثمّ أخذ عصاه وسار إلى البيت فرفع النقاب عن وجه الميت وجسّ نبضه وأمر رجلاً أن يضربه على ظهر رجله ففعل، وبعد ساعة قال له كفى ثمّ بدأ في علاج السكتة. وفي اليوم الثالث قام المريض وقد أصابه الفالج ولكنّه عاش عدّة سنين. فتعجّب الناس، إذ تنبّأ هذا الطبيب الكبير بأنّ الرجل سيصاب بالسكتة.

الحكاية التاسعة

كان شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري[٣٣] قدّس الله روحه متعصباً على الأستاذ إسمعيل هذا، وقد قصده بالشر عدّة مرّات وأحرق كتبه، وهذا تعصّب ديني فإنّ الهرويين كانوا يعتقدون أنّه يحيى الموتى، وهذا الاعتقاد ضار بعامّة الناس.

واتّفق أنّ الشيخ مرض، وظهر عليه الفواق في مرضه، وبذل الأطباء في علاجه كلّ جهد بلا جدوى، فيئسوا، ثمّ بعد اليأس، أرسلوا قارورة بوله إلى الأستاذ الأديب إسمعيل وبدّلوا اسمه وسألوه العلاج، فلمّا فحص القارورة قال هذا بول فلان وقد ظهر عليه الفواق وعجز الأطباء عن علاجه، قولوا له يُدَقّ له أستار(*) من قشر لباب الفستق مع أستار من السكر العسكري ويعطى هذا المسحوق حتّى يشفى، وقولوا له عليك بتعلّم العلم ولا ينبغي لك إحراق الكتب. وقد جُعل من هذين المسحوقين سفوف وشربه المريض فهدأ الفواق فوراً وشفي.

الحكاية العاشرة

أصيب أحد مشاهير مدينة الإسكندرية بوجع في أنامله فكان لا يقرّ له قرار ولا يستريح قط. فأخبر جالينوس بأمره فأرسل إليه مرهماً ليوضع على أعلى كتفه، فعمل بأمره فسكن الألم في الحال وعوفي المريض. وعجب الأطباء فسألوا جالينوس ما هذا العلاج الذي أشرت به؟ فقال إنّ مخرج هذا العصب الذي يسبب الألم في الأنامل هو أعلى الكتف، وقد عالجت الأصل فشفي الفرع.

الحكاية الحادية عشرة

ظهرت على صدر الفضل بن يحيى البرمكي بعض علامات البرص فضايقته، فكان يذهب إلى الحمام ليلاً حتّى لا يطلع على مرضه أحد. فجمع ندماءه فسألهم من أحذق طبيب اليوم في العراق

(*) ٤ مثقال.

وخراسان والشام وفارس ومن هو أبعد الأطباء صيتاً. فقالوا إنّه جاثليق فارس بشيراز. فأوفد رسولاً وأحضر الجاثليق من فارس إلى بغداد، ثمّ اختلى به وقال له: ممتحناً، إنّ في رجليّ فتوراً يجب علاجه. فقال الجاثليق: عليك أن تمتنع عن أكل اللبنيات والمخللات وأن تأكل حساء الحمص بلحم دجاج عمره سنة مع حلوى من مخّ البيض والعسل؛ وسأصف لك الدواء حين يتم تنظيم الغذاء. فقال الفضل سأفعل ما ذكرت.

وأكل الفضل، في تلك الليلة من كل شيء كعادته. وكان هناك زيرباي معقّدة فأكل منها ولم يحترز من الكوامخ[٣٤] والرواصير[٣٥]. وفي اليوم التالي حضر الجاثليق فطلب قارورة البول لفحصه فاحمرّ وجهه وقال أنا لا أستطيع علاج هذا، فأنا قد نهيتك عن المخللات واللبنيات فأكلت الزيرباي ولم تحترز من أكل الكامة والأنبجات[٣٦]، فلا يصح لك علاج.

فاستحسن الفضل بن يحيى حدس هذا الطبيب العظيم وحذقه وصرّح له بعلّته وقال لقد دعوتك لهذا الأمر وكان ما قدّمت امتحاناً لك. فبدأ الجاثليق العلاج عاملاً بما جاء في هذا الباب، ولكن الأيام مرّت على غير فائدة والجاثليق الحكيم يتميّز. غيظاً فإنّ المرض ليس بذي بال ولكنّه مع ذلك قد طال؛ حتّى إذا كان جالساً يوماً مع الفضل بن يحيى قال: مولاي، قد قمت بما وجب من علاج فلم يؤثر قط فلعل الوالد غاضب عليك فأرضه حتّى أرفع عنك علتك. فقام الفضل في تلك الليلة وذهب إلى يحيى ووقع على قدميه وسأله الرضى عنه، فرضي هذا الوالد الشيخ وواصل الجاثليق أنواع العلاج نفسه فأخذت صحة الفضل في التقدّم ولم يمض كثير حتّى شفي شفاء تاماً.

فسأل الفضل الجاثليق: كيف عرفت أنّ سبب علّتي غضب

والدي. فقال الجاثليق إنّي عملت كلّ ما ينبغي من علاج فلم يفد شيئاً، فقلت إنّ هذا الرجل العظيم قد أصيب بلكدة من جهة ما ونظرت فلم أجد أحداً ينام الليل غاضباً عليك أو محزوناً منك بل إنّ كثيراً من الناس ليسعدون بصداقتك وصلاتك وخلعك إلى أن علمت أنّ والدك غاضب عليك وأنّ بينكما خلافاً، فعرفت أنّ هنا العلاج فعملت به، وذهب المرض ولم يخطىء ظنّي.

وأغدق جعفر بن يحيى النعم على الجاثليق ثمّ أرسله إلى فارس.

الحكاية الثانية عشرة

في سنة سبع وأربعين وخمسمائة(*) وقعت معركة عند باب أوبة بين سلطان العالم سنجر بن ملكشاه ومولاي علاء الدنيا والدين الحسين خلّد الله تعالى ملكهما وسلطانهما. وقد أصابت الغور عين السوء، فاستخفيت في هراة إذ كنت منسوباً إلى الغوريين وقد أثار عليهم أعداؤهم كلّ حقد كما أظهروا الشماتة بهم. وتصادف وجودي ليلة، ونحن في هذا الوضع، في بيت رجل فاضل، فبعد أن أكلنا خرجت لقضاء حاجة، فأخذ الرجل الكريم الذي تفضّل بإدخالي البيت يثني عليّ قائلاً: إنّ الناس يعرفونه شاعراً، ولكنّه إلى الشعر عالم بالنجوم والطب والترسّل ومتبحّر في أنواع العلوم الأخرى. فلمّا عدت إلى المجلس لقيني رب البيت بإجلال خاص كالذي يكون من أصحاب الحاجات، ثمّ جلس بعد قليل قريباً منّي. وقال: يا صاحبي إنّ لي بنتاً واحدة وليس لي أحد سواها، وهي نعمتي، وهذه البنت مريضة. ذلك أنّها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منّاً من

(*) ١١٥٢ ـ ٥٣.

الدم، فتضعف ضعفاً شديداً، وقد استشرت الأطباء وعالجها كثير منهم ولكن بغير فائدة، فإنّهم إذ وقفوا الدم ينتفخ بطنها ويزداد ألمها وإذا تركوه ينزف يظهر عليها الهزال، وأخاف أن تخور قواها جملة.

فقلت أخبرني حين تعود هذه العلّة.

فلمّا انقضت عشرة أيام جاءتني أم المريضة فسرت معها وأحضرت البنت أمامي، فرأيتها رائعة الجمال، حائرة يائسة من الحياة (فلمّا رأتني) ارتمت على قدميّ وقالت: أي أبي، أغثني لوجه الله فإنّي شابة ولم أر الدنيا. فانهمر الدمع من عينيّ وقلت لها: طيبي نفساً فهذا أمر يسير. ثمّ وضعت يدي على نبضها فوجدته قوياً. وكذلك كان لون وجهها عادياً. وقد توفّرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوّة والمزاج والسحنة والسن والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة والصناعة. فدعوت فصّاداً وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها، ثمّ أخرجت النساء من حولها، وقد خرج الدم الفاسد، وأخذت منها بالإمساك والتسريح، ألف درهم من الدم، فسقطت المريضة لا تعي. فأمرت بإحضار الناس وشويت بجانبها اللحم والطير حتّى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها فثابت إلى رشدها وتحرّكت وتأوّهت. ثمّ أعددت لها شراباً مقوياً لذيذ الطعم. وعالجتها أسبوعاً حتّى استعادت الدم الذي فقدت وزالت عنها العلّة وانتظم الحيض عندها. وكنت أناديها بابنتي، وكانت تناديني بأبي، وهي اليوم منّي كأبنائي.

فصل

ليس المقصود من تحرير هذه الرسالة وتقرير هذه المقالة إظهار الفضل أو إذكار الخدمة، بل هي إرشاد للمبتدي وحمد لمولاي

الملك المعظّم المؤيد المظفر المنصور حسام الدولة والدنيا والدين، نصرة الإسلام والمسلمين، عمدة الجيوش في العالمين، افتخار الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر المبتدعة والملحدين، ظهير الأيام، مجير الأنام، عضض الخلافة، جمال الملة، جلال الأمة، نظام العرب والعجم، أصيل العالم، شمس المعالي ملك الأمراء أبو الحسن علي بن مسعود بن الحسين نصير أمير المؤمنين(٣٧)، أدام الله جلاله، وزاد في السعادة إقباله، الذي يفخر الملك بمكانه والذي يبادر الحظ لخدمته. زين الله الدولة بجماله والملك بكماله، وأنار بحسن سيرته وسريرته عين ابنه المظفر منصور شمس الدولة والدين وجعل الحفظ الإلهي والعناية الملكية جوشناً على قدر حشمتهما وقامة عصمتهما، وجعل قلب مولاي ولي الأنعام الملك المعظم العالم العادل المؤيد المظفر المنصور فخر الدولة والدين، بهاء الإسلام والمسلمين، ملك ملوك الجبال، ببقائهما سعيداً إلى الأبد لا إلى حين.

الحواشي

حواشي المقدمة

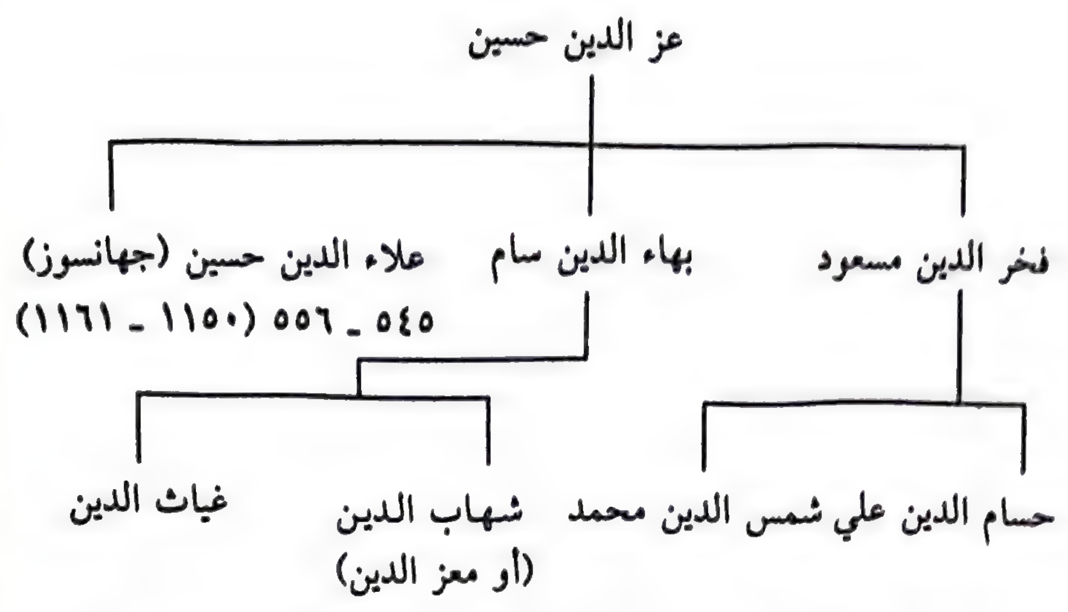
(١) الغوريون أو آل شنسب؛ ينتسب الغوريون إلى الضحاك الذي يحكى أنّه حكم إيران في القديم ألف سنة وقضى على دولته أفريدون؛ أمّا شنسب، جدّهم الذي يسمّون باسمه، فيزعم المؤرخون أنّه كان معاصراً لعلي بن أبي طالب وأنّه أسلم على يديه وأخذ منه العهد واللواء. وكانت هذه الأسرة تعتز بإبقائها على الودّ لآل علي حين اشتدّ السخط عليهم في العصر الأموي.

وهم طائفتان:

الأولى: ملوك الغور بالمعنى الأخص وهم الذين حكموا في غور نفسها وكانت عاصمتهم فيروزكوه.

الثانية: ملوك طخارستان، شمال غور، وكانت عاصمتهم باميان، ولذا فإنّهم يسمّون ملوك باميان وغورية باميان.

وقد حكمت هذه الأسرة حكماً مستقلاً زهاء سبع وستين سنة (٥٤٣/١١٤٨ ـ ٦١٢/١٢١٥) منذ تمكّنوا وغلبوا الغزنويين إلى أن قضى عليهم الخوارزمشاهية. وهؤلاء هم أهم أفراد هذه الأسرة ممّن، أشار إليهم المصنف.



وأهم هؤلاء السلاطين السلطان علاء الدين حسين بن عز الدين حسين، من سلاطين فيروزكوه، وقد بلغت الدولة الغورية أوجها في عهده. وهو الذي حارب بهرامشاه الغزنوي (١١١٨/٥١٢ ـ ٥٤٧/ ١١٥٢) وهزمه ودخل غزنين وأهلك أهلها وأشعل النار فيها سبعة أيام بلياليها، ولذا لقب بجهانسوز أي حارق الدنيا.

وأمّا فخر الدين مسعود فهو أوّل ملوك باميان. ولا يعرف تاريخ وفاته. ولكنّه كان في الحياة حتّى سنة ١١٦٢/٥٥٨، فقد جاء في «طبقات ناصري»[1] أنّه في ابتداء سلطنة السلطان غياث الدين الغوري جرّد فخر الدين مسعود جيشاً لقتال ابني أخيه (يعني غياث الدين، ومعز الدين)، وقد ولّى غياث الدين العرش سنة ٥٥٨ فتكون وفاة فخر الدين بعد ذلك التاريخ.

وملك الجبال، الذي أطلقه المصنف عليه، يطلق على آل شنسب عامة، فإنّ غور ولاية جبلية.

---

(١) ص١٠٣، وهو للقاضي منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجاني. وقد نشر في مجموعة liothica Indica وترجمة للإنكليزية H. G. Raverty مع ملاحظات قيّمة.

وأمّا شمس الدين محمد فهو ثاني ملوك غورباميان. ولا تُعرف سنة وفاته، ولكن المحقق أنّه كان حيّاً سنة ٥٨٦/١١٩٠ إذ في هذه السنة نشبت الحرب بين سلطانشاه ابن ايل ارسلان بن آتسز خوارزمشاه، وبين السلطانين الغوريين غياث الدين ومعز الدين، وقد رأس شمس الدين هذا جيش باميان وطخارستان لمعاونتهما[1].

وأمّا حسام الدين أبو الحسن علي فهو الذي ألف المصنف كتابه باسمه، وقد ذكره كتاب «طبقات ناصري»[2] بين أبناء فخر الدين مسعود. وكان في الحياة حوالي سنة ٥٥١/١١٥٦ تاريخ كتابة «چهار مقاله».

والمصدر الرئيسي لتاريخ هذه الأسرة هو كتاب «طبقات ناصري»، وكذلك فإنّ «روضة الجنات» لمعين الدين الأسفزازي يحوي عنها معلومات قيّمة.

(٢) غاك كرمه: غاك لغة في خاك، وإبدال الغين بالخاء والعكس سائد في اللسان الفارسي، فيقال چرغ وچرخ، ويقال ستيغ وستيخ، وإذاً فغاك كرمه هي كِرمِ خاك.

(٣) طَمْغَاج خان: يلقب أغلب ملوك الترك، المعروفين بالخانية، والذين حكموا هذه النواحي قبل المغول، بلقب طمغاج خان:

وقد جاء في سيرة السلطان جلال الدين خوارزمشاه المنكبرني لمحمد بن أحمد النسوي[3]: «حدّثني غير واحد ممّن يعتبر بقولهم أنّ

---

(١) ابن الأثير، ١٣، ص٣٨ طبعة ليدن؛ طبقات ناصري، ص٥٢، طبعة كلسكتا؛ حواشي لباب الألباب، ج١، ص٣٢١.

(٢) ص١٠٤.

مُلك الصين مُلك متّسع، دوره مسيرة ستة أشهر، وقد قيل إنّه يحويه سورة واحد لم ينقطع إلّا عند الجبال المنيعة والأنهار الوسيعة وقد انقسم من قديم الزمان [إلى] ستة أجزاء كلّ جزء منها مسيرة شهر يتولّى أمره خان أي ملك بلغتهم نيابة عن خانهم الأعظم، وكان خانهم الكبير الذي عاصر السلطان محمد [بن تكش] التون خان توارثها كابراً عن كابر بل كافراً عن كافر. ومن عادتهم الإقامة بطمغاج وهي واسطة الصين ونواحيها طول صيفهم...». ثمّ يقول بعد قليل: «فلمّا عاد التون خان إلى مدينته المعروفة بطمغاج أخذ الحجاب على عادتهم يعرضون كلّ يوم عدّة قضايا ممّا حدث مدّة غيبته...».

وقد جاء في تقويم البلدان لأبي الفداء[1] في جدول بلاد الصين نقلاً عن تاريخ النسوي المذكور: «ومن تاريخ النسوي الذي ذكر فيه أخبار خوارزمشاه والنهر (؟) أنّ قاعدة مُلك التتر بالصين اسمها طومحاج (طومخاج)».

ويقول زكريا بن محمد القزويني[2]: «طمغاج مدينة مشهورة كبيرة من بلاد الترك ذات قرى كثيرة وقراها بين جبلين في مضيق لا سبيل إليها من ذلك المضيق. ولا يمكن دخولها لو منع مانع. فلا يتعرض لها أحد من ملوك الترك لعلمهم بأنّ قصدها غير مفيد. وسلطانها ذو قدر ومكانة عند ملوك الترك، وبها معدن الذهب فلذلك كثر الذهب عندهم حتّى اتخذوا منه الظروف والأواني وأهلها زُغر لا شعر على جسدهم ونساؤهم على السواء في ذلك... وحكى الأمير أبو المؤيد بن

---

(١) نشر Houdas، باريس، ص٤ ـ ٥.

(٢) المكتبة الأهلية بباريس، الورقة ٩٨ من: Arabe, 2239.

(٣) آثار البلاد، ص٢٧٥ (وستنفيلد).

النعمان أنّ بها عينين، إحديهما عذب والأخرى ملح، وهما تنصبّان إلى حوض وتمتزجان فيه وتمتدّ من الحوض ساقيتان إحداهما عذب لا ملوحة فيه والأخرى ملح. وذكر أنّه من كرامات رجل صالح اسمه مليح الملّاح وصل إلى تلك الديار ودعا أهلها إلى الإسلام وظهر من كراماته أمر هذا الحوض والسواقي فأسلم بعض أهلها وهم على الإسلام حتّى الآن».

يقول برون Browne[1] إنّه يبدو ممكناً أنّ طَمْغَاج وطَفْغاج[2] تحريف لكلمة من اللهجة التركية الشرقية تَبغاج ومعناها «المعظم» أو «المشهور» وقد استعملت مراراً بمعنى «الصيني» في نقوش أرْخُن المؤرخة في القرن الثامن الميلادي. وفي هذه الحالة يكون معنى لقب «طمغاج (أو طبغاج) خان» الذي حمله عادة الولاة الخانيون «الخان المعظم» وليس «خان طمغاج»؛ وإنّ الاعتقاد السائد في وجود إقليم باسم طمغاج ناشي عن فهم خاطىء وقياس غير صحيح على لقب خوارزمشاه، وما يماثله، هذا اللقب الذي يعني حقيقة شاه خوارزم.

ثمّ يقول Browne إنّ ميرزا محمد (القزويني) قد بعث إليه بملحوظة علمية مفصلة يثبت فيها أنّ الكتّاب المسلمين المتقدمين استخدموا كلمة طغماج للدلالة على مدينة معينة حقيقية، وقد حقق بأوثق الأدلة أنّهم يقصدون بها «خان بالغ» Cambaluc أو پكين التي

---

(١) ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) انظر الحواشي ص١٢٤ في الكلام عن ارسلان خان... بن إبراهيم طفغاج خان ثمّ حواشي المقالة الثانية رقم ٢٨ عن السلطان خضر خان بن طفغاج خان إبراهيم.

تسمّى أيضاً چونكدو (العاصمة الوسطى) ودايدو (العاصمة العظمى).

(٤) ذكر إنّه سيروي عشر حكايات طريفة في كلّ مقالة، ولكن النسخ المشهورة من الكتاب ذكرت، في المقالة الرابعة، إحدى عشر حكاية، أمّا نسخة استنبول فقد احتوت على اثنتي عشرة حكاية.

حواشي المقالة الأولى

(١) أبو القاسم إسمعيل بن عبّاد الطالقاني المعروف بالصاحب المتوفى سنة ٣٨٥/ ٩٩٥. وقد طبعت رسائله في مصر سنة ١٣٦٦/ ١٩٤٦ بعناية الأستاذين الدكتور عبد الوهاب عزام بك، والدكتور شوقي ضيف.

وقد جاء في الحكاية الرابعة أنّ الصاحب رازي، ولم يرد هذا إلّا في إحدى روايتي تاريخ گزيده (طبع باريس ص١٥٨). والمشهور أنّه طالقاني. وفي تعيين طالقان خلاف أيضاً. يجعلها ياقوت بلدة وكورة بين قزوين وابهر، ويعده ابن خلكان من طالقان قزوين. ويرى الثعالبي أنّ طالقان التي ينسب إليها الصاحب من قرى أصفهان.

وجاء في كتاب «محاسن أصفهان»[1] أنّ الصاحب من مشاهير رجال هذا البلد.

---

(١) للمفضل بن سعد بن الحسين المافروخي، المؤلف في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري (بين سنتي ٤٦٥/ ١٠٧٢ و٤٨٥/ ١٠٩٢ ـ ٣). ومنه نسخة نفيسة نادرة في المتحف البريطاني رقم .Or.3601 وله ترجمة فارسية وضعت حوالي سنة ٧٣٠/ ١٣٢٩ ـ ٣٠ مع إضافات وملحقات؛ واسم المترجم محمد بن عبد الرضا الحسيني العلوي. وقد قدّم ترجمته إلى الوزير غياث الدين محمد بن الوزير خواجه رشيد الدين فضل صاحب «جامع التواريخ». ويوجد من هذه الترجمة نسختان في مكاتب أوروبا واحدة في لندن بمكتبة الجمعية الآسيوية

ورجح القزويني رأي الثعالبي والمافرّوخي، فإنّ الأوّل معاصر للصاحب وكان الثاني قريب العهد به. ثمّ إنّه من أهل أصفهان وفضلاء مؤرخيها.

وقد تغنّى الصاحب، حين فتحت جرجان، متشوقاً إلى بلده، ويظهر من شعره أنّه من أصفهان، من جَيّ (اسم مدينة ناحية أصفهان القديمة وتسمّى الآن عند العجم شهرستان وعند المحدثين المدينة). فقال:

يا أصفهان سقيت الغيث من كثب
فـأنـت مـجـمـع أوطـاري وأوطـانـي
والله والله لا أنـسـيـت بـرّك بـي
ولـو تـمـكـنـت مـن أقـصـى خـراسـان
سـقـيـا لأيـامـنـا والـشـمـل مـجـتـمـع
والـدهـر مـا خـانـنـي في قـرب إخـوانـي

الملكية رقم ١٨٠ (The Royal Asiatic Soceity) والثانية في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٧٣ (Bibliothèque NationaleK Supplément Persan) ، وهذه النسخة منقولة عن نسخة قديمة في إحدى المكتبات الخاصة بأصفهان لحساب شيفر Schefer وقد لخص برون Browne هذا الكتاب بالإنكليزية في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٠١ .(Journal of the Royal Asiatic Soceity) وقد ذكر ريو Rieu في ذيل فهرست الكتب العربية بالمتحف البريطاني النسخة العربية ولم يدر اسمها ولا مؤلفها. وقارن القزويني هذه النسخة العربية مع الترجمة الفارسية وملخص برون لهذه الترجمة فتأكد من أنّ نسخة لندن (المتحف البريطاني) هي الأصل العربي للترجمة للفارسية في مخطوطي مكتبة الجمعية الآسيوية بلندن والمكتبة الأهلية بباريس.

ذكـرت دَيْـمَـرت إذ طـال الـشـواء بـهـا
يـا بُـعـد ديـمـرت مـن أبـواب جـرجـان

وقال أيضاً:

يا أيّها الراكب المصغي إلى الحادي
حُـيـيـت مـن رائـحٍ مـنّـا ومـن غـاد
إن جـئـت جَـيّ بـلادي أو مـررتَ بـهـا
فـنـادهـا قـبـل حـط الـرحـل والـزاد
وقـل لـهـا جـئـت مـن جـرجـان مـبـتـدراً
أوحـي إلـيـك بـمـا قـال ابـن عـبـاد
يـا أصـفـهـان ألا حـيـيـت مـن بـلـد
يـا زنّـرُوذُ ألا سـقّـيـت مـن واد[1]

(٢) أبو إسحق إبراهيم بن هلال الحرّاني الصابي المتوفى سنة ٣٨٤/ ٩٩٤.

(٣) شمس المعالي قابوس بن وشمگير، أمير طبرستان الزياري الذي قتل سنة ٤٠٣/ ١٠١٢ ـ ١٣. وقد جمع ترسّلانه الإمام أبو الحسن علي بن محمد اليزدادي؛ وذكر محمد بن اسفنديار قطعاً منها في كتابه تاريخ طبرستان.

(٤) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي المشهور. كان أبوه نصرانياً، وقد أسلم أبو الفرج على يدي الخليفة المكتفي (٢٨٩/ ٩٠١ ـ ٢٩٥/ ٩٠٧)، وتوفي في خلافة المتقي سنة ٣٣٧/ ٩٤٨.

---

(١) جاءت هذه الأبيات في كتاب المافروخي.

وله مؤلفات كثيرة، وممّا بقي منها كتاب الخراج الذي نشره المستشرق دي جويه De Geoje في مجموعة المكتبة الجغرافية العربية BGA سنة ١٨٨٩. وله كتاب نقد الشعر المعروف بكتاب البيان. ونقد النثر. وقد ظهر ضمن مطبوعات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأوّل، نشره وقدّم له الأستاذان الدكتور طه حسين بك وعبد الحميد العبادي بك.

(٥) المراد مقامات الحميدي المشهورة، تأليف قاضي القضاة أبي بكر عمر بن محمود الملقب بحميد الدين المحمودي البلخي المتوفى سنة ٥٥٩/١١٦٣. وقد طبع هذا الكتاب في كان پور (Cawnpore) سنة ١٢٦٨/١٨٥١ ـ ٢ ثمّ في طهران سنة ١٢٩٠/ ١٨٧٣ ـ ٤. وتوجد منه نسخة ممتازة في المتحف البريطاني (Add. 7620) ترجع إلى القرن السادس الهجري أي بعد تأليف الكتاب بزمن قليل. ولم تذكر هذه النسخة تاريخ التأليف، ولكنّه ذكر في ديباجة النسخ الأخرى وفي ديباجتي النسختين المطبوعتين، كما ذكره حاجي خليفة وهو سنة ٥٥١/١١٥٦.

(٦) أبو علي محمد بن محمد بن عبد الله التميمي البلعمي المتوفى سنة ٣٨٦/٩٩٦. وهو وزير منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسمعيل الساماني (٣٥٠/ ٩٦١ ـ ٣٦٦/ ٩٧٦). وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية بأمر هذا الأمير. وكان أبوه، أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمي وزيراً للأمير إسمعيل مؤسس الأسرة السامانية. وقد توفي سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ ـ ١. وكثيراً ما يقع اللبس بين الابن وأبيه. والبلعمي نسبة إلى مدينة بلعم في آسيا الصغرى؛ ويقال إنّها ناحية في قرية بلا شجرة قرب مرو[١].

---

(١) أنساب السمعاني (مجموعة Gibb، ج٢٠، الورقة ١٩٠).

(٧) إشارة إلى الشيخ الجليل شمس الكفاة أحمد بن الحسن الميمندي المتوفى سنة ٤٢٤/ ١٠٣٢. وهو من مشاهير الكتاب وقد وزر للسلطان محمود الغزنوي ولولده السلطان مسعود مدّة عشرين سنة، وهو الذي أمر بجعل الرسائل باللغة العربية وكانت من قبله تدوّن باللغة الفارسية[١].

(٨) أبو نصر بن منصور بن محمد الملقب بعميد الملك الكندري. أوّل وزراء الدولة السلجوقية وقد وزر سنين عدّة لطغرل بيك وعدّة أشهر لألب أرسلان. ثمّ عمل نظام الملك الطوسي على إقصائه ثمّ قتله سنة ٤٥٦/ ١٠٦٣[٢].

(٩) يذكره المصنف (ص٣٣) فيقول:

«فقال محمد بن عبده الكاتب، وكان كاتب بغراخان وله في العلم تعمّق، وفي الفضل تفوّق، وفي النظم والنثر تبحّر، وكان أحد فضلاء الإسلام وبلغائه». ومن هذا نرى أنّه كان من كتّاب ملوك ترك ما وراء النهر المعروفين بالخانية، وأنّه عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس.

(١٠) يقرب من اليقين أنّ المراد بعبد الحميد هو عبد

---

(١) انظر في ترجمته تاريخ اليميني للعتبي، طبع القاهرة ص١٦٦ ـ ١٧٢. وتاريخ البيهقي الذي أكثر من ذكره ولا تكاد تخلو من ذكره صفحة منه. ولباب الألباب لعوفي، ج١، ص٦٣ ـ ٦٤ وابن الأثير، ج٩، ص٣٨٣، ٢٩٤. وآثار الوزراء لسيف الدين العقيلي (المتحف البريطاني، ورقات ٧٣ب، ٨٩ب ـ or. 7184. ودستور الوزراء لغياث الدين خواندمير (المتحف البريطاني، ورقات ٧٠ب، ٧١ب ـ or. 234).

(٢) يذهب السمعاني ورقة (٤٨٨ ب) إلى أنه قتل سنة ١٠٦٧/٤٦٠ ـ ٨.

الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٧/ ٨٤٤ ـ ١٣٢/ ٧٥٠) آخر خلفاء بني أمية. وهو الذي يضرب به المثل في البلاغة، وقيل فيه «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد». وقد قتل مع مروان في حربه مع العباسيين سنة ١٣٢/ ٧٥٠.

(١١) الراجح أنّ المراد بالأوّل أبو المحاسن محمد بن فضل الله بن محمد الملقب بسيّد الرؤساء الذي كان نائب ديوان الإنشاء للسلطان ملكشاه بن إرسلان (٤٦٥/ ١٠٧٢ ـ ٤٨٥/ ١٠٩٢) وكان من خواص المقرّبين إليه. وأنّ المراد بالثاني شرف الملك أبو سعيد محمد بن منصور بن محمد الذي كان صاحب ديوان الإنشاء في عهد ملكشاه أيضاً. والرجلان من أكابر الكتّاب وعظماء رجال الدولة السلجوقية. وقد قال عماد الدين الكاتب: «كان نظام الملك مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته أمينين، وهما كمال الدولة أبو الرضا فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء، وشرف الملك أبو سعيد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمان والاستيفاء، وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والجاه والمال والدهاء ومعدن الفضائل والعطاء. وكان لهذين نائبان فللكمال ولده سيّد الرؤساء أبو المحاسن محمد وكان مقبلاً مقبولاً قد اختصّه السلطان [ملكشاه بن ألپ إرسلان] بخدمته واختاره لندمته واستأمنه على سرّه وبلغت مرتبته من اصطفاء السلطان إلى غاية لم يبلغها أنيس ولم يصل إلى مرتبتها جليس، وقد كتب إليه السلطان يستبطئه بخط يده بيتاً بالفارسية معناه إنّك لا تتأثر بالغيبة عنّي فإنّك تجد من تأنس به غيري وأنا أتأثّر بغيبتك فإنّي لا أجد الأنس بغيرك. قال فصارختنا لنظام الملك وتزوج

بابنته وزاد ذلك في منزلته وله السرادق والكوس والعلم. . .»[1].

(١٢) ابن عبادي ويسمّيه ابن الأثير الواعظ (ج١١، ص٧٧، ٧٨، ٨٨، ١٠٣) توفي في عسكر مُكرم في ربيع الثاني سنة ٥٤٧/ يوليو ١١٥٢[2].

(١٣) هو أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي الأبيوردي المتوفى في أصفهان سنة ٥٠٧/ ١١١٣ ـ ٤. من الفضلاء والشعراء المشهورين وله تصانيف في الأنساب والتاريخ واللغة. وقد تحدّث عنه ياقوت في إرشاد الأريب (ج٦، ص٣٤١ ـ ٣٥٨)، كما ذكره ابن الأثير (ج٩، ص٨٤، ١٩٢ ـ ١٩٣).

(١٤) هو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الطلبي الأشهى الغزي. من مشاهير شعراء العرب وقد رحل إلى أكثر بلاد خراسان وكرمان والمشرق. ومدح ملوك ووزراء آل سامان وأشعاره ذائعة في خراسان. توفي سنة ٥٢٤/ ١١٣٠ ودفن في بلخ. واستشهد رشيد الدين الوطواط بكثير من أشعاره في كتابه حدائق السحر. وله ديوان نفيس في المكتبة الأهلية بباريس، نسخ في الكرخ سنة ٥٩٠/ ١١٩٤[3]. ولم يذكره المصنف لأنّه أشهر الشعراء إنّما ذكره لأنّه كان معاصراً له ولأنّ شهرته كانت ذائعة في خراسان المشرق، ولذا فإنّه كان معروفاً من المصنف أكثر من غيره. والغزي نسبة إلى غزة المدينة المعروفة بفلسطين.

---

(١) تاريخ السلجوقية لعماد الدين الكاتب مختصراً بقلم البنداري، ص٥٦ ـ ٥٧ طبعة مصر.

(٢) وانظر ابن خلكان، ج٣، ص٥٣٩ ـ ٥٤٠ من طبعة مصر.

(٣) Bibliothèque Nationale (Paris) Arabe 8126.

(١٥) هو أبو القاسم علي بن محمد الإسكافي النيسابوري الكاتب المشهور. قال عنه الثعالبي[١] إنّه لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها في الكتابة والبلاغة. تأدّب بنيسابور واتّصل في شبابه بالأمير أبي علي بن محتاج الچغاني من الأمراء من قبل السامانيين، وقد استأثره الأمير فحسن أثره واستخلصه لنفسه وقلده ديوان الرسائل فحسن خبره وسار أثره، وكانت كتبه ترد على الحضرة فتنال غاية الإعجاب وتقع المنافسة فيه. وكان أبو علي الچغاني يُكاتَب في إيثار الحضرة بن فيتعلل ويتسلل. إلى أن شقّ أبو علي عصا الطاعة على مولاه الأمير الحميد نوح بن نصر بن أحمد بن إسمعيل الساماني سنة ٣٣٤/ ٩٤٥ ـ ٦، واستولى على كثير من بلاد خراسان إلى أن كانت واقعة جرجيل (أو جرجيك) من نواحي بخارى فهزم أبو علي وهرب إلى چغانيان. ووقع الإسكافي أسيراً مع جملة من أصحاب أبي علي، فحبس في قلعة قهندز وقيد، مع حسن الرأي فيه وشدّة الميل إليه. ثمّ إنّ الأمير الحميد نوح بن نصر أراد أن يستكشفه عن سرّه ويقف على خبيئة صدره فأمر أن تكتب إليه رقعة على لسان بعض المشايخ ويقال له فيها إنّ أبا العباس الچغاني (أخا أبي علي) قد كتب إلى الحضرة يستوهبك من السلطان ويستدعيك إلى الشاش (چاچ) لتتولى له كتابة الكتب السلطانية فما رأيك في ذلك؟ فوقع تحت الرقعة ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[٢]. فلمّا عرض التوقيع على الحميد حسُن موقعه منه فأعجب به وأمر بإطلاقه وخلع عليه وأقعده في ديوان الرسائل خليفة لأبي عبد الله كلّه، وكان الاسم له والعمل

---

(١) يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٩ وما بعدها.

(٢) ١٢: ٣٣.

لأبي القاسم. ولمّا توفي أبو عبد الله تولّى الإسكافي العمل برأسه وعلا أمره وبعد صيته. وتوفي الأمير نوح وتلاه الأمير الرشيد عبدالملك بن نوح سنة ٣٤٣/ ٩٥٤ ـ ٥ فأقرّ الإسكافي في ديوانه وزادت مكانته ولكنّه لم يلبث طويلاً حتّى مرض ومات. وإذاً فوفاته كانت بين سنتي ٣٤٣/ ٩٥٤ ـ ٥ و٣٥٠/ ٩٦١. وقد رثاه كثيرون منهم الهزيمي الأبيوردي الذي قال فيه:

ألم تر ديوان الرسائل عطلت لفقدانه أقلامه ودفاتره
كثغر مضى حاميه ليس يسده سواه وكالكسر الذي عز جابره
ليبك عليه خطّه وبيانه فذا مات واشيه وذا مات سامره

يقول الثعالبي:

ومن عجيب أمره أنّه كان أكتب الناس في السلطانيات فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع. ثمّ يقول:

وكان من علو الرتبة في النثر وانحطاطها في النظم كالجاحظ.

(١٦) أخطاء تاريخية في الحكاية الأولى:

أوّلاً: ليس من الممكن أن يكون الإسكافي قد أدرك عهد نوح بن منصور وكتب له (٣٦٦/٩٧٦ ـ ٩٩٧)، إذ أنّه توفي في أوائل عهد عبدالملك بن نوح، كما سبق. ومن المستبعد أن كون ذلك من سهو النساخ لأنّ لطف هذه الحكاية مبني على لفظ «نوح» وحسن اتفاقه مع الآية الشريفة: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[1].

ثانياً: من الخطأ أن يُقال إنّ الب تگين لحق عهد نوح الثاني بن منصور، فإنّ الأوّل توفي، حسب ما يقال، سنة ٣٥١/ ٩٦٢ ـ ٣ أو ٣٥٢ أو ٣٥٤. وولي الثاني العرش سنة ٣٦٦/٩٧٦ ـ ٧. ولعلّ

(١) سورة ١١، آية ٣٢.

المصنف قد خلط بين نوح الثاني وأبيه منصور الأوّل بن نوح (٣٥٠/ ٩٦١ ـ ٣٦٦/ ٩٧٦) وهو الذي حار به الپ تگين بالفعل واستولى منه على غزنة لا هراة كما جاء في النص؛ أو لعلّه قد خلط بين الپ تگين وأبي علي سيمجور الذي ثار على نوح الثاني بن منصور. ويرجح القزويني هذا الرأي الأخير.

ثالثاً: يقول المصنف «وقد كتب الأمير نوح من بخارا إلى زاولستان لسبكتگين حتّى يحضر بالجيش...». والواقع أنّ الأمير «نوح» كتب إلى سبكتگين ولكن متى ومن أجل محاربة من؟ كان ذلك سنة ٣٨٣/ ٩٩٣ ـ ٤، أي بعد وفاة الپ تگين بأكثر من ثلاثين سنة، وكتب من أجل مقاتلة أبي علي سيمجور الذي كان منذ مدّة طويلة ثائراً على الأمير نوح وملأ أنحاء الدولة بالفتنة والاضطراب. فلمّا عجز الأمير نوح عن إخماد فتنة بنفسه توسّل بسبكتگين وولده محمود فجاءا من غزنة إلى خراسان وأخمدا الفتنة وهزما السيمجوريين.

رابعاً: يغلب على الظنّ أنّ المصنف حين يقول «أبو الحسن علي بن محتاج الكاشاني» يقصد الأمير أبا علي [أحمد] بن محتاج الصغاني من أمراء السامانيين المشهورين وقد كان والياً على خراسان وقائداً لجند آل سامان. ومع غض النظر عن الأخطاء التي جاءت عن اسم وكنية وبلد ومنصب[1] هذا الرجل فإنّا نقول إنّ الأمير أبا علي

---

(١) لأنّ اسمه أحمد لا «علي»، وكنيته أبو علي لا «أبو الحسن» وهو الچغاني (الصغاني) لا الكشاني. وكان والياً على خراسان من قبل نصر بن أحمد ونوح بن نصر بن أحمد وليس حاجب الباب نوح بن منصور. والكاشاني نسبة إلى كشانية وهي مدينة من صغد سمرقند، والچغاني نسبة إلى چغانيان (صغانيان) وهي ولاية عظيمة في بلاد ما وراء النهر وعاصمتها تحمل نفس الاسم.

توفي سنة ٣٤٤/ ٩٥٥ ـ ٦ (ابن الأثير، ج٨، ص٣٨٤) أي قبل جلوس الأمير نوح باثنتين وعشرين سنة (٣٦٦/ ٩٧٦ ـ ٧)، قبل أن يأتي سبكتگين بجيشه إلى خراسان بتسع وثلاثين سنة (٣٨٣/ ٩٩٣ ـ ٤). وإذاً فرسالة أبي علي بن محتاج إلى الپتگين باسم الأمير نوح من المستحيلات.

(١٧) ينسب أبو ريحان البيروني (الآثار الباقية ص٣٣٢) قصة كتابة هذه الآية إلى خلف بن أحمد أمير سيستان فيقول بعد ذكر جواب من هذا النوع: وما أوجز هذا الجواب وأسكته وأشبهه بجواب ولي الدولة أبي أحمد خلف بن أحمد صاحب سجستان حين كتب إلى نوح بن منصور صاحب خراسان بالوعيد وصنوف التهديد فأجابه ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

(١٨) سهو تاريخي في الحكاية الثانية.

وقع المصنّف في هذه المقالة في السهو مرّتين:

أوّلاً: يقول إنّ واقعة عصيان ما كان بن كاكي كانت في عهد نوح بن منصور.

والواقع أنّها حدثت في عهد نصر بن أحمد بن إسماعيل (٣٠١/ ٩١٣ ـ ٣٣١/ ٩٤٢) ثالث أمراء آل سامان وجد والد نوح بن منصور هذا؛ ففي عهده طغى ما كان وتسلّط على جرجان، ثمّ قتل سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ ـ ١ أي قبل ارتقاء نوح بن منصور العرش بتسع وثلاثين سنة.

ثانياً: يقول المصنف إنّ القائد الذي حارب ما كان بن كاكي وقتله هو تاش، والواقع أنّ المؤرخين متفقون على أنّ الذي قاد هذه

الحرب هو الأمير أبو علي أحمد بن محتاج الصغاني وهو الذي قتل ما كان بن كاكي.

(١٩) تطلق كلمة ملطفة (بصيغة اسم المفعول) على كتاب صغير يحوي خلاصة المطلوب في إيجاز.

(٢٠) خلط المصنف في هذه الحكاية بين الأخوين، فإن «ذو الرياستين» لقب الفضل بن سهل (الذي تقلّد رياسة السيف والقلم) لا الحسن بن سهل. وقد تزوّج المأمون بوران بنت الحسن لا بنت الفضل.

وقد ذكر برون Browne (ص١٠٧) أنّ القزويني قد بعث إليه بنص أقصر لهذه الرواية منقول عن «كتاب الكناية والتعريض»[١] للثعالبي الذي تقدّم المصنف بما يقرب من قرن ونصف، وهذه هي:

ويروى أنّ بوران بنت الحسن بن سهل لما زُفّت إلى المأمون حاضت من هيبة الخلافة في غير وقت الحيض فلمّا أخلا بها المأمون ومدّ يده إلى تكتها قرأت ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾. ففطن لها وتعجّب من حسن كنايتها وازداد إعجاباً بها.

(٢٢) ذكر الألبسة الواردة في الحكاية السابعة.

ذكر ميرزا حبيب الأصفهاني في كشافٍ له في آخر «ديوان البسه» مولانا نظام قاري الذي نشره في استنبول سنة ١٣٠٣ ـ ١٨٨٥ ـ ٦ الأطلس والنسيج والإكسون. فقال عن الأطلس إنّه من نوع من الثياب يسمّيه الفرنج Satin وهو على أنواع (ص١٩٥). وقد ذكر المصنف من أنواع المعدني والملكي. وقال عن النسيج إنّه نوع من الحرير الموشي

---

(١) Berlin, Arabic MS. No 7337, Petermann II, 59, f. 146a.

بالذهب (ص٢٠٥). وقال عن الإكسون إنّه نوع من الحرير الأسود يلبسه العظماء من أجل التفاخر (ص١٩٦).

أمّا الطميم فقد ذهب القزويني إلى أنّ لفظه مشكل، فإنّ ضبطه غير معلوم، وكذلك نجهل من أي لغة هو ولو أنّ هيئته تدل على أنه عربي.

وذكر القاموس أنّه «يقال طمّ الشيء كثر حتّى علا وغلب، وطمّ شعرُه واستطمّ حان له أن يُجزّ، وطمّ الإناء ملأه»، وقد يستفاد من هذا المعنى أنّ كلمة طميم إذا أطلقت على الثوب تفيد طوله فالطميم من الثياب طويلها.

وقد يؤيّد هذا ذكر الطميم والقطوع من الثياب معاً والمقطعات من الثياب القصار[1]. هذا والطميم في اللغة العجَبُ والعجيب والفرس الجواد فهي وصف للعظمة والأبهة الباعثة على العجب. ومن هذا نرى أنّ الثوب الطميم قد يكون الطويل البديع الباعث على العجب.

وذهب القزويني إلى أنّ المقراضي من الثياب الثمين الفاخر ولو أنّ جنسه غير معلوم. واستشهد بما جاء في كتاب «محاسن أصفهان» (ورقة ٣٨ب):

«فقال في وصاياه لتتخذ أكفاني من ثوب مقراضي رومي وعمامة قصب مذهبة وثوب دبيقي مصري فقيل له مه فإنّه لا يصلح للأكفان

(١) انظر القاموس في مادة طمّ ومادة قطع. ويذهب ابن سيده في المخصّص إلى أنّ القطوع ضرب من الوشي في الثياب. كما ذهب القاموس إلى أنّ المقطعات من الثياب القصار أو برود عليها وشي.

غير الثياب البيض القطنية. فقال العياذ بالله عاشرت خلقه ستين سنة وكنت أحضرهم في الديباج والحرير والقصب وأنا الآن مواف خالقي ورازقي ألدثر في أكفان من هذا الضرب الردي».

والممزّج بصيغة اسم المفعول ثوب ينسج من الذهب وشيء آخر. يقول ابن الأثير في حوادث سنة ١١١٨/٥١٢: «وفي هذه السنة أسقط المسترشد بالله من الإقطاع المختص به كلّ جور وأمر أن لا يؤخذ إلّا ما جرت به العادة القديمة، وأطلق ضمان غزل الذهب، وكان صنّاع السقلاطون والممزج وغيرهم ممّن يعمل فيه (أي من الذهب) يلقون شدّة من العمال عليها وأذى عظيماً.

(٢٣) خلط المصنّف في هذه القصة بين السلطانين مسعود وسنجر. فقد اتفق المؤرخون على أنّ المسترشد بالله قد جرّد جيشه من بغداد لقتال السلطان مسعود بن محمد ابن ملكشاه لا لقتال سنجر، وأنّه بعد أن التقى الجمعان عند كرمانشاهان انحاز معظم جند الخليفة إلى جيش السلطان مسعود، وأُسر الخليفة وحمله السلطان معه حتّى إذا كان بباب المراغة دخل جماعة من الباطنية إلى خيمة المسترشد بالله وقتلوه وصحبه، وكان هذا سنة ٥٢٩/ ١١٣٤ ـ ٥.

(٢٤) گورخان والقراخطائيين: حدثت واقعة قتال گورخان الخطائي مع السلطان سنجر بن ملكشاه عند باب سمرقند سنة ٥٣٦/ ١١٤١ ـ ٢ وهي المعروفة بحرب قَطَوان (موضع من محال سمرقند). وقد قتل فيها ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، منهم إثنا عشر ألفاً من أصحاب العمائم، وأسرت فيها زوج السلطان سنجر

وقد استقرّت دولة الترك الكفار المعروفين باسم «قرا خطا» في بلاد ما وراء النهر بعد هذه الواقعة. وأصبحت جميع البلاد خاضعة

لهم فحكموها حوالي تسع وثمانين سنة[1]، وذلك إلى أن أجلاهم السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بمساعدة كوچلك خان التتار سنة ٦٠٧/ ١٢١٠ ـ ١١.

وتعرف هذه السلالة باسم «الملوك الگورخانية» أو «ملوك قراخطا»، وقد اشتهر ملكهم بغاية العدل وطيب السيرة. ولم يقضوا بعد استيلائهم على بلاد ما وراء النهر على أسرة ملوك الترك المسلمين المعروفة بالأفراسيابية أو الخانية أو الإيلك خانية وهي الأسرة التي حكمت هذه البلاد أكثر من مائتي سنة بعد السامانيين وقبل المغول، ولكنّهم أبقوهم على عروشهم واكتفوا بأخذ الخراج منهم ونصب شحنة من قِبَلهم في بلاطهم. ثمّ إنّ أغلب السلاطين الخوارزمشاهية كانوا يدفعون الجزية حتّى تغلّبوا عليهم.

وقد كان ملوك قراخطا سداً سديداً بين بلاد المسلمين وغيرهم من الكفار الآخرين كالمغول وغيرهم. فحين هزمهم علاء الدين محمد خوارزمشاه لم يقض عليهم فحسب إنّما طوح بما بين الكفار والمسلمين من سد منيع، وأصبح هو نفسه عاجزاً عن حماية هذه البلاد، فلمّا أغار التتار لم يحل دونهم حائل فساروا حتّى أقصى بلاد المسلمين وفعلوا ما ذكره التاريخ. أمّا مملكة محمد خوارزمشاه التي قلّما يشير المؤرخون إلى مثلها عظمة وسعة فإنّها خربت وأصبحت مأوى للبوم والغربان في زمن قصير ولقي خوارزمشاه حتفه من غير كفن يستره.

أمّا لفظ گورخان الذي يذكر في كتب التاريخ بالكاف العربية

---

(١) راجع طبقات ناصري، وجهانگشاي جويني، وجهان آراي قاضي أحمد غفاري.

وكوخان أو أوزخان أو أورخان أيضاً فيقول غالب المؤرخين إنّه يطلق على ملوك القراخطا وليس اسماً لأحدهم[1]. واسم گورخان الذي حارب السلطان سنجر، إذا اعتمدنا رواية جهان آرا، قُوشْقين طايْقُو، والله أعلم.

(٢٥ ـ ٢٦) أتمتكين. ضبط هذه الكلمة غير مؤكد. والمحقق أنّ گورخان قد عهد بحكومة بخارى إلى رجل اسمه شبيه بهذه الكلمة سنة ٥٣٦/ ١١٤١ بعد انتصاره في قطوان. وقد ذكر هذا في «مختصر تاريخ بخارى» لمحمد بن زفر بن عمر، وهو مؤلف سنة ٥٧٤/ ١١٧٨ أي بعد واقعة قطوان بثمان وثلاثين سنة؛ ولكن نسختي هذا الكتاب قد ذكرتا الاسم بصورتين مختلفتين. فنسخة المتحف البريطاني (Add. 2777, f. 28 a) ذكرت إيمنتگين ونسخة المكتبة الأهلية بباريس ذكرت اليتگين (Suppl. Pess. 1513, f. 23 b).

وواضح، كما يقول برون Browne (ص١٠٩) أنّه اسم تركي فنهايته تگين كنهاية الب تگين وسبكتگين، وهي نهاية معروفة ولكن المقطع الأوّل من الاسم مجهول.

وآتسز. كلمة تركية معناها من لا اسم له (آت + اسم، سيز + أداة

---

(١) يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٥٣٦: «وكوبلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم وخان لقب لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك».

وجاء في جهان آرا (Or 141, f. 134 b)) إنّ گورخان يعني خان خانان أي أعظم الملوك.

ويقول برون Browne إنّ الدكتور بينجر Babinger قد لفت نظره إلى ملحوظة لسلستر دي ساسي S. de Sacy في «Mémoires de l;Academie» سنة ١٨٢٢ من ٤٧٦ على تفسير ابن عربشاه لكلمة گورخان (برون ص١٠٩).

التجريد) وقد جرت العادة عند الترك أنّ من يموت بنوه صغاراً يسمّى واحداً منهم آتسز حتّى يعيش ولا يهلك[1].

(٢٧) آل برهان: يسمّون بنو مازة وهم من الأسر الكبيرة في بخارى، وقد اشتهروا في الآفاق بالبذل والجود والكرم والرياسة والمجد والعظمة. وكانت فيهم، أباً عن جَدّ، رياسة جماعة الحنفية التي هي مذهب أهل ما وراء النهر عامّة. وكانوا يعدّون ملوك بخارى في أواخر عهد القراخطائيين الذي كانوا يتقاضونهم الخراج. وقد أشار إليهم زكريا بن محمد القزويني في كتابه «آثار البلاد»[2] عند كلامه عن بخارى فقال:

«ولم تزل بخارى مجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء ومنشأ علوم النظر وكانت الرياسة في بيت مبارك يقال لرئيسه خواجه إمام أجل، وإلى الآن (أي سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥ تاريخ تأليف الكتاب) نسلهم باق. ونسبهم ينتهي إلى عمر بن عبد العزيز بن مروان. وتوارثوا تربية العلم والعلماء كابراً عن كابر يرتبون وظيفة أربعة آلاف فقيه».

وقد تحدّث القزويني (صاحب الحواشي) عن بعض أفراد هذه الأسرة التي كثيراً ما يرد ذكرها في كتب التاريخ:

١ ـ الإمام برهان الدين عبد العزيز بن مازة البخاري الحنفي، والظاهر أنّه أوّل أفراد هذه الأسرة التي اشتهرت به وإليه تنسب.

٢ ـ ابنه الإمام الشهيد حسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة.

---

(١) انظر ابن خلكان، طبعة القاهرة، ج٢ ص٦٥ تحت «اطسيس».

(٢) ص٣٤٣.

ولد في صفر سنة ٤٨٣/ابريل ١٠٩٠ وقُتل سنة ١١٤١/٥٣٦ ـ ٢. وهو من مشاهير علماء المشرق ومن فقهاء ما وراء النهر. وقد قتله گورخان بعد واقعة قطوان[(١)].

٣ ـ أخو المذكور تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز بن مازة. ويقول المصنّف إنّه، بعد قتل أخيه حسام الدين، عيّن ناظراً على أتمتگين عن أمر إلّا بعد مشورة تاج الإسلام.

٤ ـ ولد المذكور الإمام شمس الدين صدر جهان محمد بن عمر بن عبد العزيز بن مازة الذي كان رئيساً لبخارى وهو الذي عاق غارة الترك القَرْلُق بلطائف الحيل حتّى جاء چغري خان بن حسن تگين وإلى سمرقند وبخارى من قبل خطا ودفعهم[(٢)].

٥ ـ وولد آخر له هو صدر الصدور صدرجهان برهان الدين عبد العزيز بن عمر بن العزيز بن مازة، وهو من أعاظم رؤساء آل برهان ومشاهيرهم. وقد قدم له، سنة ١١٧٨/٥٧٤ محمد بن زفر بن عمر مختصره الفارسي للنص العربي لكتاب تاريخ بخارى الذي كتبه أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي سنة ٣٣٢/ ٩٤٣ لنوح بن نصر الساماني[(٣)]. وقد أورد نور الدين محمد

---

(١) تاريخ السلجوقية لعماد الدين الكاتب ص٢٧٨؛ ابن الأثير، ج١١، ص٥٧؛ وسائر المؤرخين في حياة سنجر.

(٢) ابن الأثير، ج١١، ص٢٠٥.

(٣) وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية مختصراً أبو نصر أحمد بن نصر القباوي سنة ١١٢٨/٥٢٢، وقد عاد اختصاره وأصلحه محمد بن زفر بن عمر سنة ١١٧٨/٥٧٤. ومن هذا المختصر الأخير نسخ متعددة في المتحف البريطاني بلندن والمكتبة الأهلية بباريس. وقد نشره شيفر Schefer في باريس سنة ١٨٩٢. وكذلك ترجم إلى الروسية سنة ١٨٩٧. ونشرت الترجمة في طاشكند.

عوفي في كتابه «جوامع الحكايات ولوامع الروايات»[1] حكايات عن بذله وكرمه وعظمته ذكر القزويني اثنتين منها.

٦ ـ الإمام برهان الدين محمود بن تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز بن مازة صاحب كتاب «ذخيرة الفتاوى» المشهور بالذخيرة البرهانية. جمع فيه فتاواه مع فتاوى الصدر الشهيد حسام الدين[2].

٧ ـ ١٠ : الإمام برهان الدين محمد المعروف بصدر جهان بن أحمد بن عبد العزيز ابن مازة وأخوه افتخار جهان. وولداه ملك الإسلام وعزيز الإسلام.

وصدرجهان هذا من أعاظم ملوك عصره وقد حكم بخارى وكان يدفع الخراج للخطائيين.

ويقول عنه محمد بن أحمد النسوي في سيرة جلال الدين المنكبرني:

«برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدرجهان رئيس الحنفية ببخارى» وخطيبها وإذا سمع السامع بأنّه خطيب بخارى يعتقد أنّه كان مثل سائر الخطباء في ارتفاع قدر الارتفاع واتساع الأملاك والضياع وامتطاء صهوة المجد والتحكّم في أزمة العدّ وليس الأمر كذلك بل المذكور لا يقاس إلّا برتوت السادات وقروم الملوك إذ كان في جملة من يعيش تحت كنفه وإدارة سلفه ما يقارب ستة آلاف فقيه وكان كريماً عالي الهمّة ذا مروءة يرى

(١) طبع جزء من هذا الكتاب حديثاً في طهران باهتمام الأستاذ محمد تقي بهارز

(٢) حاجي خليفة، جزء٣، ص٣٢٨، وقد ذكر خطأً عبد العزيز بن عمر بن مازة.

الدنيا هبأة منثورة بين أخواتها الثائرة بل نقطة موهومة من نقط الدائرة وكانت سدته ميقاتاً للفضل وأهليه ورسوماً للعلم ومنتحليه يجلب إليها بضاعات الأفاضل فينباع بأكمل الأثمان[1]. وصدرجهان هذا هو الذي حج سنة ١٢٠٦/٦٠٣. فلم تحمد سيرته في الطريق ولم يصنع معروفاً. وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارى فلمّا عاد لم يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج فسمّوه صدرجهنم[2]. وحين قصد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه العراق (١٢١٧/٦١٤) لقتال الخليفة الناصر لدين الله (١١٧٩/٥٧٥ ـ ١٢٥٥/٦٢٢) رأى من الحزم أن ينقل صدرجهان وأخاه وولديه من بخارى إلى خوارزم مخافة أن يبعثوا الفتنة في غيبته فظلّوا بخوارزم حتّى عزمت تركان خاتون أم خوارزمشاه على الفرار خوفاً من جيش المغول فقتلتهم جميعاً[3].

١١ ـ صدرجهان سيف الدين محمد بن عبد العزيز بن مازة الذي ذكر كثيراً في لباب الألباب إذ كان يعيش أثناء تأليفه (٦٠٨/ ١٢٢١).

١٢ ـ برهان الإسلام تاج الدين عمر بن مسعود بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة، وهو من أساتذة عوفي الذي ترجم له في كتاب لباب الألباب (ج١، ص١٦٩ ـ ١٧٤).

١٣ ـ ولده نظام الدين محمد بن عمر. وقد ترجم له عوفي أيضاً

---

(١) نشر Houdas باريس ١٨٩١، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) ابن الأثير، ج١٢، ص١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) سيرة جلال الدين منكبرني، ص٣٩.

(ج١، ص١٧٦)، وقد خدمه بضعة أيام في آموي حين ذهب من خراسان إلى بخارى حوالي سنة ٦٠٠/١٢٠٣ ـ ٤[١].

١٤ ـ الإمام برهان الدين (بدون سوق نسب)، تحدّث عنه علاء الدين عطا مالك جويني في «تاريخ جهانگشاي»[٢] بمناسبة الحديث عن فتنة تارابي سنة ٦٣٦/١٢٣٨ ـ ٩.

وقد تحدّث زكريا بن محمد القزويني في كتابه «آثار البلا» بما يفيد بقاء هذه الأسرة حتّى أواخر القرن السابع الهجري (أي حتى ٦٧٤/ ١٢٧٥ سنة تأليف الكتاب).

وآخر إشارة تاريخية لفرد من هذه الأسرة ذكرت في «تاريخ جهان آرا» للقاضي أحمد غفاري حين يتحدّث عن مناظرة دينية بين الأستاذ عبد الملك الشافعي وصدر جهان بخارى الحنفي وكيف قبح كلّ واحد منهما مذهب صاحبه، ممّا بعث السلطان الجايتو خدابنده (٧٠٣/ ١٣٠٤ ـ ٧١٦/ ١٣١٦) على اعتناق مذهب الشيعة الإمامية.

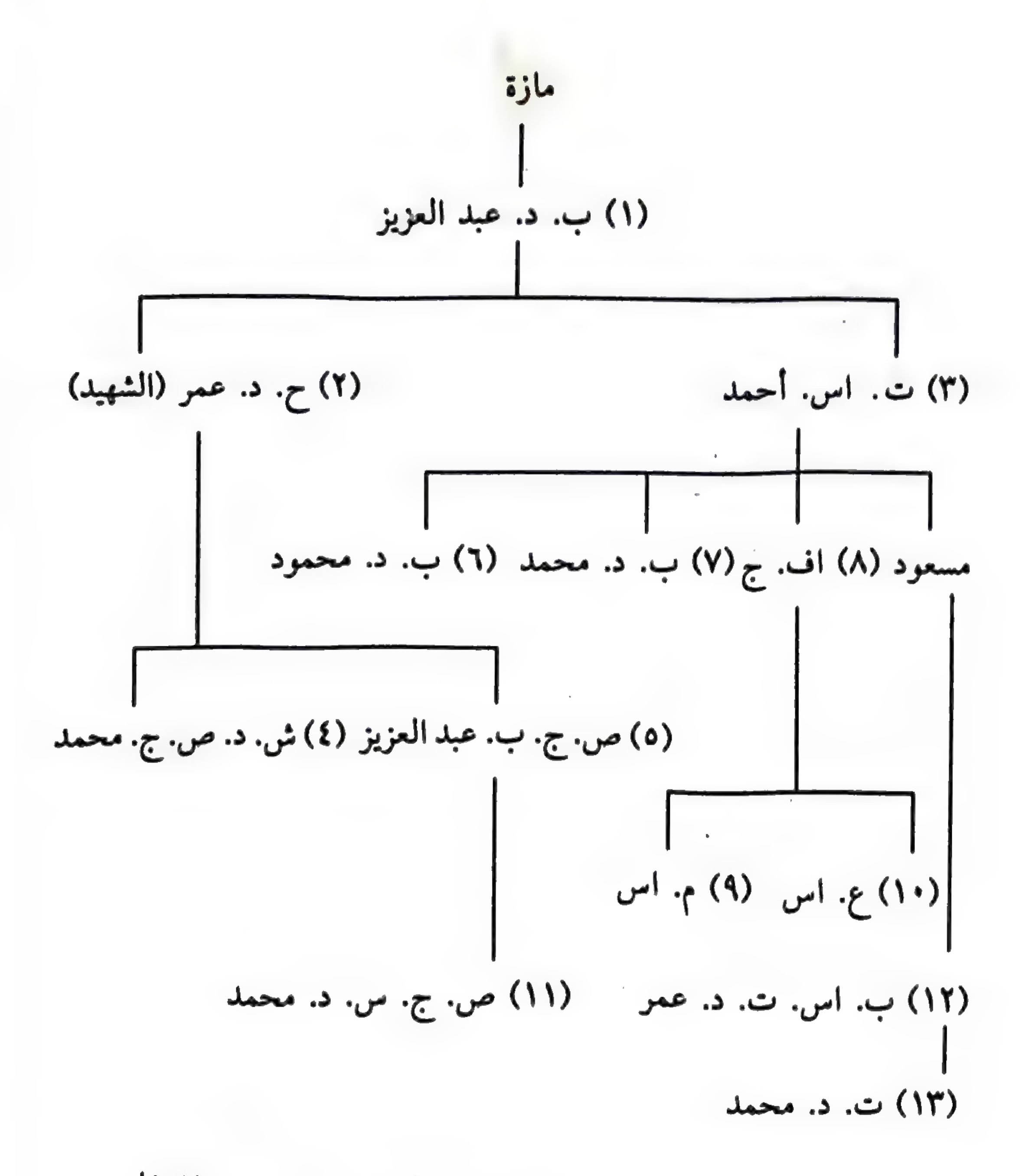
وقد استنتج القزويني من اسم صدر جهان وبخارى والمذهب الحنفي أنّ المقصود أحد آل برهان وأنّ هذه الأسرة ظلّت في بخارى وفي رياسة المذهب الحنفي بها حتّى عهد السلطان الجايتو.

هذا وقد أورد برون Browne (ص١١٢) جدولاً بنسب هذه الأسرة فآثرنا نقله:

---

(١) انظر ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٦٩ ـ ٧٠؛ لوسترانج: G. Le Strange Lands of Eastern Caliphate، ص٤٣٤، ويسمّيها العرب آمل أيضاً مثل مدينة مازندران المشهورة.

(٢) نشر القزويني (صاحب الحواشي) في مجموعة ب التذكارية .G.M.S، ج١، ص٨٨.



اس = إسلام — اف + افتخار

ب + برهان — ت = تاج

ج = هان — ح = حسام

د = دين — س = سيف

ش = شمس — ص = صدر

ع = عزيز — م = ملك

ن = نظام

(٢٨) بَرْسَخان مدينة في أقصى تركستان الشرقية على حدود خُتَن، وهي غير بَرسُخان التي يقول ياقوت إنّها قرية على فرسخين من بخارى[1].

(٢٩) خلط المصنف هنا بين إيلك خان وبُغَراخان فالأوّل هو الذي عاصر السلطان محمود. وبغراخان هو أوّل من ذكر اسمه في كتب التاريخ من ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية الأفراسيابية.

وابتداء هذه الأسرة ونسبها وتاريخ دخولها في الإسلام كلّ هذا غير معروف على وجه التحقيق. واسم بغراخان هو هارون بن سليمان فيما يقول ابن الأثير. أمّا ابن خلدون فذهب إلى أنّ اسمه هارون بن فرخان (قراخان؟)، وبغراخان لقب تركي أمّا لقبه الإسلامي الذي خلعته عليه دار الخلافة فيما يبدو فهو شهاب الدولة. وكان له كاشغر وبلاساغون وسائر بلاد تركستان الشرقية وكانت عاصمة ملكه بلاساغون. وقد حارب السامانيين كثيراً وأخيراً استولى على بخارى فلمّا نزل بها استوخمها فلحقه مرض ثقيل فانتقل عنها نحو بلاد الترك وتوفي في الطريق سنة ٣٨٣/ ٩٩٣ (ابن الأثير حوادث هذه السنة)، أي قبل ولاية محمود الغزنوي بخمس أو ست سنوات.

وقد خلفه ابن أخيه إيلك خان، أو ابن أخته أو أخوه كما يقول هورث.

وإيلك خان هذا هو الذي كان معاصراً للسلطان محمود، واسمه ناصر الحق نصر بن علي بن موسى بن سَتُق. وإيلك خان لقب تركي أمّا لقبه الإسلامي فهو شمس الدولة. وقد حكم ما وراء النهر عشرين سنة (٣٨٣/ ٩٩٣ ـ ٤٠٣/ ١٠١٣). وله نقود ضربت بين سنتي ٣٩٠

---

(١) ص ٤٨٩ .Le Strange: The Lands of Eastern Caliphate

و٤٠٠ في بخارى وخجند وفرغانة وأوزكند وصغانيان وسمرقند واوش وأيلق أي في المدن الرئيسية فيما وراء النهر وتركستان. وهو الذي قضى على سلطنة السامانيين في هذه البلاد وقاتل السلطان محمود للخلاف على تقسيم مملكة آل سامان، فاتفقا آخر الأمر على جعل ما وراء النهر له وجعل خراسان وغزنة لمحمود. واتفق المؤرخون على أنّه مات سنة ٤٠٣/١٠١٣[1].

(٣٠) محمد عبده. انظر ص ١٠١ من هذا الكتاب.

(١) يرى هورث Howoth احتمال وجوده على قيد الحياة حتّى سنة ٤٠٧/١٠١٧ وأيد رأيه بعدّة دلائل.

حواشي المقالة الثانية

(١) أحمد بن عبد الله الخجستاني: خجستان ناحية من جبال هراة من أعمال بادغيس (ياقوت وابن الأثير). وكان أحمد بن عبد الله أميراً للطاهرين. فحين قضت الدولة الصفارية على الدولة الطاهرية انضم إلى الصفاريين وبلغ عندهم مقاماً عالياً لحسن تدبيره وكفاءته، ثمّ استولى على أغلب بلاد خراسان، وحارب عمرو بن الليث الصفاري في نيسابور وهزمه، ثمّ قصد العراق. وقد صكّ الدراهم والدنانير باسمه. وقتل بيد غلمانه سنة ٢٦٨/ ٨٨٢[1]. وكانت مدّة غلبته ثماني سنوات (٢٦٠/ ٨٧٤ ـ ٢٦٨/ ٨٨٢).

(٢) جاء في «تاريخ گزيده[2]» أنّ الذي سمع هذين البيتين فجال بخاطره أن يكون أميراً هو سامان جد الملوك من هذه الأسرة. وهي رواية لا أصل لها. فقد كان سامان قبل المأمون المتوفى سنة ٢١٨/ ٨٣٣. ومن المستبعد أن يكون الشعر الفارسي في ذلك العصر قد بلغ هذا الحد من جودة الأسلوب والسبك. وكان حنظلة البادغيسي من شعراء آل طاهر، وأوّل هؤلاء، طاهر ذو اليمينين، كان معاصراً لأسد بن سامان. وبعبارة أخرى فإنّ سامان سابق على الطاهريين

---

(١) ابن الأثير، ج٧، ص٢٠٤ ـ ٢٧٤ وغيره من كتب التاريخ.

(٢) ص٢١ ـ ٢٢ من طبعة باريس ١٩٠٣، نشر Jules Gantin.

وكان حنظلة معاصراً لهم. فافتراض سماع سامان لأشعار حنظلة إن لم يكن غير ممكن فإنّه مستبعد كثيراً.

(٣) كَرُوخ مدينة على بُعد عشرة فراسخ من هراة. .. وحدها مقدار عشرين فرسخاً كلّها مشتبكة البساتين والمساجد والقرى والعمارة[١].

(٤) خَوَاف قصبة كبيرة من أعمال نيسابور بخراسان يتصل أحد جانبيها ببوشنج من أعمال هراة والآخر بزوزن يشتمل على مائتي قرية وفيها ثلاث مدن سنجان وسيراوند وخسروجرد[٢].

(٥) پشْت بلد بضواحي نيسابوري، قيل سمّيت كذلك لأنّها كالظهر لنيسابور، والظهر باللغة الفارسية يُقال له پشت. تشتمل على مائتين وست وعشرين قرية منها كندر التي منها الوزير أبو نصر الكندري[٣].

(٦) بيهق أصلها بالفارسية بيهه يعني الأحسن والأفضل والأجود. ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية. .. وكانت قصبتها أوّلاً خسروجرد ثمّ صارت سابزاور[٤].

(٧) الشعراء والكتّاب في الحكاية الأولى

السَّلامي، هو أبو علي السَّلامي البيهقي النيسابوري المتوفى سنة ٣٠٠/ ٩١٢ ـ ١٣. يقول عنه الثعالبي[٥] إنّه كاتب مؤلّف موفق التجويد

---

(١) معجم البلدان، ج٧، ص٢٤٧. طبعة مصر.

(٢) معجم البلدان، ج٣، ص٤٧٨.

(٣) معجم البلدان، ج١، ص١٨٥.

(٤) معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٥) يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٩ طبعة دمشق.

منخرط في سلك أبي بكر بن محتاج وابنه أبي علي. وله كتاب «التاريخ في أخبار ولاة خراسان» وكتاب «نتف الظرف» وكتاب «المصباح» وغيرها.

وقد نقل ابن خلكان كثيراً عن الكتاب الأوّل وخاصّة في ترجمته ليعقوب بن ليث الصفار.

ويقول عنه أبو الحسن علي بن زيد بن محمد الأوسي الأنصاري المعروف بابن فندق في كتاب «تاريخ بيهق»[1] إنّ له «كتاب الثأر» وإنّ من تصانيفه «تاريخ ولاة خراسان» وإنّ أبا بكر الخوارزمي كان تلميذه.

الگرگاني، ذكره نور الدين محمد عوفي[2] باسم أبو شريف أحمد بن علي المجلّدي الگرگاني، ونسب إليه البيتين نفسيهما.

الرُّودَكي (أو الرُّودَكي)، أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودَكي، وقد نقل القزويني عبارة السمعاني في كتابِهِ الأنساب لاختلاف الكتاب في نسب الشاعر وسنة وفاته[3]. الروذكي نسبة إلى رذوك وهي ناحية بسمرقند وبها قرية يُقال لها للح (كذا) وهذه القرية قطب روذك وهي

---

(١) باللغة الفارسية ومنه نسخة نفيسة في المتحف البريطاني بلندن (Or. 3587) وهو مؤلف سنة ٥٦٣/١١٦٧ ـ ٨. وقد طبع حديثاً في طهران بعناية الأستاذ أحمد بهمنيار.

(٢) لباب الألباب، ج١، ص١٣ ـ ١٤.

(٣) أنساب السمعاني: G. M. S (vol. xx), f. 262 a.

وقد كتب عن رودكي بالفارسية سعيد نفيسي «أحوال وأشعار رودكي»، كما كتب عنه، إتىEthé في Göttingen Nachrichten، سنة ١٨٧٣، ص٦٦٣ ـ ٧٤٢. وانظر برون Browne في «Hand-list of Muhammedan Manuscripts»، كمبردج ١٩٠٠، رقم ٧٠١، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

على فرسخين من سمرقند والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السائر ديوانه في بلاد العجم أبو عبد الله بن جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الروذكي الشاعر السمرقندي كان حسن الشعر متين القول قيل إنّه أوّل من قال الشعر الجيّد بالفارسية. وقال أبو سعد الإدريسي الحافظ أبو عبد الله الروذكي كان مقدّماً في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه... وكان أبو الفضل البلعمي وزير إسمعيل بن أحمد وإلى خراسان يقول ليس للروذكي في العرب والعجم نظير ومات برودك سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ ـ ١».

أبو العباس الرِبَنْجَني، اسمه الكامل فضل بن عباس وقد وردت ترجمته في لباب الألباب[١]. أمّا كلمة رِبَنْجَني فقد صحّحها العلّامة دي جويه De Geoje على هذا النحو. وهي نسبة إلى رِبَنْجَن مدينة في سُغد سمرقند جنوب نخر خانه سُغد[٢]. وقد ذكرها ياقوت مصحفة رَبِيخَن. وذكرها السمعاني[٣] أَرْبِنْجَي ورَبِنجِي، وقد لفت القزويني نظير برون Browne إلى أنّ الرِبَنْجَني ذُكر في كتاب «ثمار القلوب» للثعالبي[٤] حيث جاءت بعض أبيات (حرفت في الطبع) من قصيدة له أنشدها في الاحتفال بالسنة الحادية والثلاثين، والأخيرة، من حكم مولاه نصر الثاني بن أحمد الساماني (٣٠١/٩١٣ ـ ٣٣١/ ٩٤٢ ـ ٣).

---

(١) ج٢، ص٩.

(٢) لب الألباب في الأنساب للسيوطي ولوستراتج في كتابه الذي ذكرناه ص٤٦٨؟

(٣) الأنساب ورقات ٢٣ ب و٤٨ ب.

(٤) طبعة القاهرة، ص١٤٧.

أبو المَثَل البخاري، ذكره عوفي[1]، كما جاء ذكره في لغات أسدي[2].

---

(1) لباب الألباب، ج٢، ص٢٦.

(2) نشر Horn ص ٢٨. وقد ذكر القزويني أشعاراً لمنوچهري ليثبت قراءة اسم الشاعر ـ أبو المثل ـ على النحو الذي كتبه عليه، فقد جاء فيها اسم الشاعر مع شعراء آخرين. وأهم من أشارت إليهم أبيات منوچهري شهيد البلخي. والمراد به أبو الحسن شهيد بن الحسين البلخي الذي كان من كبار حكماء عصره، وقد غلبت فلسفته على شعره ولكنّه اشتهر بين المتكلمين بالفارسية بالشعر وحده، فأدّى ذلك إلى حجب شهرته في الفلسفة التي امتاز بها في حياته، مثله في ذلك كمثل عمر الخيام. وقد ترجم له عوفي في لباب الألباب (ج٢، ص٣ ـ ٥). وذكر بعض أشعاره وقد قال إنّه كان معاصراً لنصر بن أحمد بن إسمعيل الساماني (٣٠١ ـ ٣٣١). وذكره النديم في الفهرست (ص٢٩٩) فقال: وكان في زمان الرازي (محمد بن زكريا الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٩٢٣/٣١١ رجل يعرف بشهيد بن الحسين البلخي ويكنى أبا الحسن يجري مجرى فلسفته في العلم، ولهذا الرجل كتب مصنّفه وبينه وبين الرازي مناظرات، ولكلّ منهما تفوّق على صاحبه». وبعد ذلك يذكر مصنّفات الرازي «كتاب نقضه على شهيد البلخي فيما ناقضه من اللذة، كتاب الرد على شهيد في تثبيت المعاد».
ويقول ياقوت في معجم البلدان، في ذيل جهوذانك «جهوذانك من قرى بلخ منها كان أبو شهيد ابن الحسين الورّاق المتكلم ولد هو ببلخ لأنّ أباه انتقل إلى بلخ وكان أبو شهيد أديباً شاعراً متكلماً له فضل و كان في عصر أبي زياد الكعبي، وقد ذكرته في الأدباء». وقريب من اليقين، كما يقول القزويني، أنّ المقصود بهذا هو شهيد بن الحسين البلخي. وأمّا كلمة «أبو» فهي إمّا زائدة وإمّا أن أصل العبارة أبو [الحسن] شهيد بن الحسين.
ويقول الثعالبي في يتيمة الدهر، في ترجمة محمد بن موسى الحدادي (ج٤، ص٢١ طبعة دمشق): «كان يُقال أخرجت بلخ أربعة من الأفراد أبا القاسم الكعبي في علم الكلام وأبا زيد البلخي في البلاغة وشهيد بن الحسين في شعر الفارسية ومحمد بن موسى في شعر العربية». (صحيح القزويني النص المطبوع وفقاً للنسخة الخطية من الكتاب في المكتبة الأهلية بباريس، ذلك لأنّ النص

الجويباري، هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد البخاري الجويباري[1]. وجويبار اسم لعدّة مواضع ولكن يظهر من نسبة أبي إسحق (البخاري الجويباري) أن جويبار هنا اسم موضع من نواحي بخارى.

الآغجي، هو الأمير أبو الحسن علي بن إلياس الآغاجي البخاري من أمراء البلاط الساماني. وقد مدحه الدقيقي الذي كان معاصراً لنوح بن منصور ثامن ملوك آل سامان (٢٦٦/٩٧٦ ـ ٣٨٧/ ٩٩٧)[2]. وقد قال عنه الثعالبي في تتمة اليتيمة[3]: «أبو الحسن الآغاجي هو أشهر شعراء الفارسية وفرسانهم من المجرة وله ديوان شعر سائر في بلاد خراسان وربّما ترجم شعر نفسه بالعربية كقوله:

إن شئت تعلم في الآداب منزلتي
وأنّني قد غذّاني العز والنعم

فالطِرف والقوس والأوهاق تشهد لي
والسيف والبرد والشطرنج والقلم

وقوله في بلخ:

وبلدة قد ركب اسم لها — من أحرف البخل وهي بلخ
من والعيش فيها كاسمها مُبَدّلاً — من بائها تاءً وذا تلخ

المطبوع ذكر سهل بن الحسن بدلاً من شهيد بن الحسين).

وقد رثاه رودكي، ومن هذا يبدو أنه توفي قبل سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ ـ ٤١ لأنّ رودكي توفي فيها.

(١) لباب الألباب، ج٢، ص١١؛ لغات أسدي ص١٧.

(٢) لباب الألباب، ج١، ص٣١ ـ ٣٢؛ لغات أسدي ص١٧.

(٣) نشر عباس إقبال، ج٢، ص١١٤، طبعة طهران ١٣٥٣ (١٩٣٤م).

وآغاجي كلمة تركية بمعنى الحاجب وهو الخادم الذي يحمل الرسائل بين الملك وسائر الأعيان[1].

الطحاوي، غير معروف وقد ذخب برون Browne (ص١١٥ هامش) إلى أنّه قد يكون المقصود به الطخاري الذي جاء ذكره في «مجمع الفصحا» كمعاصر للخَبّازي.

الخبّازي، ذكره عوفي[2] بين شعراء آل سامان من غير أن يتحدّث عنه خاصّة. ويذكر صابح مجمع الفصحا[3] أنّه كان معاصراً للرودكي والكسائي ويذكر أنّه مات سنة ٣٤٢/٩٥٣ ـ ٤ من غير أن يذكر المصدر الذي رجع إليه في هذا.

الكسائي، أبو الحسن[4]، من مشاهير شعراء القرن الرابع الهجري ولد يوم الأربعاء ٢٦ شوال سنة ٣٤١ (١٦ مارس ٩٥٣) وكان بلغ الخمسين من عمره حين كتب يحدّد تاريخ ميلاده[*]. أي أنّه ولد في عهد الأمير نوح بن نصر الساماني (٣٣١ ـ ٣٤٣). وقد لحق سلطنة محمود الغزنوي.

البهرامي[5]، أبو الحسن علي البهرامي السرخسي، كان ينظّم الشعر ويتقن فن العروض والقافية، وله في هذا العلم تصانيف، منها

---

(١) حواشي لباب الألباب، ج١، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.
(٢) لباب الألباب، ج٢، ص٢٧.
(٣) ج١، ص٩٩.
(٤) يسمّيه مجمع الفصحا «أبو إسحق مجد الدين»، ج١، ص٤٨٢.
(*) انظر قصيدته في لباب الألباب، ج٢، ص٣٨ ـ ٣٩.
(٥) لباب الألباب، ج٣، ص٥٥ ـ ٥٧؛ لغات أسدي، ص٢١؛ مجمع الفصحا، ج١، ص١٧٣.

«غاية العروضَيْن» و«كنز القافية» والرسالة المسمّاة «خَجَسته». وقد نقل عنه شمس الدين محمد بن القيس في كتاب «المعجم في معايير أشعار العجم»[1]. وذكر صاحب مجمع الفصحا أنّه كان معاصراً لسبكتگين مات سنة ٣٧٧/ ٩٩٧ (ج١، ص١٧٣).

الزينتي، العلوي من مشاهير شعراء السلطان محمود وولده مسعود ولكن ليس لدينا شيء من شعره. وقد ذكره أبو الفضل البيهقي مرّتين في كتابه «تاريخ مسعود»[2].

بزرجمهر القايني، هو الأمير بزرجمهر أبو منصور قسيم بن إبْراهيم القايني، كان معاصراً للسلطان محمود وولده مسعود. وقد قال عنه الثعالبي[3]: أبو منصور قسيم بن إبراهيم القائني الملقب ببزرجمهر شاعر مفلق مبدع باللسانين من شعراء السلطان الأجل (مسعود ابن محمود الغزنوي) أدام الله تعالى ملكه، يقول في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع ما تفرّد بمعناه وأحسن كلّ الإحسان في التشبيه البديع حيث قال:

لـقـد حـال دون الـورد بـردٌ مـطـاولٌ

كـأنّ سـعـوداً غُـيـبـت فـي مـنـاحـس

وحـجّـب فـي الـثـلـج الـربـيـع وحـسـنـه

كـمـا اكـتـنَّ فـي بـيـضٍ فـراخ الـطـواوس

---

(١) المجلد العاشر من مجموعة جب .GMS

(٢) تاريخ بيهقي، ص١٢٥، ٢٧٦ طهران؛ لباب الألباب، ج٢، ص٣٩ ـ ٤٠؛ لغات أسدي، ص٢١.

(٣) تتمة اليتيمة، ج٢، ص٤٥.

وله في الهجاء البديع:

بخلتم فودّ المشركون لو انهم   قدّوركم[1] كيلا تمسّهم النار

وله أيضاً:

رأيتك تبغي بسوء الصنيع   ثناء جميلاً مسوقاً إليكا

وتغسل قبل الضيوف اليدين   كأنّ: تغسل منهم يديكا

المظفري، المقصود به المظفري الپنجدهي[2]، نسبة إلى قرية پنج ديه من قرى مروالرود وقد خلط پول هورن Paul Horn في نشره للغات أسجي بين هذا الشاعر وسمي له توفي سنة ٧٢٨/ ١٣٢٧ ـ ٨.

المنشوري، أبو سعيد أحمد بن محمد المنشوري السمرقندي من شعراء السلطان محمود ويقول عنه رشيد الدين الوطواط فيكتابه «حدائق السحر» أنّه كان بارعاً في نظم الشعر الملون[3].

المسعودي، من شعراء السلطان مسعود الغزنوي، وقد غضب عليه لأنّه حذّره من السلاجقة[4].

القَصَارامي، كتب اسمه هكذا في أغلب النسخ، وفي لغات أسدي (ص٢٧) ولا نعلم لأي شيء هذه النسبة، ولا كفية ضبط

---

(١) هذا هو الظاهر الملائم للمعنى، كما يقول القزويني الذي نقل عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس وفي الأصل قدورهم وكذلك في نشر إقبال (ص٤٥).

(٢) لباب الألباب، ج٢، ص٦٣ ـ ٦٥، وبرون Browne ص١١٦.

(٣) لباب الألباب، ج٢، ص٤٤ ـ ٤٦.

(٤) لباب الألباب، ج٢، ص٦٣. وقد ذكره صاحب «جهار مقاله» وصاحب «مجمع الفصحا» (رضا قولي خان) باسم المسعودي، وأمّا لباب الألباب وحدائق السحر لرشيد الدين الوطواط وتاريخ بيهقي وهفت إقليم فقد ذكرته بغير ياء النسبة والقولان صحيحان، فإنّ اسمه مسعود، وتخلصه المسعودي نسبة إلى السلطان مسعود الغزنوي. وانظر تاريخ مسعودي لأبي الفضل البيهقي ص٦٠١.

الاسم. ويظهر من لغات أسدي أنّه كان من مداحي السلطان أبي أحمد محمد بن محمود الغزنوي.

أبو حنيف الإسكافي[1]، من شعراء السلطان إبراهيم بن مسعود الغزنوي (٤٥١/١٠٥٩ ـ ٤٩٢/١٠٩٩) ـ تاريخ بيهقي، طهران ص٢٧٦ ـ ٢٨١، ٣٨٧ ـ ٣٩١، ٦٣٣ ـ ٦٣٦ ـ وقد اشتهر بعد سنة ٤٥٠/١٠٥٨، أمّا سنة وفاته فغير معلومة. وقد ذكر عوفي في لباب الألباب أنّه من شعراء السلطان سنجر (٥١١/١١١٧ ـ ٥٥٢/١١٥٧) وهو مستبعد لأنّه يوجب أن يكون الإسكافي شاعراً مدّة ستين أو سبعين سنة وهو أمر غير مألوف.

ومن نوادر سهو صاحب مجمع الفصحا أنّه جعل أبا حنيفة الإسكافي وأبا القاسم الإسكافي كاتب آل سامان رجلاً واحجاً، ونسب إلى الأوّل القصة التي ذكرها مصنّف «چهار مقاله» (ص١٣ ـ ١٥) وجعله كاتباً لا لپتگين المتوفى سنة ٣٥٤/٩٦٥، ولنوح بن منصور الموفى سنة ٣٨٧/٩٩٧، وللسلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة ٤٣٣/١٠٤١. ثمّ إنّه مع تحديده وفاة أبي حنيفة سنة ٣٨٦/٩٩٦ (وقلّده في هذا پول هورن P. Horn في لغات أسدي) جعله من شعراء السلطان إبراهيم الغزنوي الذي حكم من سنة ٤٥١/١٠٥٩ حتّى ٤٩٢/١٠٩٨.

الراشدي، لم يذكر هذا الشاعر في أي كتاب من كتب التذاكر والتاريخ إلّا في «چهار مقاله». والظاهر أنّ أشعاره ضاعت. ولكن

---

(١) يذكره «چهار مقاله» و«لباب الألباب» بغير ياء النسبة. ولكن تاريخ بيهقي وجميع كتب التذاكر تذكره بياء النسبة وبهذا الشكل اشتهر، وهو أقرب إلى الصواب لأنّ البيهقي كان معاصراً وصديقاً له فقوله مقدّم على قول غيره.

يفهم من بعض قصائد مسعود بن سعد بن سلمان أنّ الراشدي كان من شعراء بلاط السلطان أبي المظفر ظهير الدولة رضي الدين إبراهيم بن مسعود بن محمود الغزنوي. وقد ذكر القزويني في حواشيه قصيدتين لمسعود بن سعد بن سلمان ذكر فيهما هذا الشاعر الذي كان ينافسه. ثمّ نبّه إلى ما وقع فيه بعض الكتاب من الخلط بين الراشدي والرشيدي السمرقندي الذي كان من شعراء هذا العصر أيضاً (الحواشي ص١٤٠ ـ ١٤٢).

أبو الفرج الروني، من مشاهير شعراء الغزنويين، وأغلب قصائده في مدح السلطان إبراهيم بن مسعود وولده مسعود بن إبرهيم (٤٩٢/ ١٠٩٩ ـ ٥٠٨/ ١١١٤). وعلى هذا فقد عاش بعد سنة ٤٩٢ وهي سنة جلوس السلطان مسعود هذا. وقد أخطأ تقي الدين كاشي فيما ذهب إليه من أنّه توفي سنة ٤٨٩/١٠٩٦. والروني نسبة إلى رونة من توابع لاهور كما جاء في لباب الألباب (ج٢، ص٢٤١)، وقد ذكره أمين أحمد الرازي في كتابه هفت إقليم تحت فصل شعراء لاهور. أمّا صاحب تاريخ گزيده (حمد الله المستوفي) فقد ذهب إلى أنّ رونة من قرى خاوران خراسان، ويقول صاحب مجمع الفصحا إنّها من قرى نيسابور والقولان خطأ.

مسعود بن سعد بن سلمان: هو مسعود بن سعد بن سلمان وقد أغفل بعض الكتّاب كلمة ابن بين اسم الابن وأبيه كما يقولون في مسعود سبكتگين وناصر خسرو. أصل أسرته من همدان ولكنّه هو ولد ونشأ في لاهور وليس كما يزعم بعض الكتّاب أنّه ولد في جرجان أو همدان أو غزنة. وقد اشتمل ديوان شعره على مدح خمسة من السلاطين الغزنوية أوّلهم السلطان أبو المظفر إبراهيم بن مسعود الذي حكم من ٤٤١ ـ ٤٩٢هـ. والثاني السلطان علاء الدولة مسعود بن

إبراهيم (٤٩٢/١٠٩٩ ـ ٥٠٨/١١١٤). والثالث عضد الدولة شيرزاد ابن مسعود بن إبراهيم (٥٠٨/١١١٤ ـ ٥٠٩/١١١٥). والرابع أبو الملوك إرسلان بن مسعود ابن إبراهيم (٥٠٩/١١١٥ ـ ٥١١/١١١٧). والخامس السلطان الغازي يمين الدولة بهرامشاه ابن مسعود بن إبراهيم (٥١١/١١١٧ ـ ٥٢٢/١١٢٨). وكثير من قصائده في مدح سيف الدولة أبي القاسم محمود بن إبراهيم المذكور والذي كان والياً للهندوستان من قبل والده، وقد ارتباط به مسعود وأصبح من ملازميه وحضر جميع غزواته وحمل السيف في ركابه. ويستفاد من قصيدة لمسعود أنّ هذا الأمير ولّى الهندوستان سنة ٤٦٩/١٠٧٦ (تى وسين وسه جيم، ص١٤٥ من الحواشي).

وهذا التاريخ أقدم ما يذكر مسعود في ديوانه، ويستفاد منه أنّ ابتداء ظهوره ورقيه كان في حدود سنة ٤٧٠/١٠٧٧ وقد عاش حتّى أوائل سلطنة بهرامشاه وتوفي على أصحّ الأقوال ٥١٥/١١٢١ ـ ٢. أمّا مولده فكان ما بين سنتي ٤٣٨/١٠٤٦ و٤٤٠/١١٤٨ ـ ٩.

وقد حدث، كما سيقول المصنف، في حدود سنة ٤٨٠/١٠٧٨ أنّ شك السلطان إبراهيم في سلوك ولده سيف الدولة محمود واتهمه بأنّه يبغي الالتجاء إلى ملكشاه السلجوقي بالعراق، فلقي مسعود من الحبس والإيذاء مثل ما لقي سيّده وأمضى عشر سنوات سجيناً، منها سبع في قلعتي سو ودهك وثلاث في قلعة ناي.

وبعد هذه السنوات العشر شفع له أبو القاسم، من خاصة وأركان دولة السلطان إبراهيم، فأفرج عنه. فذهب إلى الهند حيث كان يدير أملاك أبيه. وفي أثناء ذلك مات السلطان إبراهيم فخلفه ولده السلطان مسعود سنة ٩٤٢/١٠٩٩ الذي عهد بولاية الهندوستان إلى ولده الأمير عضد الدولة شيرزاد وبعث معه قوام الملك أبا نصر هبة الله مستشاراً

وقائداً. وكان بين هذا القائد ومسعود مودة قديمة فعيّنه مأموراً لحكومة چالندر من ملحقات لاهور.

وبعد قليل من هذا التعيين فقد أبو نصر مكانته وقبض عليه، وعزل مسعود لأنّه من أتباعه وسجن ثمان سنوات أو تسع في قلعة مَرَنج. وفي سنة ١١٠٦/٥٠٠ شفع له ثقة الملك طاهر بن علي بن مشكان فأفرج عنه وقد كبر واعتلّ وضعف. فلقد أمضى زهرة شبابه في قلل الجبال وأعماق الوهاد في السجون المظلمة، فآثر اعتزال الديوان وأمضى بقية الأجل في عزلة حتّى توفي وقد قارب الثمانين.

ويعترف فحول شعراء عصره بعظمته وفضله وكانوا يذهبون إليه ويظهرون ولاءهم، مثل عثمان المختاري الغزنوي ومعزى وسنائي.

وأوّل من جمع ديوان مسعود سنائي الغزنوي وقد أدرج معه، سهواً، بعض أشعار لغيره فلفته إلى هذا ثقة الملك طاهر بن علي فأرسل إلى مسعود معتذراً.

محمد ناصر، المراد به جمال الدين محمد بن ناصر العلوي الغزنوي، وكان من مشاهير شعراء بلاط يمين الدولة بهرامشاه الغزنوي. وكذلك كان أخوه سيّد حسن بن ناصر[1] (لباب الألباب، ج٢، ص٢٦٧ ـ ٢٧٦).

شاه بورجا، شهاب الدين شاه علي أبو رجا الغزنوي من معاصري السلطان بهرامشاه (لباب الألباب، ج٢، ص٢٧٦ ـ ٢٨٢).

أحمد خلف، قد يكون المقصود ابن «خلف بن أحمد» أمير سيستان، وهو احتمال ضعيف، فقد كانت كنية هذا الوالي «أبو أحمد». ولكن لا تذكر كتب التاريخ أنّ له ولداً بهذا الاسم.

---

(١)

عثمان المختاري، هو عثمان بن محمد الغزنوي المعروف بالمختاري المتوفى سنة ٥٤٤/ ١١٥٠ أو ٥٥٤/ ١١٥٩. له ديوان مدح فيه أربعة من ملوك عصره هم أبو الملوك إرسلان بن مسعود وأخاه بهرامشاه، وإرسلان شاه بن كرمانشاه بن قاورد من ملوك سلاجقة كرمان (٤٩٤/ ١١٠٠ ـ ٥٣٦/ ١١٠١) والرابع إرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بن بغراخان ابن إبراهيم طفغاج خان بن إيلك نصر إرسلان بن علي بن موسى بن ستق من الملوك الترك خانية ما وراء النهر (٤٩٥/ ١١٠١ ـ ٥٢٤/ ١١٣٠).

وله قصائد يمدح بها ملكاً اسمه عضد الدولة ولا يُعرف من هو. وقد ذهب صاحب مجمع الفصا إلى أنّه عضد الدولة الديلمي وهو سهو واضح فقد توفي هذا سنة ٣٧٢/ ٩٨٢ أي ما يقرب من ١٨٠ سنة قبل وفاة المختاري. وقد وضع صاحب مجمع الفصحا اسم مغيث الدين فناخسرو، وهو اسم عضد الدولة الديلمي، بدلاً من معين الدين بن خسرو الذي مدحه المختاري.

مجدود السنائي، هو أبو المجد مجدود بن آدم السنائي الغزنوي العارف الشاعر المشهور، صاحب «حديقة الحقيقة» وله ديوان كبير. توفي على أصحّ الأقوال سنة ٥٤٥/ ١١٥٠ ـ ١ ويقول جامي في «نفحات الأنس» إنّ البعض يجعل وفاته سنة ٥٢٥/ ١١٣١ وهذا بعيد عن الصواب لأنّ سنائي رثي المعزّي الذي قتل خطأ بسيف السلطان سنجر سنة ٥٤٢/ ١١٤٧ ـ ٨[1].

نجيبي الفرغاني، هو كما يقول المصنف (ص٥٣) من شعراء بلاط خضر خان بن طفغاج خان بن إبراهيم من ملوك ما وراء النهر

---

(١) طبع ديوانه حديثاً في طهران.

الخانية. وقد ولي خضر خان العرش سنة ١٠٧٩/٤٧٢ وتوفي بعد قليل.

عمعق البخاري، شهاب الدين أمير الشعراء في بلاط خضر خان، ويقول تقي الدين الكاشاني إنّه توفي سنة ١١٤٨/٥٤٣[1].

رشيدي السمرقندي، هو أبو محمد عبد الله أو عبد السيد الرشيدي السمرقندي، من مشاهير شعراء بلاط خضر خان. كانت له مناظرات ومطارحات مع عمع ومسعود بن سعد سلمان. وذكره، صاحب مجمع الفصحا باسم «أرشدي» وليس في الفارسية شاعر بهذا الاسم.

نجار الساغرجي، هو أيضاً من شعراء بلاط خضر خان، وساغرج من قرى صغد على خمسة فراسخ من سمرقند (ياقوت).

علي بانيدي وسر درغويش، هما أيضاً من شعراء بلاط خضر خان. وقد جاء في كتاب «ميزان الأفكار في شرح معيار الأشعار» وهو رسالة في العروض للأستاذ نصير الدين الطوسي أنّ كلمة درويش تنطق في بعض بلاد إيران درغويش، ويغلب أن تكون كلمة درغويش هي درويش.

الجوهري، أبو المحامد محمود بن عمر الجوهري الصائغ الهروي، عاصر فَرُّخزاد بن مسعود بن محمود الغزنوي الذي حكم من ١٠٥٢/٤٤٤ ـ ١٠٥٩/٤٥١[2].

الشطرنجي، الدهقان علي الشطرنجي السمرقندي من مشاهير

---

(١) انظر لباب الألباب، ج٢، ص١٨١ ـ ١٩١.

(٢) لباب الألباب، ج٢، ص١١٠ ـ ١١٧.

شعراء ما وراء النهر[1]. ويقول صاحب مجمع الفصحا إنّه تلميذ سوزنين وإنّ لهذا قصائد في مدحه، وكان وفاة سوزني في رأي تقي الدين الكاشاني، سنة ٥٦٩/ ١١٧٣ ـ ٤.

المنطقي، منصور بن علي المنطقي الرازي من شعراء الصاحب بن عباد[2]، وقد استشهد بأشعاره رشيد الدين الوطواط في كتابه حدائق السحر.

كيا الغضائري، أبو زيد محمد بن علي الغضائري الرازي من مشاهير الشعراء ومن معاصري العنصري. ويقول صاحب مجمع الفصحا أنّه مات سنة ٤٢٦/ ١٠٣٤ ـ ٥. والضغائري معناه صانع القصعة الكبيرة، والغَضار كسحاب الطين اللازب، والخزف الأخضر يحمل لدفع العين[3].

بُنْدار الرازي، بضم الباء العربية أو بكسر ال پاء الفارسية من معاصري الصاحب بن عباد ومجد الدولة الديلمي. وإذاً فقد ازدهرت حياته بين سنتي ٣٨٧/ ٩٩٧ و٤٢٠/١٠٢٩. وله من الأشعار «الپهلويات» وهي أشعار باللهجات المختلفة كالمازندراني واللوري والكاشي[4].

ويرى القزويني أنّ رواية مجمع الفصحا التي تجعل موته سنة ٤٠١/ ١٠١٠ خطأ.

---

(١) لباب الألباب، ج٢، ص١٩٩ ـ ٢٠٧.

(٢) لباب الألباب، ج٢، ص١٦ ـ ١٨.

(٣) أقرب الموارد مادة غضر.

(٤) انظر تذكرة الشعرا نشر برون Browne، ص٤٢ ـ ٤٣؛ مجالس المؤمنين، طهران سنة ١٢٦٨؛ تاريخ گزيده GMS؛ معجم شمس قيس، GMS ص١٤٥ و١٤٦.

فرخي الگرگاني، يذكر هكذا في جميع النسخ ويحتمل أن يكون المقصود فخر الدين أسعد الگرگاني صاحب المثنوي المعروف «ويس ورامين»، وأنّ كلمة فرخي قد وضعت سهواً مكان فخري. لامعي الدِهِستاني، أبو الحسن محمد بن إسماعيل اللامعي الگرگاني الدهستاني من شعراء السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك الطوسي، وكان معاصراً للبرهاني والد المعزى.

جعفر الهمداني، كان من أصدقاء بابا طاهر ومعاصراً لطغرل بيك[1].

درفيروز الفخري، جاء في كتاب «محاسن أصفهان» لمفضل بن سعد بن الحسين المافرُّوخي، المؤلف في أواسط القرن الخامس الهجري، ضمن تعداد شعراء أصفهان «ومن شعراء الفارسية [العصريين] أبو الفضل درفيروز الفخري.

البرهاني، أمير الشعراء عبد الملك البرهاني النيسابوري والد المعزى. توفي بقزوين في أوائل سلطنة ملكشاه بن الب إرسلان السلجوقي (٤٦٥/ ١٠٧٢ ـ ٤٨٥/ ١٠٩٢ ـ ٣)[2].

المعزى، كانت وفاته على أصح الأقوال سنة ٥٤٢/١١٤٧ ـ ٨، قُتل خطأً بسيف السلطان سنجر[3].

أبو المعالي الرازي، دِهْخُدا أبو المعالي الرازي، مدح السلطان غياث الدين مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (٥٢٧/١١٣٣ ـ

---

(١) Browne: Literay History of Persia، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) انظر هنا ص٤٩ من الترجمة العربية، لباب الألباب، ج٢، ص٦٨، حيث جاء سهواً أبو الحسن «بهرامي» مكان برهاني.

(٣) انظر هنا ص٤٨ ـ ٥١.

٥٤٧/ ١١٥٢)، ويقول صاحب مجمع الفصحا إنّه مات سنة ٥٤١/ ١١٤٦ ـ ٧[1].

العميد كمالي، الأمير العميد كمال الدين المعروف بكمال البخاري من نماء السلطان سنجر السلجوقي، وكان ماهراً في الغناء والعزف. (لباب الألباب، ج١، ص٨٦ ـ ٩١).

الشهابي: الظاهر أنّ المراد به شهاب الدين أحمد بن المؤيد النسفي السمرقندي (لباب الألباب، ج٢، ص٣٦٢ ـ ٣٦٧). وقد ذكر له مجمع الفصحا بعض القصائد في مدح ركن الدين قِلِج طَمْغَاج خان مسعود من ملوك الترك الخانية فيما وراء النهر، وقد حكم من سنة ٤٨٨/ ١٠٩٥ ـ ٤٩٤/ ١١٠١.

القمري الگرگاني، أبو القاسم زياد بن محمد القمري الگرگاني، كان معاصراً لشمس المعالي قابوس بن وشمگير المتوفى سنة ٤٠٣/ ١٠١٢ ـ ١٣ (لباب الألباب، ج٢، ص١٩ ـ ٢٠).

رافعي النيسابوري، لم يرد ذكره فيما نعلم إلّا في مجمع الفصحا، حيث ترجم له وقال إنّه كان معاصراً للسلطان محمود الغزنوي (٣٣٨/ ٩٩٨ ـ ٤٢١/ ١٠٣٠).

كفائي گنجه وكوسه الفالي وپوركله وأبو القاسم الرفيعي وأبو بكر الجوهري وعلي الصوفي، لا يُعرف عنهم شيء.

(٨) ثأر السلطان علاء الدين حسين جهانسوز: علاء الدنيا والدين هو السلطان علاء الدين الغوري المعروف بجهانسوز. أمّا الأميران شهيد والملك حميد فهما أخواه قطب الدين محمد بن عز الدين حسين المعروف بملك الجبال وأخوه سيف الدين سوري.

---

(١) لباب الألباب، ج٢، ص٢٢٨ ـ ٢٣٦.

وكانت فيرزكوه، قصبة ممالك الغور، مقرّ حكم قطب الدين محمد. وقد تشاحن مع إخوته فغضب وولّى وجهه شطر غزنين، حيث أكرم بهرامشاه الغزنوي وفادته. ولكن الوشاة أوغروا صدر الغزنوي عليه بعد حين وسعوا فيه سعاية بأنّه يبذل الأموال ليثير الناس عليه. فلم يكن من بهرامشاه إلّا أن أمر بدسّ السم في طعامه فقتله. وهذا هو ابتداء العداوة بين أسرتي الغزنويين والغوريين.

فلمّا بلغ الخبر مسامع أخيه سيف الدين سوري استشاط غضباً، وأعدّ جيشاً عظيماً وسار نحو غزنين طالباً الثأر لأخيه الشهيد. فلمّا عرف بهرامشاه قوّة خصمه ولي منه فراراً إلى الهندوستان، ودخل سيف الدين غزنين فرقي عرشها ثمّ سرح جيشه. وأبل الشتاء وسدّت الثلوج الطرق إلى بلاد الغور واشتدّ البرد، وأصبح من المتعذّر إرسال نجدة إلى سيف الدين من بلاده، فبعث أهل غزنين خفية إلى بهرامشاه ليقبل إلى عاصمة ملكه وينتزعها من خصمه، فأقبل وأوقع بسوري ورجاله وقتلهم شر قتلة، وكان هذا سنة ٥٤٤/١١٤٩ ـ ٥٠.

وعلم السلطان علاء الدين بما جرى لأخيه فحنق على الغزنويين وأعدّ العدّة لغزو غزنين، والتقى ثلاث مرّات ببهرامشاه فهزمه فيها جميعاً وألجأه إلى الفرار إلى الهندوستان. واستولى علاء الدين على غزنين وأمر بحرقها وقتل أهلها وسبي نسائها سبعة أيام بلياليها، ثمّ أمر بنبش قبور الملوك الغزنويين، وإحراق ما فيها من جثث، عدا قبور السلاطين محمود ومسعود وإبراهيم. أمّا هو فقد جلس للهو طوال هذا الأسبوع. وفي اليوم الثامن أمر بوقف القتل والإغارة وإخماد الحريق. ثمّ أنشد شعراً يمدح فيه نفسه وأمر المغنين بغنائه.

وأمضى بغزنين أسبوعاً آخر جلس فيه للعزاء في أخويه. ثمّ نقل جثتيهما إلى غور، وخرّب في طريقه القصور والعمارات والأبنية التي

شيّدها محمود الغزنوي، والتي لم يكن لها مثيل: وحين بلغ فيرزكوه وهدأ باله بانتقامه لأخويه أنشد شعراً وأمر المغنين بتوقيعه، ثمّ جلس للهو والطرب.

وقد جرت هذه الحوادث سنة ٥٤٥/ ١١٥٠ ـ ٥١ وهي سنة تولية السلطان علاء الدين أو في السنة التالية لتوليته أي ٥٤٦. ذلك لأنّ القاضي منهاج الدين عثمان بن سراج الدين محمد صاحب «طبقات ناصري»[1]، والذي كان معاصراً للسلاطين الغورية يقول إنّ السلطان علاء الدين، بعد فتح غزنين، أخذ يتحدّى السلطان سنجر، فحاربه هذا وغلبه وأسره، واتفق الكتاب، ومنهم مصنف چهار مقاله الذي كان ملازماً للسلطان علاء الدين في هذه الواقعة على أنّ أسره كان سنة ٥٤٧/ ١١٥٢ ـ ٣.

(٩) نهرموليان: جاء في كتاب «تاريخ بخارى» لأبي بكر محمد بن جعفر النرشخي، تحت عنوان ذكر موليان ووصفه ما ترجمته:

«كانت ضياع نهرموليان قديماً، من أملاك طغشاده؛ وكان قد أعطي كلّ واحد من أبنائه وأحفاده حصّة منها. وقد اشترى الأمير

---

(١) يقول برون Browne (ص١٢٠) إنّ المصدر الرئيسي لتاريخ ملوك الغور هو هذا الكتاب (ولد صاحبه سنة ٥٨٩/ ١١٩٣، وعاش إلى ما بعد سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠) وقد طبع الكتاب في مجموعة Bibliotheca Indica وتعتبر الترجمة الإنكليزية التي كتبها ررتي Raverty والتي طبعت في جزءين بلندن سنة ١٨٨١ أكثر قيمة من الأصل لما احتوت عليه من مقارنات ورجوع إلى مخطوطات وملاحظات تاريخية وجغرافية. وقد اختصر الفصول الستة الأولى (وعدد فصوله ثلاثة وعشرون) وكلن ليس هذا ممّا يقلّل من أهمية الترجمة إذ أنّ ما بهذه الفصول جدير بالدراسة في مصادر عربية أكثر قدماً.

إسمعيل الساماني هذه الضياع من حسن بن محمد بن طالوت سرهنك المستعين بن المعتصم (٢٤٨ ـ ٢٥١)، وبنى الأمير إسمعيل بحوض النهر القصور والبساتين ووقف أكثرها على الموالي، وهي لا تزال وقفاً للآن. فقد كان شديد الاهتمام دائم العطف على هؤلاء الموالي، حتّى إذا كان ينظر ذات يوم إلى نهر موليان من قلعة بخارى. وكان سيماء الكبير، مولى أبيه، واقفاً أمامه وكان يحبّه حبّاً جمّاً ويقربه، قال الأمير: ألا يهيىء الله لي الأسباب لأشتري هذه الضياع لكم ويمدّ في أجلى لأراها في حوزتكم لأنّها أقوم ضياع بخارى وأجملها وأطيبها هواء. فاستجاب الله دعاءه واشترى كلّ ما طلب وأعطاه لمواليه، فسمّيت الشياع «جوى موليان»، وأطلق عليها العامّة «جوى موليان».

وكلمة موليان جمع شاذ، فيما يبدو، للجمع العربي لكلمة مولى، موالي[1].

(١٠) زين الملك أبو سعد هندو بن محمد بن هندو الأصفهاني، من مستوفى ديوان السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي. وقد أمر هذا السلطان بقتله سنة ٥٠٦/ ١١١٢ ـ ١٣ (تاريخ السلجوقية للأصفهاني: نشر هوتسما ص٩٣، ١٠١، ١٠٥؛ تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٥٠٦).

(١١) اندر أين بيت از محاسن هفت صنعت إلخ: انتقد القزويني هذه العبارة وقال إنّ عليها بعض ملاحظات:

أوّلها أنّ التعبير بالصفة عن الثلاث صناعات الأولى: أي المطابق والمتضاد والمردف، وبالمصدر عن الأربع الأخيرة أي المساواة

---

(١) برون Browne ص١٢١.

والعذوبة والفصاحة والجزالة تعبير ركيك للغاية لأنّه إذا كان المراد تعداد الصنعة نفسها للزم أن تكون كلّها بلفظ المصدر، وإذا كان المراد أثر هذه الصناعات في الشعر لوجب أن تذكر جميعاً بلفظ الصفة.

ثانياً: جعل المطابقة والتضاد صنعتين على حدة خطأ، لأنّ الجمع بين الضدين أو الأضداد الذي هو إحدى الصنائع المعنوية يسمّى المطابقة كما يسمّى التضاد والطباق والتكافؤ، فهذه كلّها ألفاظ مترادفة لمعنى واحد في اصطلاح البديع.

ثالثاً: ومن الغريب اعتبار الفصاحة إحدى الصنائع، فإنّ الفصاحة من لوازم نظم ونثر البلغاء، وليست صنعة من صنائع البديع وصفة زائدة يزدان الكلام إذا اتّصف بها، ولا يصيبه الخلل بغيرها. ولسنا نعرف عالماً من علماء المعاني يعدّ الفصاحة صنعة من الصنائع.

(١٢) حاجب علي قريب: علي بن قريب المعروف بالحاجب الكبير، من كبار أمراء السلطان محمود الغزنوي. وهو الذي أجلس بعد وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١/ ١٠٣٠ ولده الأصغر الأمير «أبو أحمد محمد»، ولي عهده في غزنين على العرش، وكان السلطان مسعود إذ ذاك بأصفهان فاتّجه نحوغزنين فلمّا بلغ هراة عزل الحاجبُ محمداً وحبسه في قلعة كوهشير أمّا هو فقد التحق (في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٢١/ نوفمبر ١٠٣٠) بخدمة السلطان مسعود الذي أمر، في اليوم نفسه، بسجنه مع أخيه الحاجب منكيتراك، فكان هذا آخر العهد بهما[١].

(١٣) الأمير خلف بانو: الأمير أبو أحمد خلف بن أحمد بن محمد بن خلف بن الليث الصفاري من ملوك سيستان من أسرة

(١) تاريخ البيهقي، طبعة طهران ص١ ـ ٦٢؛ طبقات ناصري، طبعة كلكته ص١٢.

الصفاريين. أمّه بانو بنت عمرو بن الليث الصفاري، ولهذا سمّي خلف بانو نسبة إلى أمّه. كان من فضلاء وعلماء وأسخياء عصره. وكان بلاطه مجمعاً لأهل الفضل والشعراء والعلماء. ولبديع الزمان الهمذاني وأبي الفتح البستي قصائد غراء في مدحه ذكر معظمها في تاريخ اليميني ويتيمة الدهر. وقد أمر خلف العلماء بكتابة تفسير مفصل للقرآن ورصد لهذا العمل عشرين ألف دينار. ويقول العتبي في تاريخ اليميني أنّ من هذا التفسير نسخة في مدرسة الصابوني بنيسابور[١].

وكان مع ما تحلّى به من الفضائل قاسي القلب لا يدانيه أحد في هذا، قتل ولده بيده ثمّ غسلها ودفنه.

وقد حارب محموداً الغزنوي مراراً، فاضطر هذا آخر الأمر، لتجهيز جيش كبير سنة ٣٩٣/ ١٠٠٢ غزا به سيستان وقبض على خلف وأرسله إلى جوزجانان حيث مات سنة ٣٩٩/١٠٠٨ ـ ٩.

وخلف بن أحمد هو أوّل من أطلق لقب سلطان على محمود الغزنوي. فقد جاء في كتاب «مجمل التواريخ» المؤلف في عهد السلطان سنجر سنة ٥٢٠/ ١١٢٦، والذي توجد منه نسخة خطية قديمة مصحّحة نفيسة في المكتبة الأهلية بباريس ما ترجمته[٢]: «وأوّل من أطلق كلمة سلطان على الملوك هو الأمير خلف ملك سيستان، فإنّه حين أسره محمود وحمله إلى غزنين قال إنّ محموداً سلطان، وبعد ذلك استعمل هذا اللقب».

---

(١) انظر في تاريخه تاريخ اليميني، طبعة دهلي ص١٨٥ ـ ٢٠٨؛ يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٠٣، الآثار الباقية ص٣٣٢؛ ابن الأثير، ج٨، ٩ في مواضع مختلفة؛ أنساب السمعاني في السجزي.

(٢) Bibliothèque Nationale, Paris, Fonds Persnas. 62, f. 264b.

(١٤) أمراء آل محتاج الچغانيين: آل محتاج من الأسر الكبيرة فيما وراء النهر، وقد شغلوا المناصب الكبرى في عصري السامانيين والغزنويين، وكانت حكومتهم في ولاية چغانيان فيما وراء النهر. وقد ظلّوا في أقطاعهم هذا أباً عن جد. وقد جاءت أعمالهم العظيمة وحروبهم في كتب التاريخ.

ورأى القزويني أنّ من المفيد أن يتحدّث عن بعض أفراد هذه الأسرة بما أفاده من كتب متفرّقة في الأدب والتاريخ.

١ ـ أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج. عهد إليه الأمير نصر بن أحمد الساماني سنة ٣٢١//٩٣٣ بقيادة جنده في خراسان وجعله والياً عليها، وظلّ في هذا المنصب حتّى مرض في آخر عمره بعلّة مزمنة فحلّ ابنه «أبو علي أحمد» مكانه. وتوفي سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ ودفن في چغانيان.

٢ ـ ولده أبو علي أحمد بن محمد بن المظفر بن محتاج. ولي قيادة الجيش وإمارة خراسان بعد مرض أبيه سنة ٣٢٧/٩٣٨. وهو الذي حارب ما كان بن كاكي الديلمي في جرجان والري سنة ٣٢٩/٩٣٨. وهو الذي حارب ما كان بن كاكي الديلمي في جرجان والري سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ وقتله فكتب كاتبه أبو القاسم الإسكافي للأمير نصر يقول أمّا ما كان فصار كاسمه والسلام. وقد ضمّ إلى ملك السامانيين جرجان وطبرستان وبلاد الجبل وزنجان وكرامنشاهان. وفي سنة ٣٣٣/ ٩٤٤ ـ ٥ عزله الأمير نوح بن نصر بن أحمد الساماني عن ولاية خراسان فقامت بينهما الوحشة وانتهى الأمر إلى الخصومة، وشقّ أبو علي عصا الطاعة على السامانيين وخلع نوحاً بن نصر واستولى على خراسان وبخارى وهرب الأمير نوح إلى سمرقند. واستمرّ

الحال بين الرجلين في صلح وحرب، حتّى مات أبو علي بالري في الوباء الذي تفشّى سنة ٣٤٤/ ٩٥٥ ـ ٦. ودفن بچغانيان.

٣ ـ أبو العباس فضل بن محمد بن المظفر بن محتاج (أخوه) عيّن من قِبل أخيه والياً على بلاد الجبل (العراق العجمي) سنة ٣٣٣/ ٩٤٤ ـ ٥، وقد فتح دينور ونهاوند. ولمّا خرج أبو عليّ على السامانيين انضمّ أبو العباس إليهم، وقد رأس جندهم في كثير من الحروب ضدأخيه أبي علي. وقد اتّهم سنة ٣٦٦/ ٩٤٧ ـ ٨ بالميل إلى أخيه فحبس ببخارى. ولم يعرف مصيره بعد ذلك.

٤ ـ أبو المظفر عبد الله بن أحمد بن المظفر بن محتاج (ولد الثاني). وهو الذي أرسله أبوه إلى الأمير نوح كرهينة في الصلح الذي رى ببخارى سنة ٣٧٧/ ٩٤٨ ـ ٩. وقد ظلّ مكرماً بها في خدمة الأمير نوح حتّى سقط من على حصانه سنة ٣٤٠/ ٩٥١ ـ ٢ فمات وقد أرسل جسده إلى چغانيان عند أبيه.

٥ ـ أبو منصور بن أحمد بن محمد بن المظفر بن محتاج (ولد الثاني). عهد إليه أبوه حين ولّى خراسان سنة ٣٤٠/ ٩٥١ ـ ٢ بحكم چغانيان نيابة عنه. ولا يعرف عنه أكثر من ذلك.

٦ ـ أبو علي أبو المظفر طاهر بن الفضل بن محمد بن المظفر بن محتاج (ابن الثالث). كان والياً على چغانيان وتوفي سنة ٣٧٧/ ٩٨٧ ـ ٨. وقد ترجم له صاحب لباب الألباب (ج١، ص٢٧ ـ ٢٩) وكان شاعراً ومحباً للشعراء. ومن مداحيه منجيك الترمذي.

٧ ـ فخر الدولة أبو المظفر أحمد بن محمد. وهو والي چغانيان المقصود في هذا الموضع من چهار مقاله. ويميل القزويني إلى

أنّه ابن أو حفيد لأبي علي (الثاني). وقد مدحه الدقيقي وفَرُّخي.

(١٥) ختليّ. منسوب إلى خَتْلان وهو اسم ولاية فيما وراء النهر قرب بدخشان. بينها وبين چغانيان ثلاثون فرسخاً. وفيها الخيول المطهمة. وينسب إليها فيقال ختلى. ويُسمّي العرب هذه الولاية خُتّل. وقد توهّم البعض أنّ ختلان وخُتَّل موضعان مختلفان والواقع أنّهما اسم لموضع واحد. ويقول مرادي في ذم خُتَّل وأميرها :

أيّها السائلي عن الحارث النذ ل وعن أهل ودّه الأرجاس
عد نم ختل فختل أرض عرفت بالدواب لا بالناس

وقد استشهد القزويني بنصوص من الاصطخري وابن خرجاذبة وابن حوقل وغيرهم من جغرافيّ العرب.

(١٦) تروق ـ لم يذكر جغرافيو العرب كلمة تروق، ويرجح القزويني أنّ المقصود بها مكان القرية المعروفة الآن باسم طُرُق وهي قرية كبيرة على فرسخين من مشهد الرضا (عليهم السلام) وإحدى منازل الطريق من طهران إلى مشهد.

(١٧) جامگي واجرا. جامگي بمعنى وظيفة ويُقال لها الآن «مواجب» و«مستمري» وإجراء في الأصل مصدر من أجرى عليه جرابة يعني وظيفة وقرّر لها مرتباً.

(١٨) علاء الدولة الأمير على فرامرز. هو الأمير علاء الدولة علي بن ظهير الدين أبي منصور فرامرز بن علاء الدولة أبي جعفر الكاتب المعروف بكا كوية بن دشمنزيار. جدّه أبو جعفر كا كويه أوّل أمراء آل كا كويه بأصفهان وهو الذي رعى ابن سينا وربّاه. وقد ولّى علاء الدولة إمارة يزد من قبل السلاجقة. وفي سنة ١٠٧٦/٤٦٩ تزوّج إرسلان خاتون بنت چغري بيك عمّة السلطان ملكشاه التي كانت تزوّجت الخليفة القائم بأمر الله. ومن هنا قال المصنّف إنّه صهر

ملكشاه. وقد قتل سنة ٤٨٨/ ١٠٩٥ مع تتش بن الپ إرسلان في حربه مع ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه[1].

(١٦) طُغَانشاه بن الپ إرسلان: المراد به شمس الدولة أبو الفوارس طغانشاه بن الپ إرسلان محمد بن چغري بيك بن ميكائيل بن سلجوق. كان حاكماً لخراسان أيام الپ إرسلان. وكان مقرّ حكومته هراة. ومن مداحيه الأزرقي الذي صرّح باسمه ولقبه ونسبه ومقر حكومته في مدائحه له (ص١٧١ من حواشي القزويني).

والعجيب أنّ طغانشاه هذا مجهول من المؤرخين، عدا المصنّف، فهم لا يذكرونه. إنّما ذكر في أشعار الأزرقي؛ ولهذا فإنّ أحداً من كتّاب التذاكر لم يحقّق شخصيته، بل وقعوا في أخطاء غريبة، فكثير منهم، مثل رضا قولي خان صاحب مجمع الفصحا، يجعل طغانشاه من الپ إرسلان وطغانشاه بن مويد آي ابه (٥٦٩/ ١١٧٣ ـ ٥٨١/ ١١٨٥) رجلاً واحد وهذا سهو واضح:

أوّلاً: بدليل تصريح الأزرقي في أشعار باسمه ونسبه وكذلك من حديث عروضي السمرقندي هنا.

ثانياً: يقول عوفي في لباب الألباب إنّ الأزرقي سابق على المعزى بمدّة، وإنّ المعزى مات سنة ٥٤٢/ ١١٤٧ فمن المحال أن يكون الأزرقي قد لحق زمان طغانشاه بن آى ابه الذي ولي الحكم سنة ٥٦٩/ ١١٧٣.

ثالثاً: مدح الأزرقي أميرانشاه بن قاورد بن چغري بيك بن

---

(١) تاريخ السلجوقية لعماد الدين الأصفهاني ص٥٢؛ ابن الأثير في ذيل سنة ٤٦٩ حيث ذكر سهواً «أبي منصور بن فرامرز» بدلاً من أب منصور فرامرز؛ تاريخ جهان آرا، المتحف البريطاني (or, 141, ff. 65b-67a.).

ميكائيل بن سلجوق وهو من أمراء سلاجقة كرمان وقد توفي، كما سيجيء، قبل سنة ٤٧٧/ ١٠٨٤، فكيف يمكن أن يدرك الأزرقي، الذي عاصر أميرانشاه، عصر ابن آى ابه طغانشاه الذي ولي سنة ٥٦٩ أي بعد ٩٢ سنة.

ويقول دولتشاه السمرقندي في تذكرة الشعرا وأمين أحمد الرازي في هفت إقليم وحاجي خليفة في كشف الظنون (تحت ألفية) إنّ في أسرة السلاجقة اثنين اسمهما طغانشاه، أحدهما طغانشاه بن مؤيد والثاني طغانشاه القديم ممدح الأزرقي وكان طغرك بيك خاله ومقرّ سلطنته نيسابور. وهذا الكلام خطأ كلّه، لأنّ طغانشاه بن مؤيد آى ابه ليس من أسرة السلاجقة، وطغرك بيك عم والد طغانشاه بن الب إرسلان وليس خاله. وكانت نيسابور مقرّ ولاية طغانشاه بن مؤيد، وكانت هراة مقرّ ولاية طغانشاه بن الب إرسلان.

وقد انتقد القزويني صاحبَ مجمع الفصحا، لأنّه كعادته، قد غيّر في إحدى قصائد الأزرقي اسم طغانشاه بن محمد (الب إرسلان) بطغانشاه بن مؤيد (ج١، ص١٤٥) لتكون القصيدة في مدح هذا الأخير.

وينبّه القزويني على ضرورة المحافظة على تراث المتقدمين من الكتّاب فلا نغيّر فيه وإنّما نقدّمه كما هو لمن بعدنا. وروي ما ذكره صديق إيراني له في باريس عن والده وكيف كان يأخذ المخطوطات الناقصة فيتمّها بحيث لا يميّز القارىء المنتحل الذي أضافه (ص١٧٢ ـ ١٧٣ من الحواشي).

(٢٠) الأزرقي: هو أبو بكر زين الدين بن إسماعيل الورّاق الأزرقي الهروي. وهو الذي لجأ الفردوسي إلى أبيه إسماعيل الورّاق

حين ولّى فراراً من السلطان محمود، فنزل بمنزلة في هراة وتوارى به ستة أشهر (ص٥٧ هنا)، ويظهر من بعض أشعاره أنّ اسمه جعفر.

وأغلب قصائد الأزرقي في مدح أمير بن سلجوقيين هما شمس الدين طغانشاه بن الب إرسلان الذي تحدّثنا عنه وأميرانشاه بن قاورد بن چغري بيك (قاورد هو أوّل ملوك سلاجقة كرمان). ولمّا كان أميرانشاه لم يرق العرش فإنّ المؤرخين لم يهتمّوا بذكر تاريخ وفاته، ولكن صاحب تاريخ سلاجقة كرمان يقول إنّه حين توفي سلطان شاه بن قاورد سنة ٤٧٦/ ١٠٨٣ لم يكن على قيد الحياة من أبناء قاورد غير تورانشاه. وإذاً فقد كانت وفاة أميرانشاه قبل هذا التاريخ. ومن هذا يتّضح بوجه عام الزمن الذي عاش فيه الأزرقي.

ويقول تقي الدين الكاشاني إنّ الأزرقي توفي سنة ٥٢٧/ ١١٣٢ ـ ٣. والظاهر أنّه توفي قبل هذا بأربعين سنة على الأقل إذ أنّه لو كان حيّاً حتّى هذا التاريخ لعاصر المعزى مدّة طويلة والواقع أنّ عوفي يقول «إنّ الأزرقي سابق على المعزى بمدّة».

ومن ناحية أخرى، فإنّ الأزرقي لا يشير في ديوانه إلى ملكشاه وسنجر ووزرائهما وعظماء دولتيهما ولو امتدّ به العمر حتّى سنة ٥٢٧/ ١١٣٢ ـ ٣ لمدح هذين السلطانين العظيمين وكانا يقربان الشعراء وذوي الفضل منهما.

ثمّ إنّ والد الأزرقي كان معاصراً للفردوسي الذي توفي سنة ٤٢١/ ١٠٣٠ ومن المستبعد أن يكون عمر ولده قد امتدّ مائة سنة بعد هذا التاريخ (أي حتّى سنة ٥٢٧).

والخلاصة أنّه يبدو من هذه القرائن أنّ الأزرقي مات قبل جلوس السلطان ملكشاه ابن الب إرسلان يعني قبل سنة ٤٦٥/ ١٠٧٢ ـ ٣.

وكان الأزرقي مولعاً بالتشبيهات الغريبة والتخيلات العجيبة وتصوير أشياء لا وجود لها وقد اتّسم بهذا جلّ بل كلّ شعره. وقد عاب رشيد الدين الوطواط هذه الطريقة في كتابه حدائق السحر وضرب منها مثلاً من شعر الأزرقي شبّه فيه الفحم الملتهب ببحر من المسك موجه ذهبي اللون.

وينسب كثير من أصحاب التذاكر وحاجي خليفة في كشف الظنون إلى الأزرقي كتابي «سندباد نامه» و«ألفية وشلفية». وهذا خطأ.

أمّا «سندباد نامه» فإنّه في قصص وحكايات الفرس أو الهند وهو مؤلّف قبل الإسلام بمدّة طويلة كما يتّضح من رواية مروج الذهب للمسعودي[1]، المؤلف في حدود سنة ٣٣٢/ ٩٤٣ في «ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها حيث يقول «ثمّ ملك بعده كورس فأحدث للهند آراء في الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت وما يحتمله من التكليف أهل العصر وخرج عن مذاهب من سلف وكان في مملكته وعصره سندباد دوّن له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد». ومن رواية الفهرست[2] لابن النديم المؤلف سنة ٣٧٧/ ٩٨٧ في باب «أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء الكتب المصنّفة في الأسمار والخرافات» حيث يقول: «فأمّا كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره فقيل عملته الهند وخبر ذلك في صدر الكتاب وقيل عملته ملوك الأشكانية ونحلته الهند وقيل عملته الفرس ونحلته الهند وقال قوم إنّ

---

(١) مروج الذهب، طبعة مصر، سنة ١٣٤٦، ص٤٩.

(٢) نشر فلوجل Flügel ص٣٠٤ ـ ٣٠٥.

الذي عمله بزر جمهر الحكيم أجزاء، والله أعلم بذلك. كتاب سندباد الحكيم وهو نسختان كبيرة وصغيرة والخلف فيه مثل الخلف في كليلة ودمنة والغالب والأقرب إلى الحق أن يكون الهند صنفته».

وسواء وضع هذا الكتاب جماعة من الفرس أو الهنود من أهل الحكمة، فإنّ نسخة پهلوية منه كانت موجودة حتّى عهد السامانيين وقد نقلها إلى الفارسية بأمر من الأمير نوح ابن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسمعيل الساماني (٣٦٦/ ٩٧٦ ـ ٣٨٧/ ٩٩٧) الأستاذ العميد أبو الفوارس فَنَاوَزي، ولم يعثر على هذه الترجمة. وفي سنة ٦٠٠/ ١٢٠٣ ـ ٤ أصلح وهذّب هذه الترجمة الفارسية بهاء الدين محمد بن علي بن محمد بن عمر الظهيري السمرقندي الذي كان كاتباً للسلطان طَمْغاج خان إبراهيم، السابق على الأخير من ملوك خانية ما وراء النهر وقد صاغ كتابه الجديد بلسان فارسي فصيح وأدخل فيه أشعاراً وأمثالاً عربية[1]. والظاهر أنّ الأزرقي قد نظّم أو حاول أن ينظّم ترجمة أبي الفوارس قناوزي[2]. ومهما يكن فليس لدينا شيء من ترجمة الأزرقي لسندباد نامه. على أنّ الكتاب قد نظّم مرّة أخرى في سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤ ولا يعرف ناظمه، ولكن نسخته محفوظة في مكتبة India Office[3]، وقد تصفحها القزويني فوجد نظمها غاية في السخف والضعف وأنّه لا يساوي شيئاً.

أمّا كتاب «ألفية وشلفية» فهو من الكتب القديمة أيضاً السابقة

---

(١) يقول القزويني إنّ في المتحف البريطاني نسخة من هذه الترجمة. وقد نقل هذه المعلومات عن ديباجتها.

(٢) انظر ص ١٧٧ من الحواشي الفارسية.

(٣) كتالوج، Ethé رقم ١٢٣٦.

على عصر الأزرقي أشار إليه ابن النديم في الفهرست (ص٣١٤) والبيهقي في تاريخ مسعودي (ص١١٦ طبعة طهران).

فنسبته إلى الأزرقي غير صحيحة، على أنّه يحتمل أنه اهتمّ به فأصلحه وهذّبه لطغانشاه.

(٢١) سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة: وقد جاء في جميع النسخ «وخمسمائة». وبديهي أنّ رقم خمسمائة خطأ وأنّ صحته أربعمائة بدليل:

أوّلاً: كانت سلطنة إبراهيم الغزنوي من ٤٥١ إلى ٤٩٢ (١٠٥٩ ـ ١٠٩٨).

ثانياً: كانت سلطنة ملكشاه السلجوقي من ٤٦٥ إلى ٤٨٥ (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢).

ثالثاً: وكانت وفاة مسعود بن سعد بن سلمان في سنة ٥١٥ (١١٢١) أو ٥٢٥ (١١٣٠).

رابعاً: ألّف كتاب چهار مقاله في حدود سنة ٥٥٠ (١١٥٥).

(٢٢) لا نعلم بالتحقيق أين تكون وجيرستان. وكذلك لم يتحقّق موقع ناى. وقد ورد ذكر هذا المكان في كتاب «نزهة القلوب» لحمد الله المستوفى في فصل «ربع مرو شاهجان» فقال إنّ قلعة ناى كانت محبس مسعود بن سعد بن سلمان.

ويذكر نظامي العروضي وذكلك سائر كتاب التذاكر أنّ حبس مسعود بن سعد كان كلّه في قلعة ناى. وهذا سهو. والصحيح الذي يستفاد من أشعار مسعود نفسه في مواضع عدّة أنّه حبس مرّتين. المرّة الأولى كانت عشر سنوات، في عهد السلطان إبراهيم، منها سبع سنوات في قلعتي سو ودهك وثلاث سنوات في قلعة ناى. والمرّة الثانية كانت سبع أو ثماني سنوات في قلعة مرنج.

ودهك منزل من منازل ما بين زَرَنج عاصمة سيستان وبُست الواقعة على حدود زابلستان أي مملكة غزنة[1]. ومرنج قلعة في الهندوستان[2]. وأمّا سو فلا نعلم أين تكون.

(٢٣) لا يستغرب من السلطان إبراهيم الغزنوي عدم مبالاته بحبسيات مسعود بن سعد ابن سلمان، فإنّ هذا السلطان كان قد قضى ثلاثة عشر عاماً سجيناً في قلاع بزغند وناى، ولذا لم تكن حبسيات الشاعر غريبة عليه.

(٢٤) أبو نصر الفارسي: هو قوام الملك نظام الدين أبو نصر هبة الله الفارسي من أعيان دولة السلطان إبراهيم والسلطان مسعود بن إبراهيم الغزنوي.

وقد كان نائباً وقائداً لعضد الدولة شيرزاد (ابن السلطان مسعود) في الهندوستان.

وقد غضب عليه السلطان مسعود بعد ذلك ولقي أصدقاؤه كثيراً من الشر بسبب غضب السلطان عليه، ومن هؤلاء مسعود بن سعد بن سلمان الذي حبس في قلعة مرنج ثماني سنوات.

وتوفي أبو نصر الفارسي أيام ولاية أرسلانشاه بن مسعود بن إبراهيم (٦٠٩ ـ ٥١١/ ١١١٥ ـ ١١١٧).

(٢٥) ثقة الملك طاهر بن علي مشكان، وزير السلطان مسعود بن إبراهيم. وقد مدحه شعراء العصر، مسعود بن سعد بن سلمان وأبو الفرج الروني والمختاري الغزنوي وسنائي الغزنوي. وهو ابن أخي أبي نصر منصور بن مشكان الكاتب المشهور الذي كتب

---

(١) الاصطخري ص٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ ابن حوقل ص٣٠٥؛ والمقدسي ص ٥٠.

(٢) البرهان القاطع.

للسلطانين محمود ومسعود والذي صنّف كتاب «مقامات بو نصر مشكان» وهو أستاذ أبي الفضل البيهقي صاحب «تاريخ مسعودي» ولا تكاد تخلو من ذكره صفحة من تاريخ البيهقي. وكانت وفاة أبي نصر سنة ٤٣١/ ١٠٣٩.

(٢٦) سهو في قول المصنّف:

«وسمعت من سلطان العالم غياث الدنيا والدين، عند باب همدان، عن واقعة صهره الأمير شهاب الدين قتلمش...».

أخطأ المصنّف عدّة أخطاء في هذين السطرين ولكي يتّضح الموضوع نذكر خلاصة واقعة قتلمش.

شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق والد سليمان بن قتلمش جدّ ملوك سلاجقة الروم وابن عم طغرك بيك مؤسّس الدولة السلجوقية في العراق. وفي سنة ٤٥٦/ ١٠٦٤ خرج قتلمش علي ابن عمّه السلطان الپ إرسلان وجاء إلى الري بجيش كبير حيث لقيه الپ وقد أتى من نيسابور، فهزمه ووجد قتلمش ميتاً. ولم يعرف هل قتل أم قضى لفراغ أجله. وبعد هذه الواقعة حكم الپ إرسلان غير منازع.

أمّا أخطاء نظامي العروضي فهي:

أوّلاً: يجعل مولد غياث الدين محمد بن ملكشاه بعد قتل قتلمش بسبع عشرة سنة (ولد سنة ٤٧٣/ ١٠٨٠ ـ ١ وقتل قتلمش سنة ٤٥٦/ ١٠٦٤) فكيف يمكن أن يحاربه؟

ثانياً: قتلمش هو ابن عمّ جدّ والد السلطان محمد بن ملكشاه وليس صهره.

ثالثاً: لقب قتلمش شهاب الدولة وليس شهاب الدين.

رابعاً: كان اسمه قتلمش فقط وليس قتلمش الپ غازي.

خامساً: جرت واقعة قتلمش في الري لا في همدان.

سادساً: ليس من المعقول أن يحضر نظامي العروضي الذي ألّف كتابه حوالي سنة ٥٥٠/ ١١٥٥ واقعة حدثت سنة ٤٥٦ أي قبل تأليف كتابه بمائة سنة.

ويتساءل القزويني عن سبب هذا الخلط الذي يذكر المصنّف أنه سمعه شفاها، فيرجح أنّ يداً عبثت بالكتاب. ومهما يكن فإنّ عدّ شخصيات عاشت في أزمنة مختلفة، بعضها متأخر عن المصنف بما يقرب من خمسين سنة قد اختلط بعضها ببعض. من هذه الشخصيات شهاب الدولة قتلمش الذي عاش قبل تأليف الكتاب بنحو مائة سنة وقتل سنة ٤٥٦. ومنها الپ غازي ابن أخت السلطان غياث الدين محمد الغوري المتوفى سنة ٦٠٠/ ١٢٠٣ ـ ٤ عند باب هراة في الحرب مع السلطان محمد خوارزمشاه؛ واسم «غياث الدين محمد» مشترك بين أميرين، أحدهم غياث الدين محمد بن ملكشاه المتوفى سنة ٥١١/ ١١١٧. ويبدو من هذه الصورة ارتباطه بشهاب الدولة قتلمش فكلاهما أمير سلجوقي، والثاني غياث الدين محمد بن سام الغوري المتوفى سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢ ـ ٣ ومن هذه الصورة تظهر صلته مع الپ غازي فإنّ هذا ابن أخته.

(٢٧) الملوك الخاقانية: هم الذين يذكرون في كتب التاريخ بآل خاقان والخانية والإيلك خانية وآل افراسياب. وهم سلسلة من الملوك الترك المسلمين الذي حكموا ما وراء النهر زهاء ثلاثين ومائتين من السنين (٣٨٠ ـ ٦٠٩/ ٩٩٠ ـ ١٢١٢ ـ ١٣)، وذلك بعد دولة السامانيين وقبل المغول. فهم الذين قضوا على آل سامان في ما وراء النهر. وقد قضى عليهم الخوارزمشاهية. وكانت هذه السلسلة من آل خاقان تارة مستقلة وتارة تدفع الجزية للسلاحقة أو للقراخطائيين فيما وراء النهر وطوراً للخوارزمشاهية.

وليس تاريخ هذه الطائفة واضحاً. وما ذكر عنهم في كتب التاريخ ضعيف وناقص ومتناقض ولا يتفق فيه اثنان. وابتداء ظهورهم ليس محققاً. ولا يُعلم متى أسلموا. وأوّل من يذكر منهم هو هرون بن سليمان المعروف ببغراخان إيلك والملقب بشهاب الدولة وهو الذي فتح بخارى[1] سنة ٣٨٣/ ٩٩٣. وقد خلفه شمس الدولة نصر بن علي بن موسى بن سُتُق المعروف بإيلك خان[2]. وقد فتح بخارى مرّة ثانية سنة ٣٨٩/ ٩٩٩ وقضى على الدولة السامانية فيما وراء النهر، وآخرهم نصرة الدين قِلِج إرسلان خاقان عثمان بن قِلِج طَمْغاج خان إبراهيم[3] الذي قتله في سنة ٦٠٩/ ١١١٢ ـ ١٣ السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ودخلت بلاد ما وراء النهر في ملك الخوارزمشاهية[4].

ويظهر أنّ أوّل من كتب تاريخهم هو الإمام شرف الزمان مجد الدين محمد بن عدنان السُرْخِسكَتي (لباب الألباب، ج١، ص١٧٩ - ١٨١) وهو خال نور الدين محمد عوفي صاحب اللباب وجوامع الحكايات. وقد ألّف ابن عدنان كتابه باسم السلطان قلج طمغاج خان السابق على آخر ملوك الأسرة.

ويقول الحاج خليفة في كشف الظنون: «تاريخ تركستان لمجد الدين محمد بن عدنان ألّفه لطغماج (طمغاج) خان من ملوك ختاى

---

(١) انظر ص١١٣ ـ ١١٤ من هذا الكتاب.

(٢) ذكره ابن الأثير سهواً، باسم أبي نصر بن أحمد.

(٣) تراجع ترجمة حياة هذين الملكين في لباب الألباب، الجزء الأوّل، ص٤٢ - ٤٦.

(٤) ابن الأثير حوادث سنة ٦٠٤.

(كذا) ذكر فيه اسم الترك وغرائب تركستان». وقد نقل عنه عوفي فصلاً في كتابه جوامع الحكايات[1] الذي ألّف حوالي سنة ٦٣٠/ ١٢٣٢، ويستفاد من نقله هذا أنّه رأى الكتاب بالفعل يقول: «إنّ مجد الدين محمد بن عدنان (عزّ وجلّ) قد وضع تاريخاً قدّمه للسلطان إبراهيم بن طمغاج خان، وقد استوفى فيه ذكر ملوك الترك. وجاء في هذا الكتاب أنّ أحد ملوك تركستان واسمه بلح (كذا) قد صاهر أحد ملوك إيران واسمه حسويه (كذا حسنويه؟). فلمّا أرسل ملك إيران صداق كريمة ملك الترك بعث بتحف وهدايا لا تُعدّ، ومن جملتها غلام زنجي وقد كان في تركستان أعجوبة فإنّ الناس هناك لم يرو آدمياً بصورته ولونه. وكان هذا الفتى يحضر مجالس السمر كلّها وكان ذا قوّة وشجاعة وذكاء. ولهذا فقد كان له تأثير عظيم على الملك حتّى جعله من خاصّته فعلت مكانته واشتدّت صولته، حتّى انتهز الفرصة وهاجم الملك وقتله فجأة واستولى على ملكه ثمّ غلب على أكثر ممالك تركستان. ويسمّونه قراخان أي الملك الأسود، وهو اسم مشهور في بلاد الترك وظهوره لهذا السبب».

ولم يعثر على هذا الكتاب بعد[2].

---

(١) طبع منه حديثاً جزء في طهران بعنوان «منتخب جوامع الحكايات ولوامع الروايات» ١٣٢٤. والنص مأخوذ عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس Supplément Persan 906, f. 40 b.

(٢) ذكر القزويني في الملحوظة ٢، ص١٨٦ أنّ هذا الكتاب غير كتاب «تاريخ خطاى» الموجود بمكتبة ليدن بهولاندة، فإنّ هذا الكتاب الأخير هو رحلة قام بها تاجر اسمه سيد علي أكبر ولقبه خطائي كتبها سنة ٩٢٢ باسم السلطان سليم خان العثماني، ومنه نسخة استنسخها شيفر Schefer في المكتبة الأهلية بباريس.

والمصادر التي يرجع إليها في تاريخ هذه الطبقة هي:

أوّلاً: تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون ففيهما شذرات عن هذه الأسرة، ولكن المعلومات التي بهما مشتّتة ومضطربة.

ثانياً: تاريخ جهان آرا للقاضي أحمد الغفاري[1]، فقد كتب فصلاً جامعاً مفيداً عن هذه الجماعة، ولو أنّ كتابته لم تأت بجديد إلّا أنّه جمع ما جاء في الكتابين السابقين في فصل واحد.

ثالثاً: مجمع التواريخ وهو كتاب جامع للتاريخ لا يعرف مصنّفه. ومنه مجلدان في المكتبة الأهلية بباريس[2]، وفي واحد منهما فصل جامع في ذكر حكومة آل أفراسياب، يقع في سبع صفحات كبيرة.

رابعاً: الترجمة الإنكليزية لكتاب «طبقات ناصري» التي قام بها رارتي (ص٩٠٠ ـ ٩١١)، ففيها شرح تاريخ هذه الطائفة جمعه المترجم من كتب متفرّقة، وقد اختلط فيه الغث والسمين والصحيح والسقيم.

خامساً: مقال السر هنري هورث في الجمعية الآسيوية الملكية، ذكر فيه أقوال مؤرخي العرب ونقل عن كتاب تركي «تذكرة بغراخان». وهو خير ما كتب في الموضوع[3].

سادساً: الشذرات المتفرّقة في «تاريخ اليميني» و«تاريخ البيهقي» و«تاريخ بخارى» للنرشخي و«تاريخ السلجوقية» لعماد الدين الكاتب الأصفهاني، و«تاريخ السلجوقية» لأبي بكر الراوندي، «وجهانگشاي» الجويني، و«لباب الألباب» و«جوامع الحكايات» لعوفي، وكتاب

---

(١) المتحف البريطاني O 141. F. 132 a - 134b.

(٢) Spplément Persan 1331, f. 132b j 136a.

(٣) Sir Henry Howoth: Afrasyabi Turks: Journal of the Royal Asiatic Society. 1898, pp. 467-502.

«چهار مقاله» هذا وغيرها. ذلك أنّ تاريخ آل خاقان مرتبط أشدّ الارتباط بتاريخ الغزنويين والسلاجقة والخوارزمية. فلا مفرّ لمن يريد أن يستقصي تاريخ الخاقانيين من أن يرجع إلى تاريخ هذه الأسر كلّها.

سابعاً: قصائد الشعراء الذين مدحوهم، مثل الرشدي السمرقندي والمختاري الغزنوي وسوزني السمرقندي ورضي الدين النيسابوري وعمعق البخاري وشمس الطبسي وغيرهم.

ويلاحظ أنّ المراجع السابقة لم تذكر شيئاً عن قلج طمغاج خان الذي سبق آخر آل خاقان، وإنّما ذكره عوفي وحده في «لباب الألباب» وكان هذا الخان محبّاً للعلم والعلماء، وقد ألّفت باسمه بعض الكتب منها «تاريخ ملوك تركستان» لمجد الدين محمد بن عدنان ومنها «إنشاء سندباد» لبهاء الدين الظهيري السمرقندي وقد تحدّثنا عنه، و«أعراض الرياسة في أغراض السياسة» له أيضاً، ومنه نسخة في مكتبة ليدن[1]، و«سمع الظهير في جمع الظهير»[2] له أيضاً. وقد خلّد اسمه الشاعر الكبير رضي الدين النيسابوري.

(٢٨) السلطان خضر بن إبراهيم هو خضر خان بن طفغاج خان إبراهيم بن نصر إرسلان المعروف بإيلك بن علي بن موسى بن ستق، وقد خلف أخاه شمس الملك سنة ٤٧٤ ومات بعد قليل[3].

(٢٩) لم يذكر اسم هذا الموضع في المصادر الجغرافية العربية، ولكن جاء في البرهان القاطع أنّه قرية من محال طوس.

(٣٠) طبران مدينة في تخوم قومس.

---

(١) فهرست مكتبة ليدن، ج٣، ص١٤؛ حاجي خليفة في باب الألف؛ ولباب الألباب، ج١، ص٩١.

(٢) (٣) لباب الألباب، ج١، ص٩١؛ حاجي خليفة في باب السين.

(٣١) شهريار بن شروين بن رستم بن سرخاب بن قارون بن شهريار بن شروين ابن سرخاب بن مهر مردان بن سهراب. ويذكر خطأ في مخطوطات «چهار مقاله» باسم شهر زاد.

ويقول ابن اسفنديار في كتابه «تاريخ طبرستان»[1] إنّ شهريار حكم مدّة طويلة وقد عاصر شمس المعالي قابوس بن وشمگير وكذلك عاصر السلطان محمود الغزنوي. ولمّا كان تاريخ إتمام الشاهنامة سنة ٤٠٠، فإنّ وفاته حدثت بعد هذا التاريخ.

(٣٢) الإمام الفقيه أبو بكر محمد بن إسحق بن مَحْمَشاد الذي كان رئيس طائفة الكرامية في نيسابور في عهد السلطان محمود الغزنوي. وقد ذكرت ترجمته في «تاريخ اليميني». والكرامية فرقة إسلامية تقول بالتجسيم والتشبيه. ومُحْمشاد كلمة تكثر في أسماء أعلام الطائفة الكرامية. ويُقال إنّها تخفيف «محمد شاد». ويؤيّد هذا اسم «أحمد شاد» الذي يطلق على بعض الناس ومنهم شمس الدين أحمد شاد الغزنوي الذي عاصر السلطان محمد ابن محمود السلجوقي.

(٣٣) ملك الجبال لقب ملوك الغور عامّة ولقب قطب الدين محمد بن عز الدين حسين خاصّة، وهو الذي سمّه بهرامشاه الغزنوي، فثأر له أخوه السلطان علاء الدين الغوري، كما ثأر لأخيه الآخر سيف الدين سوري وحرق غزنين سبعة أيام بلياليها؛ وكان المصنّف من خاصّته.

(٣٤) ورساد أو ورشاد اسم ولاية في بلاد الغور كان يحكمها ملك الجبال قطب الدين محمد المذكور.

---

(١) طبع هذا الكتاب في مجموعة جب، كما أعيد طبعه حديثاً على نسخة أتمّ في طهران بسعي واهتمام عباس إقبال، ص١٩٨، ٢٠٥، ٢٠٧ من المجلد الأوّل.

حواشي المقالة الثالثة

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البَيْرُوني الفيلسوف الرياضي المشهور. ولد سنة ٣٦٢/ ٩٧٢ وتوفي في غزنة سنة ١٠٤٨/٤٤٠ في السابعة والسبعين من عمره.

ولد في ضواحي مدينة خوارزم، ومن هنا سمّي البَيْرُوني من بيرُون بمعنى الخارج. يقول السمعاني في كتاب الأنساب، وهو مؤلّف بعد موت البيروني بنحو مائة سنة: «البيروني بفتح الباء وسكون الياء نسبة إلى خارج خوارزم فإنّ بها من يكون من خارج البلد ولا يكون من نفسها، يُقال له فلان بيروني. . . والمشهور بهذه النسبة أبو الريحان المنجم البيروني».

والظاهر أنّ البيروني أمضى أوائل عمره في كنف ولاة خوارزم المأمونيين المشهورين بالخوارزمشاهية، وكان هؤلاء يحبّون العلماء وأهل الفضل ويشجعونهم، فكان بلاطهم مجمعاً لهم.

ثمّ إنّ البيروني قضى عدّة سنوات في جرجان في بلاط شمس المعاني قابوس بن وشمگير الذي حكم جرجان وما حولها مرّتين، من سنة ٩٧٦/٣٣٦ حتّى ٣٧١/ ٩٨١ ثمّ من سنة ٩٩٨/٣٨٨ حتّى ٤٠٣/ ١٠١٢، وقد ألّف البيروني كتابه «الآثار الباقية» باسم هذا الأمير سنة ٩٩٩/٣٩٠.

وفيما بين سنتي ٤٠٠/ ١٠٠٩ و١٠١٦/٤٠٧ عاد البيروني إلى

بلده خوارزم وعاش مدّة طويلة في بلاط أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه، وقد شاهد البيروني ثورة الأمراء على هذا الوالي كما شاهد غارة محمود الغزنوي على بلاده انتقاماً.

وألّف البيروني كتاباً خاصّاً بخوارزم سمّاه «تاريخ خوارزم» ويُقال أنّه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصّة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه. والغالب أن يعتبر هذا الكتاب مفقوداً. ولكن أبا الفضل البيهقي أورد عدّة فصول منه في آخر كتابه «تاريخ المسعودي».

وبعد أن فتح محمود الغزنوي خوارزم سار البيروتي مع بقية العلماءِ الذين كانوا في البلاط المأموني إلى غزنة، ولكنّه كان يسافر إلى بلده من حين إلى حين. كما أنّه صاحب السلطان محمود الغزنوي في أغلب غزواته لبلاد الهند. وهناك صاحب العلماء والفلاسفة وتعلّم اللغة السنسكريتية واتّسعت ثقافته بما أفاد من الحكماء من الهنود في التاريخ والرياضة والجغرافية والعلوم الطبيعية.

وفي هذه الرحلات جمع علوم الهنود ومذابهم وعوائدهم وهي المواد التي ألّف منها كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». وقد طبع هذا الكتاب على نفقة حكومة الهند في لندن سنة ١٨٨٧، باهتمام المستشرق ساخاو Sachau.

ويتّضح من كتاب البيروني هذا أنّه كان ملمّاً باللغة السنسكريتية وبقليل من العبرية والسريانية، وأنّه لم يكن يعرف اليونانية بل استقى كتاباته عنها من التراجم العربية أو السريانية. ثمّ إنّ مؤلفاته كانت بإحدى اللغتين العربية أو الفارسية.

وقد أخذ البيروني كثيراً من معلوماته التي قيّدها في كتبه من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار، فالمعلومات الطريفة في التاريخ وتقويم

الزردشتيين وأهل خوارزم والصغد وسمرقند قد أخذها عمّا سمع من العلماء والحكماء وأهل المذاهب في الأمم المختلفة. وقد شاع في عهده دين زردشت وكانت بيوت النار قائمة في مدن كثيرة ـ حيث سافر ـ، ومن هنا جمع معلومات قيّمة عنهم.

وقد عدّد البيروني كتبه التي ألّفها حتّى سنة ١٠٣٦/٤٢٧ حين أتمّ الخامسة والستين من عمره وذلك في رسالة أوردها ساخاو في مقدمته للآثار الباقية (ص٤٠ ـ ٤٨). وقد قسّم برون Browne ـ في تعليقاته على «چهار مقاله» (ص١٢٨) هذه الكتب التي أربت على المائة إلى ثلاثة عشر قسماً. ثمّ لاحظ أنّ حاجي خليفةقد ذكر خمسة عشر كتاباً تنسب إلى البيروني علاوة على الكتب السابقة. ولعلّه ألّف هذه الكتب بعد الخامسة والستين من عمره. ولاحظ برون أنّ أغلبها ممكن إدخاله ضمن الكتب المذكورة في رسالته.

ويشير البيروني في رسالته هذه إلى علماء ثلاثة ألّفوا كتباً باسمه هم أبو نصر منصور بن ابن العراق وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي وأبو علي الحسن بن علي الجبلي (صفحات ٤٧ و٤٨ من مقدمة ساخاو). على أنّ أشهر كتب البيروني كتاباه: «الآثار الباقية» و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وفي أوّلهما نقص في بعض الفصول وخاصّة فيما يتعلق بدين زردشت. وفي بيترسبورج نسخة خطية من الكتاب، يمكن أن تعوض هذا النقص لأنّها أكمل من النسخة التي نشرها ساخاو.

(٢) كتاب التفهيم في صناعة التنجيم: كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والنجوم، بطريق السؤال والجواب، ألّفه أبو الريحان البيروني سنة ١٠٢٩/٤٢٠ أو سنة ١٠٣٣/٤٢٥ من أجل ريحانة بنت الحسن الخوارزمية، وقد كتبه باللغتين العربية والفارسية، غير أنّه جعل

أحدهما ترجمة للآخر. ويوجد من كليهما نسخ عديدة في مكتبات أوروبا (ريو Rieu ص٤٥١).

(٣) أبو منصور عبد القاهر بن ظاهر بن محمد البغدادي الفقيه الأصولي الشافعي المتوفى سنة ١٠٣٧/٤٢٩.

(٤) صدباب سجزي، هو أحد مؤلفات أحمد بن عبد الجليل السجزي، وستأتي ترجمته.

(٥) تفسير النيريزي: النيريزي هو أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي، كان إمام عصره في العلوم الرياضية وخاصّة علم الهيئة، وكان معاصر للمعتضد بالله العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩ ومن ٨٩٢ ـ ٩٠١). ون جملة كتبه تفسير مجسطي بطليموس وهو المقصود بالذكر هنا. ونيريز بلد في فارس، تشتبه بتبريز كما يقول القفطي في ترجمته.

(٦) أبو معشرالبلخي: أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي من مشاهير منجّمي القرن الثالث الهجري. ابتدأ حياته كعالم من أصحاب الحديث، وكان يسكن غرب بغداد. وقد خاصم يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف المعروف وأثار عليه العامّة، وقد اتفق هذا مع جماعة من أصحابه ليحسنوا لأبي معشر تعلّم الحساب والهندسة، فأحبّهما وانكبّ على دراستهما ولكنّه لم يكمل له العلم بهما ورأى أن يتعلّم علم النجوم، فانقطع بذلك شرّه عن الكندي. ويُقال إنّه تعلّمه وهو في السابعة والأربعين. (انظر الحاشية ١٢).

وقد أمر خليفة بغداد المستعين بالله بضرب أبي معشر بالسوط لأنّه يتنبّأ بالأمور قبل وقوعها ويحدث أن تقع فعلاً، فلمّا مثل أبو معشر عن سرّ ضربه بالسوط قال: أصبت فعوقبت.

وتوفي أبو معشر في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٨٨٦/٢٧٢ (٨ مارس) وكان قد جاوز المائة سنة. ويذكر له ابن النديم والقفطي ما

يقرب من أربعين كتاباً، ويوجد من كتبه حوالي الإثني عشر كتاباً في مكاتب أوروبا (انظر تاريخ علوم العرب لبروكلمن، ج١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٧) أحمد عبد الجليل السجزي من مشاهير الرياضيين والمنجمين في القرن الرابع، وله تآليف كثيرة في علم النجوم والهندسة والحساب والهيئة، منها كتابه «الجامع الشاهي» وهو مجموعة من خمس عشرة رسالة في النجوم والاختيارات وزايرجات الطالع ونحوها، منه نسخة ممتازة في المتحف البريطاني (انظر ذيل فهرست الكتب العربي ريو ص٥٢٨). يقول السجزي في الورقة ٥٧ منها:

«وهذا جدول لمواضع الكواكب الثابتة في الطول والعرض لسنة ثلاثين وثلاثمائة من يزجرد بن شهريار...». وسنة ٣٣٠ يزدجردية توافق سنة ٣٥١ هجرية. ويقول في الورقة ٩٠: «إنّه يسوق السنين اليزدجردية حتّى سنة ٣٥٨» أي حتّى سنة ٣٨٠ هجرية. وعلى هذا يحدّد زمن كتابه.

وقد عاش غالب حياته في رعاية عضد الدولة الديلمي في شيراز (٣٣٨ ـ ٣٧٢ ومن ٩٤٩ ـ ٩٨٢) وكتب كثيراً من مؤلفاته باسمه.

وفي المكتبة الأهلية بباريس (Bibliothèqe Nationale) مخطوط من أقيم مخطوطاتها يحوي إحدى وأربعين رسالة في علم الحساب والهندسة والهيئة من تأليف علماء مختلفين من مشاهير الرياضيين؛ وهذه المجموعة مكتوبة بخط أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجزي، كتبها في السنوات: ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١ في شيراز أيام عضد الدولة الديلمي. وهو، ولو أنّه لم يذكر اسمه في كلّ الرسائل، إلّا أنّ الواضح أنّه كتبها بنفسه ما عدا الأخيرة التي كتبها

أحد مالكي هذه الرسائل في سنة ١٢٥٩/٦٥٨. أمّا هو فكان يكتب اسمه والتاريخ في آخر كلّ رسالة. فنجدُ في آخر الورقة ١٨ قوله:

«تمّت المقالة بحمد الله ومنّه، وصلّى الله على محمد وآله، وكتبه أحمد بن محمد بن عبد الجليل بشيراز في شهر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة».

وفي آخر الورقة ٧٥:

«تمّ ما وجد بخط أبي الحسن ثابت بن قرّة الصابي في هذا المعنى ولله الحمد وليّ العدل وواهب العقل كما هو له أهل، وكتبه أحمد بن محمد بن عبد الجليل من نسخة نظيف بن عيد النصراني المتطبّب بشيراز» - (نظيف النفس أو نظيف القس الرومي من أطباء عضد الدولة الديلمي وترجمته في تاريخ الحكماء القفطي ص٣٣٧ - ٣٣٨ وفي عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ج١، ص٢٣٨).

وفي آخر الورقة ١٢٢:

«تمّت المقالة في مساحة المجسمات المكافئة لثابت بن قرّة والحمدلله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين وعلى آلهن وكتبه أحمد بن محمد بن عبد الجليل بشيراز ليلة السبت لثمان بقين من ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة».

وفي آخر الورقة ١٣٦:

«تمّ كتاب إبراهيم بن سنان بن ثابت في مساحة القطيع المكافىء كتبه أحمد بن محمد ابن عبد الجليل بشيراز في ماه أزدى بهشت سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة يزدجردية، ولله الحمد والمنّة».

وسنة ٣٣٨ يزدجردية تطابق سنة ٣٥٩ هجرية.

وفي آخر الورقة ١٨٠ :

«تمّ كتاب أبي الحسن ثابت بن قرّة في الأعداد التي تلقّب بالمتحابة وهو عشرة أشكال كتبه أحمد بن محمد بن عبد الجليل بشيراز من نسخة أبي الحسن المهندس أيّده الله في آخر خرداد ماه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ليزدجرد».

وفي آخر الورقة ١٨٧ :

«تمّ بحمد الله ومنّه وصلّى الله على محمد وآله، كتبه أحمد بن محمد بن عبد اللجيل من نسخة سيدي أبي الحسن المهندس بإصلاحه بشيراز».

وقد فصلنا الكلام عن هذه التوقيعات لنبيّن أهمية هذه الرسائل وموضوعها.

ومجموع مؤلفات أحمد بن عبد الجليل السجزي الموجودة في مكاتب أوروبا تبلغ تسعة وعشرين مؤلفاً، منها خمس عشرة رسالة يتضمنها كتاب «جامع الشاهي» في المتحف البريطاني. (انظر ريو في ذيل كتالوج المخطوطات العربية ص ٥٢٨ ـ ٥٣٠ ـ

Rieu, Suppement to the catalogue of the Arabic Manuscirpts)

وثمان رسائل في المكتبة الأهلية بباريس (ص٤٣١ ـ ٤١٤ De Slane,).

Catalogue des Manuscrits Arabes de la Bibliothéque Nationale.

وله ست رسائل أخرى في المكاتب المختلفة بأوروبا. (انظر تاريخ علوم العرب لبروكلمن، ج١، ص٢١٩).

وعلاوة على هذه الرسائل التسع والعشرين فإنّ نظامي العروضي ينسب إليه ص٥٤ كتاب «صدباب»، كما ينسب إليه حاجي خليفة رسالة في الأسطرلاب (كشف الظنون باب الراء).

(٨) كوشيار الجبلي: هركيا أبو الحسن كوشيار بن لبّان بن باشهري الجيلي (من جيلان) من مشاهير المنجمين وكبار الفلكيين في عصره، لا توجد ترجمة حياته فيما لدينا من كتب. ويستنتج من كتاباته أنّه عاش في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري. وقد جاء في كتاب «مجمل الأصول» (المتحف البريطاني ٤٩٠ .Add الورقة ٢٢ (b)) وهو من كتبه المعروفة: «وكان من ابتداء الأدوار إلى عند حلول الشمس ٢٠ دردة و١٤ دقيقة من الحوت في سنة ٣٢١ ليزدجرد انقضت. . .» وسنة ٣٢١ يزدجردي تطابق ٣٤٢ هجري. ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب: «فأمّا مواضعها (الكواكب الثابتة) فهي لأوّل سنة إحدى وستين وثلاثمائة يزدجردية. . .» وهي تطابق سنة ٣٨٣هـ.

ومن هذا يتضح أنّه عاش بين سنتي ٣٤٢ و٣٨٣ هجرية، ومن هذا يعرف عصره (٩٥٢ و٩٩٣).

وقد ذكره صاحب كشف الظنون تحت «زيج كوشيار» في سنة ٤٥٩ وهو سهو واضح.

وله أربعة كتب في مكاتب أوروبا. (انظر بروكلمن: تاريخ علوم العرب، ج١، ص٢٢٢ ـ ٢٢٢).

(٩) مجمل الأصول لكوشيار: توجد منه نسخة ممتازة في المتحف البريطاني (٧٤٩٠ ـ Add). وقد ذكر حاجي خليفة «مجمل الأصول» و«مدخل في علم النجوم» على أنّهما كتابان، والحقيقة أنّهما كتاب واحد.

(١٠) كارمهتر: اسم كتاب في علم النجوم ألّفه حسن بن الخصيب من حذاق المنجمين في القرن الثاني الهجري ومن معاصري يحيى بن خالد البرمكي.

(انظر فهرست ابن النديم ص٢٧٦ وتاريخ الحكماء للقفطي ص١٦٥).

(١١) القانون المسعودي: من أجلّ وأنفس كتب أبي الريحان البيروني في علمي الهيئة والنجوم، ألّفه بين سنتي ٤٢٢ و٤٢٧ (١٠٣٠ و١٠٣٦) باسم السلطان مسعود الغزنوي.

والكتاب ينقسم إلى إحدى عشرة مقالة، كلّ مقالة مقسّمة إلى أبواب. وفي المتحف البريطاني نسخة كبيرة الحجم وممتازة منه تشتمل على ٢٦٢ ورقة. وقد ذكر ريو Rieu في ذيل المخطوطات العربية صفحات ٥١٣ ـ ٥١٩ فهرستاً كاملاً لأبواب وفصول هذا الكتاب.

(١٢) أبو سيف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسمعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي الحكيم المشهور الملقب فيلسوف العرب. وقد أشيع عنه أنّه يهودي والحقيقة أنّه عربي مسلم، وكان أجداده أمراء في الجاهلية وفي الإسلام، وتذكر كتب التاريخ كثيراً من مناقبم، وجدّه الأعلى أشعث بن قيس من الصحابة وقد ارتدّ أيام أبي بكر ثمّ عاد إلى الإسلام؛ وقد زوّجه أبو بكر أخته أم فروة فولدت محمد بن الأشعث جدّ صاحب الترجمة. ومحمد بن الأشعث هذا من أمراء بني أمية المشهورين؛ وهو الذي أسر مسلم بن عقيل بن عم الحسين بن علي (عليه السلام) في الكوفة وسلّمه إلى ابن زياد، وابنه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث خرج أيام الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان، وله فتنة معروفة؛ ووالد صاحب الترجمة يعوب بن إسحق بن الصباح كان أمير الكوفة من قبل المهدي والرشيد. ويقول القفطي في تاريخ الحكماء عن صاحب الترجمة:

«المشتهر في الملة الإسلامية بالتبحّر في فنون الحكمة اليونانية

والفارسية والهندية... ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتّى سمّوه فيلسوفاً غير يعقوب هذا».

وقال صاحب الفهرست (ص٢٧٧):

«كان أبو معشر أوّلاً من أصحاب الحديث ومنزله في الجانب الغربي من بغداد بباب خراسان وكان يضاغن الكندي ويغري به العامّة ويشنّع عليه بعلوم الفلاسفة فدسّ له الكندي من حسَّن له النظر في علوم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له فعدل إلى علم أحكام النجوم وانقطع شرّه عن الكندي بنظره في هذا العلم لأنّه من جنس علوم الكندي» وبقية الحكاية خرافة.

والكندي من أعظم الفلاسفة وأشهر الأطباء والرياضيين العرب، وهو في تبحّره في العلوم وكثرة تآليفه يضارع أرسطو وابن سينا. وقد صنّف في شتى العلوم من المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والموسيقى والنجوم والطب ما يقرب من سبعين ومائتين بين كتاب ورسالة، وقد قسّمها ابن النديم (ص٢٥٥) إلى سبعة عشر نوعاً. وله في مكاتب أوروبا ما يقرب من عشرين كتاباً ورسالة (بروكلمن، ج١، ص٢٠٩ ـ ٢١٠).

ويقول عنه الأستاذ مسنيون:

«إنّه إمام أوّل مذهب فلسفي إسلامي في بغداد وله أبحاث طريفة، ثمّ إليه يرجع الفضل بعد ذلك في تحرير جملة من التراجم العربية لمصنّفات يونانية في الفلسفة»[١].

والمرجح أنّ الكندي ولد حوالي سنة ١٨٥/٨٠١، كما ذهب ده

---

(١) Recueil de texts inédits concernant l'histoire de la Mystique en pays de l'Islam, Paris, 1929.

بوير De Boër في دائرة المعارف الإسلامية، وأنّه توفي في أواخر سنة ٢٥٢/٨٦٦ كما يرجح المغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا (ص٥١ من فيلسوف العرب والمعلم الثاني).

راجع في ترجمته: الفهرست ص٢٥٥ ـ ٢٦١؛ وتاريخ الحكماء للقفطي ص٣٦٦ ـ ٣٧٨؛ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ج١، ص٢١٦ ـ ٢١٤؛ وتاريخ أبي الفرج المعروف بابن العبري ص٢٥٩ ثمّ الأبحاث التي ذكرت في «فيلسوف العرب والمعلم الثاني».

(١٣) ملك الجبال، يعني قطب الدين محمد بن عز الدين حسين أوّل الملوك الغورية الذي قتله بالسم بهرامشاه الغزنوي.

(١٤) دشت خوزان: تطلق خوزان على عدّة مواضع منها قرية في نواحي پنجديه وهي المقصودة هنا.

(١٥) محمد خان المعروف بإرسلان خان بن سليمان بن داود بن بغراخان بن إبراهيم طفغاج خان بن إيلك خان نصر بن علي بن موسى بن ستق من ملوك ما وراء النهر الخانية ولّاه السلطان سنجر سنة ٤٩٥/١١٠١ سلطنة بلاد ما وراء النهر بعد قتل قدر خان جبريل وبعد تسع وعشرين سنة، سنة ٥٢٤/١١٢٩ أسره وخلعه. (ابن الأثير سنة ٥٠٧).

(١٦) هذا سهو، فإنّ المؤرخين متفقون على أنّ نظام الملك قتل في نهاوند.

(١٧) أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيامي (أو الخيام) النيسابوري من مشاهير الفلاسفة والرياضيين في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل رباعياته

التي كتبها في أوقاع فراغه شحذاً للذهن وترويحاً عن النفس. وقد ترجم له أو ذكر بعض أخباره معظم كتّاب التراجم الفارسية والعربية.

وأقدم الكتب التي تحدّثت عن الخيام كتاب «چهار مقاله» فإنّ مصنّف هذا الكتاب كان معاصراً للخيام، وقد كان معه في مجلس من مجالس السرور في سنة ١١١٢/٥٠٦، ثمّ إنّه زار بره في سنة ٥٣٠/ ١١٣٥.

ثمّ تردّد اسم الخيام في أشعار خاقاني شرواني المتوفّى على الأرجح سنة ١١٩٨/٥٩٥.

ومن بعده ذكره الشيخ نجم الدين أبو بكر الرازي المعروف بداية في كتاب مرصاد العباد الذي ألّفه سنة ٦٢٠/ ١٢٢٣. وقد نقل القزويني نص هذا الكتاب عن الخيام من «المظفرية»[1] (٣٤١ ـ ٣٤٢).

وأقدم الكتب التي تناولت ترجمة الخيام بعد مرصاد العباد كتاب نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تواريخ الحكماء المتقدمين والمتأخرين لشمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري الذي ألّف ما بين سنتي ٥٨٦ ـ ٦١١ (١١٩٠ ـ ١٢١٤). وهذا الكتاب مكتوب باللغتين الفارسية والعربية، وقد نقل القزويني النص العربي عن المظفرية:

---

(١) «مجموعة» ألّفها أحد عشر معلماً من تلاميذ الأستاذ ڤكتور رزن بمناسبة مضي خمسة وعشرين عاماً على تعليمه اللغة العربية في جامعة بطر سبورج، وفي سنة ١٨٩٧ طبعت هذه المجموعة وسمّيت «المظفرية» نسبة إلى ڤكتور أستاذهم ومعناه بالعربية «المظفر». وقد كتب ولانتن ژوكوفسكي (Valentin Zhukivski) من كبار المستشرقين الروس وأحد تلاميذ كتور رزن مقالة نفيسة عن الخيام والنص الذي ينقله القزويني مذكور في صفحات ٣٢٧ ـ ٣٢٩ من المظفرية.

وهو هذا:

«عمر الخيامي النيسابوري الآباء والبلاد. وكان تلو أبي علي في أزاء علوم الحكمة إلّا أنّه كان سيىء الخلق ضيق العطن، وقد تأمّل كتاباً بأصفهان سبع مرّات وحفظه وعاد إلى نيسابور فأملاه فقوبل بنسخة الأصل فلم يوجد بينهما كثير تفاوت، وله ضنَّةبالتصنيف والتعليم وله مختصر في الطبيعيات ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ. ودخل الخيام على الوزير عبد الرزاق وكان عنده إمام القرّاء أبو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القرّاء في آية فقال الوزير على الخبير سقطنا فسأل الخيام فذكر اختلاف القرّاء وعلّل كلّ واحد منها وذكر الشواذ وعلّلها وفضّل وجهاً واحداً، فقال الغزالي كثر الله في العلماء مثلك فإنّي ما ظننت أنّ أحداً يحفظ ذلك من القرّاء فضلاً عن واحد من الحكماء. وأمّا أجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها...

ودخل الخيامي على السلطان سنجر وهو صبي وقد أصابه الجدري فلمّا خرج سأله الوزير كيف رأيته وبأي شيء عالجته، فقال عمر: الصبي مخوف. فرفع خادم حبشي ذلك إلى السلطان. فلمّا برأ السلطان أبغضه وكان لا يحبّه. وكان ملكشاه ينزله منزلة الندماء والخاقان شمس الملوك في بخارى يعظّمه غاية التعظيم ويجلسه معه على سريره. وحكى أنّه كان يتخلّل بخلال من ذهب وكان يتأمّل الإلهيات من الشفاء فلمّا وصل إلى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين وقام وصلّى وأوصى ولم يأكل ولم يشرب فلمّا صلّى العشاء الأخيرة سجد وكان يقول في سجوده اللّهم إنّي عرفتك على مبلغ إمكاني فاغفر لي فإنّ معرفتي إياك وسيلتي إليك

ومات (رحمه الله). وله أشعار حسنة بالفارسية والعربية ومنها:

يدبر لي الدنيا بل السبعة العلى
بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطري

أصوم عن الفحشاء جهراً وخفية
عفافاً وإفطاري بتقديس فاطري

وكم عصبة ضلّت عن الحق فاهتدت
بطرق الهدى من فيضي المتقاطر

وقال:

إذا قنعت نفسي بميسور بُلغة
يحصلها بالكد كفى وساعدي

أمنت تصاريف الحوادث كلّها
فكن يا زماني موعدي ومساعدي(1)

متى دنت دنياك كانت مصيبة
فواعجباً من ذا القريب المباعد

إذا كان محصول الحياة منية
فشتان حالاً كلّ ساع وقاعد

وقال:

زجيت دهراً طويلاً في التماس أخ
يرعى ودادي إذا ذو خلة خانا

---

(1) في كتاب تاريخ القفطي جاءت هذه الأبيات هكذا:

أمنت تصاريف الحوادث كلّها — فكن يا زماني موعدي أو مواعدي
أليس قضى الأفلاك في دورها بأن — تعيد إلى نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً في مقيلك إنّما — تخرّ ذراه بانقضاض القواعد

فكم ألفت وكم آخيت غير أخ

وكم تبدّلت بالإخوان إخوانا

وقلت للنفس لما عزّ مطلبها

بالله لا تألفي ما عشت إنسانا[1]

ويلي الشهرزوري وفقاً للترتيب الزمني كتاب كامل التواريخ لابن الأثير الذي ألّف سنة ٦٢٨ (١٢٣٠) وقد ذكر الخيام في كلامه عن حوادث سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) حيث ال:

«وفيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين وجعلوا النيروز أوّل نقطة من الحمل وكان النيروز بل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت، وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم وفيها أيضاً عمل الرصد للسلطان ملكشاه واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عمله، منهم عمر بن إبراهيم الخيامي وأبو المظفر الاسفزاري وميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم، وخرج عليه من الأموال شيء عظيم وبقي الرصد دائراً إلى أن مات السلطان سنة خمس وثمانين وأربعمائة فبطل بعد موته».

ثمّ يذكر القزويني روايات القاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الفقطي في تاريخ الحكماء (٦٢٤ ـ ٦٤٦/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٨)؛ وزكريا بن محمد بن محمود القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد (٦٧٤/ ١٢٧٥)؛ ورشيد الدين فضل الله في جامع التواريخ (فارسي ٧١٨/ ١٣١٨)، وخسرو ابرقوهي في فردوس التواريخ (فارسي ٨٠٨/ ١٤٠٥)؛ وأحمد بن نصر الله تتوى في تاريخ ألفي (فارسي ١٠٠٠/ ١٥٩١) وهو الكتاب الذي ألّفه باسم أكبرشاه

---

(١) ينسب الثعالبي في يتيمة الدهر هذه الأبيات لأبي سهل النيلي.

الهندي والذي ضمنه الوقائع المهمة في الألف سنة الأولى من تاريخ الإسلام.

وقبل أن ننتقل من ذكر أهم المصادر التي أشار إليها القزويني في حواشيه على عمر الخيام نذكر رأيه في الرواية الشائعة عن صداقة الخيام ونظام الملك وحسن الصباح وهي الرواية التي يتحدّث عنها القزويني عندما يذكر نص رشيد الدين في جامع التواريخ. يول إنّ هذه الرواية مذكورة في كثير من كتب التاريخ مثل جامع التواريخ وتاريخ گزيده وروضة الصفا وحبيب السير تذكرة دولتشاه والكتاب المنسوب إلى نظام الملك والمسمّى «وصاياي نظام الملك» وغيرها، كما أنّها مذكورة في مقدمة ترجمة رباعيات الخيام إلى الإنكليزية. وهو يرى أنّ التواريخ الخاصّة بميلاد هؤلاء الثلاثة ووفاتهم تجعل القول بصداقتهم أيام الطفولة بعيد الاحتمال. ذلك أنّ نظام الملك ولد سنة ٤٠٨/ ١٠١٧، وأمّا الخيام والصباح فتاريخ ميلادهما مجهول ولكن أوّلهما مات سنة ٥١٧/ ١١٢٣ وثانيهما سنة ٥١٨/ ١١٢٤. فإذا كانت أعمارهم متاربة حسب هذه الرواية، فإنّ كلاً من الخيام والصباح يكون قد عمّر أكثر من مائة سنة، وهذا القدر ولو أنّه غير محال إلّا أنه مستبعد.

وأغلب الكتاب الأوربيين يجعل وفاة الخيام في سنة ٥١٧/ ١١٢٣، وأمّا بروكلمن في كتابه تاريخ علوم العرب[1] فيحدّد لهذه سنة ٥١٥/ ١١٢١. وليس هناك ما يؤيّد إحدى الروايتين تأييداً قاطعاً. ويظهر من كتاب «چهار مقاله» أنّ وفاة الخيام كانت بين سنتي ٥٠٨

---

(١) الجزء الأوّل ص٤٧١: Geschichte der Arabischen Litteratur.

٥٣٠، لأنّ العروضي السمرقندي مؤلف الكتاب رأى الخيام في سنة ٥٠٨، وزار قبره في نيسابور سنة ٥٣٠[١].

* * *

رسائل الخيام

والمصنفات التي تنسب إلى عمر اخيام هي:

رسالة في الجبر والمقابلة. وقد نشرها مع ترجمتها الفرنسية Woepcke في باريس سنة ١٨٥١ باسم L'Algèbre d'Omar Al-Khayyam.

رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس وهي مخطوطة في مكتبة ليدن (بروكلمن، ج١، ص٤٧١).

الزيج الملكشاهي وكان الخيام أحد واضعيه.

مختصر في الطبيعيات.

رسالة في الوجود وهي بالفارسية وقد كتبها باسم فخر الملك بن مؤيد (لعلّه ابن نظام الملك) وهي محفوظة في المتحف البريطاني ((٥١) Or. ٦٥٧٢) وعنوانها في المخطوط المذكور هو: رسالة بالعجمية لعمر بن الخيام في كليات الوجود.

رسالة في الكون والتأيف. وقد جاء ذكرها في ترجمة الشهرزوري للخيام.

رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم

---

(١) ص٧٠ (الترجمة العربية).

مركب منهما. وهي محفوظة في مكتبة جوتا في ألمانيا (نمرة ١١٥٨، بروكلمن، ج١، ص٤٧١).

رسالة عنوانها: لوازم الأمكنة في الفصول وعلّة اختلاف هواء البلاد والأقاليم.

وقد نسبت الرسالتان الأخيرتان إلى الخيام في التاريخ الألفي.

* * *

رباعيات الخيام

وأمّا رباعيات الخيام التي اشتهر بها في الشرق والغرب فقد طبعت مرّات في إيران والهند، وقد لاحظ القزويني (ص٢٢١) أنّ كثيراً من هذه الرباعيات منسوب خطأ إلى الخيام، فمنها ما هو لعبدالله الأنصاري وأبي سعيد أبي الخير وحافظ الشيرازي وغيرهم. وقد استطاع ژوكوفسكي Zhukovski في المظفرية أن ينسب ما يقرب من اثنتين وثمانين رباعية إلى أصحابها الحقيقيين؛ ولا شك أنّ الدراسة المستمرة قد تؤدّي إلى تحقيق أبعد مدى[1].

وقد ظهرت الرباعيات باللاتينية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والدنمركية، كما ترجمت مرّات للعربية. وشهرة الخيام في إنكلترا وأمريكا تفوق شهرته في بلاده، وذلك بفضل ما أتيح لهذه الرباعيات من الترجمة الدقيقة التي صاغها الشاعر الإنكليزي فيتز جرالد Fetz Gerald، فهي في فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها تقارب

---

(١) تحدّث في هذا الموضوع تفصيلاً الأستاذان السيد محمد علي فروغي والدكتور قاسم غني في بحث لهما عن الخيام طبع بطهران حديثاً.

النص الفارسي وقد انتشرت هذه الترجمة في لندن سنة ١٨٥٩، ثمّ كثرت الترجمات وتعدّدت إلى حد أن أصبح من الصعب حصرها. وقد أصبحت «الأدبيات العمرية» طابعاً تمتاز به بعض الكتابات الأدبية. ولمن يريد أن يعرف بالتفصيل تراجم الرباعيات المختلفة ومقارنتها ببعضها أن يرجع إلى الرباعيات التي نشرها Nathan Haskell Dole في لندن سنة ١٨٩٨ في مجلدين مصوّرين.

وفي سنة ١٨٩٢ تأسّست في لندن جمعية اتّخذت لها منتدى سمّته «منتدى عمر الخيام» أسّسه جماعة من الفضلاء والأدباء وأصحاب الجرائد الإنكليزية. وفي ١٨٩٣ غرست هذه الجماعة على قبر فيتز جرالد عودين من الورد الأحمر، ثمّ وضعت على القبر لوحة جاء فيها :

هذا الورد الأحمر قد زرع في حديقة كيو Kew Garden وقد جيء ببذوره من مقبرة عمر الخيام في نيسابور، جاء به من هناك وليم سمپسن William Simpson، وغرسه جماعة من المعجبين بفيتز جرالد من منتدى عمر الخيام في ٧ أكتوبر سنة ١٨٩٣.

(١٨) الإمام مظفرالاسفزاري أحد عظماء المنجمين، وهو الذي كلّفه السلطان ملكشاه، مع جماعة من المنجمين وبينهم الخيام، بعمل التقويم الجلالي المعروف بالرصد الملكشاهي. ويسمّيه ابن الأثير (حوادث سنة ٤٦٧) أبا المظفر الاسفزاري.

(١٩) «چون در سنة ثلثين بنيسابور رسيدم چهار سال بود تا آن بزرگ روى در نقاب خاك كشيده بود».

«فلمّا بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة، وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى».

يبدو اختلاف النسخ في هذه الجملة مهماً. ذلك أنّ نسخة برون

Browne التي نقلت عن نسخة استنبول، التي هي أصحّ وأقدم النسخ الأربع لكتاب «چهار مقاله» والتي نسخت في مدينة هراة سنة ٨٣٥/ ١٤٣١، تنص على كلمة «أربع سنوات» كما نرى؛ وأمّا النسخ الثلاث الأخرى، نسختا المتحف البريطاني بلندن والنسخة المطبوعة في طهران، فتنص على كلمة «بضع سنين»، فإذا صحّت رواية نسخة استنبول فإنّ وفاة عمر الخيام تقع في ٥٢٦/ ١١٣١ لا في ٥١٧/ ١١٢٣ أو ٥١٥/ ١١٢١ كما هو مشهور.

(٢٠) گورستان حيره: حيرة الكوفة محلة كبيرة ومشهورة خارج نيسابور على طريق مرو.

(٢١) يراد به صدر الدين أبو جعفر محمد بن فخر الملك أبي الفتح المظفر بن نظام الملك الطوسي. وقد قتل السلطان سنجر والده فخر الملك وكان وزيره وذلك في سنة ٥٠٠/ ١١٠٦ ثمّ أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنة ٥١١/ ١١١٧ بيد أحد المماليك كما هو مذكور في تاريخ السلجوقية لعماد الدين الأصبهاني (ص٢٦٥ ـ ٢٦٧ من طبعة هوتسما) وفي ابن الأثير (حوادث سنة ٥١٣).

(٢٢) هذا سهو في الكتابة فإنّ صدقة بن مزيد لم يقصد الاستيلاء على بغداد ولم يكن بينه وبين الخليفة لمستظهر الله وحشة، إنّما كان الخلاف بينه وبين السلطان محمد بن ملكشاه (حوادث ابن الأثير سنة ٥١٣).

(٢٣) ذكر حمد الله المستوفي في تاريخ گزيدة سنة ٥٤٤/ ١١٤٩ بدلاً من ٥٤٧/ ١١٥٢ ـ ٣ وهو خطأ ظاهر.

(٢٤) السلطان علاء الدنيا والدين يعني السلطان علاء الدين الغوري المعروف بجهانسوز.

(٢٥) باب أوبة، قرية من أعمال هراة وينسب إليها أو بهي.

(٢٦) شمس الدولة والدين محمد بن مسعود ثاني الملوك الشنسبانية في باميان وهو ابن الملك فخر الدين مسعود.

(٢٧) يرنقش هر يوه هو أحد كبار أمراء السلطان سنجر (الأصفهاني ص٢٢٤ ـ ٢٧٦).

(٢٨) حسام الدولة والدين هو ابن آخر للملك فخر الدين مسعود.

(٢٩) المقصود بخداوند ملك معظم الملك فخر الدين مسعود أوّل الملوك الشنسبانية في باميان.

حواشي المقالة الرابعة

(١) «مسائل حنين بن إسحق»: اسم هذا الكتاب «المسائل في الطب للمعلمين». ويوجد منه نسخ متعدّدة في مكاتب أوروبا.

انظر فهرست ابن النديم ص٢٩٤؛ وتاريخ الحكماء للقفطي ص١٧٣؛ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ج١، ص١٩٧؛ وتاريخ علوم العرب لبروكلمن، ج١، ص٢٠٥؛ وكشف الظنون باب الميم.

(٢) «مرشد محمد بن زكريا الرازي»: اسم هذا الكتاب «الفصول في الطب» ويعرف باسم المرشد.

وقد ترجم للاتينية حوالي سنة ١٥٠٠ في البندقية، ثمّ طبع عدّة مرّات بعد ذلك. ولم يذكره حاجي خليفة.

انظر فهرست ابن النديم ص٣٠١؛ والقفطي ص٢٧٥؛ وابن أبي أصيبعة، ج١، ص٣٢١؛ وبروكلمن، ج١، ص٢٣٤.

(٣) يقول ابن أبي أصيبعة في ترجمة النيلي:

«هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز النيلي، مشهور بالفضل، عالم بصناعة الطب، جيّد التصنيف، متفنّن في العلوم الأدبية، بارع النظم والنثر» ثمّ يذكر بعض أشعاره.

«وللنيلي من الكتب: اختصار كتاب المسائل لحنين؛

وتلخيص شرح جالينوس لكتاب الفصول لبقراط مع نكت من شرح الرازي».

ويذكره الثعالبي في يتيمة الدهر فيقول عنه وعن أخيه:

«أبو عبد الرحمن محمد بن عبد العزيز النيلي هو وأخوه أبو سهل من حسنات نيسابور ومفاخرها، فأبو عبد الرحمن من الأعيان الأفراد في الفقه، وأبو سهل من الأعيان الأفراد في الطب، وما منهما إلّا أديب شاعر آخذ بأطراف الفضائل».

ومن هذا يتبيّن أنّ النيلي من أهالي نيسابور وأنّه كان معاصراً أو قريباً من الثعالبي ولكن لا ندري إلى أي شيء تنسب كلمة النيلي.

(٤) «ذخيرة ثابت بن قرة»، يشك القفطي (ص١٢٠) في نسبة هذا الكتاب لثابت.

(٥) «كتاب المنصوري» أو «كتاب الطب المنصوري»، كتاب في الطب يحتوي على عشر مقالات، وتوجد منه نسخ كثيرة. وقد ألّفه محمد بن زكريا الرازي باسم حاكم الري منصور بن محمد بن إسحق بن أحمد بن أسد، الذي كان والياً على الري من قبل ابن عمّه أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد ثاني ملوك السامانيين، وقد لبث في هذه الولاية ست سنين (٢٩٠ ـ ٢٩٦/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨)؛ ومنصور هذا هو الذي خرج على نصر ابن أحمد ثالث السامانية.

انظر ياقوت في معجم البلدان، ج٢، ص٩٠١، وقد جاء فيه سهواً أنّ منصور هو ابن أخي أحمد بن إسماعيل الساماني بدلاً من ابن عمّه؛ وانظر حاجي خليفة تحت «كفاية المنصوري»؛ وابن الأثير في حوادث سنة ٣٠٢/ ٩١٤.

ويقول القوزويني في حواشيه ص٢٣٢:

«هذا هو القول الصحيح عن المنصور الذي ينسب إليه كتاب المنصوري، والمؤرخون جميعاً - عدا ياقوت - لم يعرفوا من هو المنصور هذا؛ فابن خلكان في ترجمة محمد بن زكريا الرازي يذكر قولين: أحدهما أنّ كتاب المنصوري كتب باسم منصور بن نوح ابن نصر سادس ملوك السامانيين، وعلى هذا الرأي نظامي العروضي (ص٧٩)، وهو رأي بعيد عن الصواب لأنّ الرازي توفي سنة ٣١١/ ٩٢٣ أو ٣٢٠/ ٩٣٢ بينما كانت سلطنة منصور بن نوح من سنة ٣٥٠/ ٩٦١ إلى ٣٦٠/ ٩٢٣، وقول ابن خلكان بأنّ الكتاب وضع أيام طفولة منصور قول غير مقبول، والقول الثاني هو أنّ الكتاب صنّف باسم أبي صالح منصور بن إسحق ابن أحمد بن نوح، وهو قول صحيح بشرط أن تستبدل كلمة نوح بكلمة أسد.

أمّا محمد بن إسحق النديم في كتابه الفهرست (ص٢٩٩/ ٣٠٠)، والقفطي (ص٢٧٢)، وابن أبي أصيبعة (ج١، ص٣١٠) فينسبون الكتاب إلى منصور بن إسماعيل، وليس في التاريخ ملك يعرف بهذا الاسم. ويذكره ابن أبي أصيبعة في موضع آخر (ج١، ص٣١٣) باسم منصور بن إسماعيل بن خاقان صاحب خراسان وما وراء النهر، ولا يعرف في التاريخ ملك بهذا الاسم أيضاً. ثمّ هو يذكره في موضع ثالث (ج١، ص٣١٧) باسم منصور بن إسحق ابن إسماعيل بن أحمد، ولو حذفنا كلمة إسماعيل من سلسلة النسب هذه لكان هو الشخص الذي عناه ياقوت».

(٦) «أغراض الطب» كتاب في علم الطب باللغة الفارسية ألّفه زين الدين إسماعيل ابن حسن الحسيني الجرجاني لخّصه عن كتابه

«ذخيرهٔ خوارزمشاهي) حسب أمر مجد الدين أبي محمد الصاحب بن محمد البخاري وزير آتسز خوارزمشاه (سنة ٥٢١ ـ ٥٥١).

انظر ابن أبي أصيبعة (ج٢، ص٣٢)؛ وكشف الظنون باب الألف، وEthè في فهرست .India Office

(٧) «كتاب الحاوي»، ويعرف باسم «الجامع الحاضر لصناعة الطب» هو أعظم وأهم مؤلفات محمد بن زكريا الرازي، وقد كانت مسودات هذا الكتاب ـ بعد وفاة مؤلفه ـ عند ابن العميد وزير ركن الدولة الديلمي، فرتبها مستعيناً ببعض تلاميذ الرازي. وتوجد من الكتاب نسخ كثيرة في أوروبا، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع في بروشيا بإيطاليا سنة ١٤٨٦، ثمّ أعيد طبعه في البندقية بين سنتي ١٥٠٩، ١٥٤٢.

انظر الفهرست ص٣٠٠؛ وكامل الصناعة لعلي بن عباس المجوسي طبعة بولاق ص٥؛ والقفطي ص١٧٤؛ وابن أبي أصيبعة، ج١، ص٣١٤ ـ ٣١٥؛ وكشف الظنون باء الحاء وبروكلمن، ج١، ص٢٣٤.

(٨) «كامل الصناعة الطبية» المعروف بالمَلَكي، كتاب مبسوط في الطب باللغة العربية تأليف علي بن العباس المجوسي الأهوازي الأرّجابي المتوفى سنة ٣٨٤/ ٩٩٤، وهو من أشهر أطباء عصره، كان طبيباً خاصّاً لشاهنشاه عضد الدولة الديلمي، وسبب تسمية الكتاب بالملكي يذكره المؤلف في الديباجة حيث يقول: «إذ كان صنفته للملك الجليل عضد الدولة»، والمتن العربي للكتاب طبع في مصر (بولاق) ولاهور. وقد ترجم للاتينية وطبع في سنة ١٤٩٢ في البندقية كما طبع في ليدن سنة ١٥٢٣.

ويعرف مؤلفه في العصور الوسطى في أوروبا باسم Haly Abbas ويحمل لقب المجوسي. وقد طبع في القاهرة في جزءين سنة ١٢٩٤/ ١٨٧٧، وطبع في لاهور على الحجر سنة ١٢٨٣/١٨٦٦.

والجزء الأوّل منه يحتوي على الجانب النظري، والجزء الثاني يبحث عن الناحية العملية. وكلّ من الجزأين يحوي عشر مقالات، وكلّ مقالة تنقسم إلى عدّة فصول. والمقالتان الأولى والثانية من الجزء الأوّل خاصتان بالتشريح وتحتويان على ثلاثة وخمسين فصلاً، وقد نشرها مع الترجمة الفرنسية في ليدن سنة ١٩٠٣ الدكتور كوننج Koning في كتاب عنوانه: ثلاث رسائل عربية في التشريح (Trois Traités d'Anatomie Arabe) وقد نقل الدكتور لوسيان لوكلرك Lucien Leclerc القسم الافتتاحي من الجزء الأوّل في كتابه تاريخ الطب العربي Histoire de la Médecine Arabe ـ ج١، ص٣٨٢ ـ ٣٨٨.

وأمّا صاحب الكتاب فيلقب بالمجوسي ويرى القزويني أنّه كان مجوسياً وأنّ طبيعة بولاق قد أظهرت كلمة مجوسي بتشديد الجيم لتنصرف الكلمة عن معناها. أمّا بروز Browne (ص١٤٥ من ترجمة «چهار مقاله») فيرى أنّه كان مسلماً وسمّي بالمجوسي واستدل على ذلك بكلمتي علي والعباس. وقد ردّ القزويني على ذلك بأنّ أسماء إسلامية كثيرة تدخل في أسماء كثير من النصارى واليهود والمجوس. ونحن إلى رأي برون Browne أميل، فإنّ الظاهر من اسم الرجل يدل على أنّه مسلم وأنّ والده مسلم، وقد يكون أحد أجداده مجوسياً ولكنّه أسلم.

(٩) «صد باب» ويعرف في الطب باسم «كتاب المائة في الطب» أو «المائة مقالة»، ألّفه أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي

الجرجاني؛ ولد في جرجان وأتمّ دراسته في بغداد. وهو من مشاهير أطباء القرن الرابع الهجري وأحد أساتذة ابن سينا. وقد كان من العلماء الذين أحاطهم مأمون بن محمد خوارزمشاه وولده أبو العباس مأمون بن مأمون الذي قتل سنة ١٠١٦/٤٠٧ ـ ٧ بالعطف والرعاية.

ويذكر صديقه أبو الريحان البيروني أسماء اثنتي عشرة رسالة تولاها أبو سهل باسمه، منها مبادىء الهندسة، ورسوم الحركات في الأشياء ذوات الوضع، والتوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس في المحرّك الأوّل، ودلالة اللفظ على المعنى، وسبب برد أيام العجوز، وآداب صحبة الملوك وغيرها... (الآثار الباقية، ٤٨ ـ ٤٩ من الديباجة).

وقد حدّد وستنفلد Wüstenfeld سنة ٣٩٠/ ١٠٠٠ تاريخاً لوفاة أبي سهل، ولكن لا يُعرف على أي أساس وضع هذا التاريخ.

انظر نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء لشمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري (المتحف البريطاني ورقة ١٧١ (١) نمرة Add. 32,365)؛ والقفطي ص٤٠٨/ ٤٠٩؛ وابن أبي أصيبعة ج١ ص٣٢٧ ـ ٣٢٨ وج٢ ص١٩؛ وكشف الظنون باب الميم، ووستنفلد ص٥٩؛ وبروكلمن ج١ ص٢٣٨.

(١٠) «ذخيرة خوارزمشاهي»: كتاب مفصّل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألّفه زين الدين (شرف الدين) أبو إبراهيم إسمعيل بن حسن بن أحمد بن محمد الحسيني الجرجاني المتوفى بمرو سنة ١١٣٦/٥٣١ وهو يقول في ديباجة كتابه أنّه وضعه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسّس الأسرة الخوارزمشاهية سنة

٥٠٤/ ١١١٠. ويوجد نسخ كثيرة من هذا الكتاب، ومن كتب المؤلف الأخرى، في مكتبات أوروبا.

وقد ذكر ريو Rieu في فهرست الكتب الفارسية (ص٤٦٦ ـ ٤٦٨) ترجمة المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه.

وقد لاحظ برون Bowne (ص١٥٨) أنّه قد يكون أوّل مسلم يستعمل اللغة الفارسية في المواضيع العلمية أو على الأقل هو أوّل من عرفنا كتبهم.

انظر معجم البلدان ج٢ ص٥٤؛ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ص١٣٧؛ وابن أبي أصيبعة ج٢ ص٣١ ـ ٣٢ وكشف الظنون باب الذال، ووستنفلد ص٩٥، وبروكلمن ج١ ص٤٨٧؛ وايتي Ethè ص٩٥١؛ وبرون في فهرست مكتبة كمبريدج ص٢١١.

(١١) «تحفة الملوك»: لم يجد القزويني اسم هذا الكتاب في كتب الرازي.

(١٢) «الكفاية» لابن مندويه الأصفهاني وهو أبو علي أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه، من مشاهير أطباء القرن الرابع الهجري، كان معاصراً لعضد الدولة الديلمي (٣٣٨ ـ ٣٧٢/ ٩٤٩ ـ ٩٨٢)، وكان من الأطباء الأربعة والعشرين الذين استدعاهم عضد الدولة للعمل في بيمارستان بغداد الذي شيّده وجلب له أشهر الأطباء من جميع البلاد.

وكان ابن مندويه، علاوة على نبوغه في الطب، أديباً وشاعراً ممتازاً، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة له ما يقرب من خمسين رسالة وكتاب ومنها كتاب «الكافي في الطب» الذي أشار إليه نظامي العروضي باسم «الكفاية».

ولا يعرف إذا كان قد بقي شيء من مؤلفاته.

راجع القفطي ص٤٣٨، وابن أبي أصيبعة ج٢، ص٢١ ـ ٢٢.

(١٣) «تدارك أنواع الخطأ في التدبير الطبي» هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلي وزير علي بن مأمون خوارزمشاه الذي ولي الملك سنة ٣٨٧/٩٩٧، وقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٣٠٥/١٨٨٧ باسم «دفع المضار الكلية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير»، على حاشية كتاب «منافع الأغذية ودفع مضارها» لمحمد ابن زكريا الرازي (بولاق - مصر).

(١٤) «خُفَّيْ علائي» كتاب مختصر في الطب باللغة الفارسية ألّفه زين الدين إسماعيل بن الحسن الحسيني الجرجاني (انظر الحاشية ١٠ من حواشي هذه المقالة)، وهو يقول في الديباجة أنّه وضعه كمختصر لكتابه «ذخيرهٔ خوارزمشاهي» بأمر من علاء الدولة آتسز خوارزمشاه، وأنّه سمّاه خُفيْ علائي؛ وإذاً فقد تمّ تأليف الكتاب بعد سنة ٥٢١/١٢٢٧ التي ولي فيها آتسز.

وخُفّيْ من الخف، والمؤلف يقول في تعليل هذا الاسم إنّه اختصره على جلدين من القطع الطويل حتّى يمكن الاحتفاظ بهما دائماً في الخفين. وعلائي نسبة إلى علاء الدولة وقد صرّح المؤلف في الديباجة بأنّه لقب من ألقاب آتسز خوارزمشاه.

انظر نسخة الكتاب في المتحف البريطاني رقم ٥٦٠ و٢٣ .Add الورقة ٢١٩؛ وابن أبي أصيبعة ج٢ ص٣٢؛ وكشف الظنون في باب الخاء؛ وفهرست ريو Rieu ص٤٧٥.

(١٥) «يادگار» سيد بن إسمعيل الجرجاني. هو كتاب مختصر في علم الطب ألّفه زين الدين إسماعيل بن حسن صاحب خفي علائي. ومنه نسخة في مكتبة تيپو سلطان.

انظر ابن أصيبعة، ج٢، ص٣٢؛ وكشف الظنون باب الياء؛ وفهرست مكتبة تيپو سلطان تأليف ستيوارت Stewart ص١٠٧.

(١٦) المقصود ببُختيشوع واحد من اثنين: بختيشوع بن جورجس الجنديسابوري طبيب هرون الرشيد، الذي لا نعلم تاريخ وفاته، ومن الممكن أن يكون قد أدرك عصر المأمون. أو حفيده بختيشوع بن جبريل بن جورجس المتوفى سنة ٨٦٩/٢٥٦ والذي كان من أطباء المأمون في أواخر حياته، وكان طبيباً للخلفاء الآخرين بعد موته لغاية المهدي. وكلمة بختيشوع من بخت (بوختن أو بختن) بمعنى أن ينجي أو يخلص، ويشوع هي الكلمة المسيحية المعروفة.

انظر ابن النديم ص٢٩٦؛ والقفطي ص١٠٠ ـ ١٠٤؛ وابن أبي أصيبعة، ج١، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(١٧) النص الفارسي لهذه العبارة: وجان برميان بست.

(١٨) هذه الحكاية مبنية على خطأ واضح في الأسماء، فإنّ سلطنة منصور كانت من سنة ٣٥٠/ ٩٦١ إلى ٣٦٦/ ٩٧٦ ووفاة الرازي في سنة ٣١١/ ٩٢٣ أو ٣٢٠/ ٩٣٢. انظر تعليق برون ص٨٤.

(١٩) أسرة المأمونيين ولاة خوارزم:

يظهر في هذه القصة خلط بين أسماء الأمراء، فآثر القزويني أن يفصل القول في تاريخ هذه الأسرة.

حكمت هذه الأسرة بلاد خوارزم ومن هنا سمّيت بالخوارزمشاهيين. وقد بدأوا حياتهم كولاة تابعين للسامانيين، وفي الفترة بين سقوط الدولة السامانية وقيام الدولة الغزنوية كانوا شبه مستقلين، ثمّ عادوا حكاماً تحت حماية الغزنويين.

ولا نعرف مؤسّس هذه الأسرة على وجه التدقيق، ولكن اسمهم يرد في التاريخ منذ سنة ٣٨٠/ ٩٩٠. وها هي أسماؤهم كما جمعها القزويني من بطون الأسفار:

١ ـ مأمون بن محمد بن خوارزمشاه: وقد ابتدأ حياته والياً على

جرجانية (گركانج) وفي سنة ٣٨٥/ ٩٩٥ حارب أبا عبد الله خوارزمشاه ثمّ قتله واستولى على أملاكه. وفي سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ توفي (ابن الأثير حوادث سنة ٣٨٥، ٣٨٧).

٢ ـ علي بن مأمون بن محمد خوارزمشاه: ولي العرش بعد أبيه سنة ٣٨٧/ ٩٩٧، وتزوج من أخت السلطان محمود، ولا نعلم تاريخ وفاته. وفي عهده جاء ابن سينا إلى خوارزم فأكرم هذا الوالي وفادته. وقد وزر له أبو الحسين السهيلي، وخلفه في الوزارة أخوه أبو العباس.

٣ ـ أبو العباس مأمون بن مأمون بن محمد خوارزمشاه: وهو المقصود في حكاية «چهار مقاله». حكم خوارزم بعد وفاة أخيه. وهو من أفاضل الملوك الذين صادقوا أهل العلم والحكمة، فكان بلاطه مجمعاً لهم فألّفوا كتباً كثيرة باسمه. وقد تزوج من أخت السلطان محمود كما فعل أخوه من قبل، وكانت الصلة بينهما وطيدة بل أن يسيء السلطان به الظن فيرسل إليه رسولاً يأمره بأن تكون الخطبة باسمه. وقد اضطر أبو العباس لقبول طلب السلطان محمود الغزنوي، ولكن الأمراء رفضوا طاعته وثاروا به فقتلوه سنة ٤٠٧ ـ ١٠١٦، وذلك بعد عودة رسول السلطان. وكان عمره حين قتل اثنتين وثلاثين سنة.

٤ ـ أبو الحارث محمد بن علي بن مأمون بن محمد خوارزمشاه: وهو ابن أخي أبي العباس وقد نصبه الأمراء بعد قتل عمّه. ولكن السلطان محمود الغزنوي أرسل جيشاً بعد قليل مطالباً بدم زوج أخته أبي العباس، وقد فتح الجيش الغزنوي مملكة خوارزم سنة ٤٠٨ ـ ١٠١٧، وأسر أفراد الأسرة المأمونية وحملهم معه إلى غزنة. وهكذا انقرضت هذه الأسرة.

وفي هذا الفتح يقول العنصري في مطلع قصيدة معروفة له:

چنين نمايد شمشير خسروان آثار

چنين كنند بزرگان چو كرد بايد كار

بتيغ شاه نگر نامهٔ گذشته مخوان

كه راست گوئى تراز نامه تيغ أو بسيار

يقول: هكذا يظهر السيفُ الملكي الآثار، وهكذا يفعل العظماء إذا لزم القتال.

انظر سيف الملك، ولا تقرأ كتب الأوّلين، فإنّ سيفه أكثر إنباءً من الكتب.

وقد ذكر هذه الواقعة بالتفصيل أبو الفضل البيهقي في كتابه «تاريخ مسعودي» الذي استقى معلوماته من كتاب «مشاهير خوارزم» لأبي الريحان البيروني، وهو كتاب مفقود، ويعلم منه أنّ البيروني مكث في بلاط أبي العباس خوارزمشاه سبع سنين (٤٠٠ ـ ٤٠٧ فيما يظهر) ١٠٠٩ ـ ١٠١٦، وكان من خاصّة المقرّبين، وقد حضر الفتنة وقَتْلَ الأمراء إيّاه.

وقد لاحظ القزويني أنّ القاضي أحمد الغفاري في «تاريخ جهاز آرا» قد اعتمد غالباً على نص «تاريخ گزيده» فخلط بين أسرتي المأمونيين ولاة خوارزم مع أسرة الفريغونيين ولاة جوزجان من قبل السامانيين والغزنويين.

انظر «تاريخ بيهقي» طبع طهران ص٤٠٠ ـ ٤٠٧؛ وشرح تاريخ اليميني، طبع القاهرة، ص٢٥٨؛ وابن الأثير في حوادث سنة ٤٠٧.

(٢٠) أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلي هو وزير علي بن مأمون خوارزمشاه وأخيه أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه.

من أفاضل الوزراء، وكان صديق العلماء. وقد هاجر في سنة ٤٠٤/ ١٠١٣ من خوارزم إلى بغداد خوفاً من خوارزمشاه أبي العباس، فاتّخذها موطناً له. وتوفي في ١٠٢٧/٤١٨ في مدينة سر من رأى. وقد قال عنه ابن سينا في ترجمة حياته التي رواها عنه تلميذه أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني:

«ودعتني الضرورة إلى الارتحال عن بخارى والانتقال إلى گرگانج، وكان أبو الحسين السهيلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً، وقدمتُ إلى الأمير بها وهو علي بن مأمون وأثبتوا لي مشاهرة دارّة بكفاية مثلي...».

وقد جاء هذا النص في ترجمة القفطي وابن أبي أصيبعة لابن سينا. وذكر ياقوت في معجمه كلاماً مطولاً عن هذا الوزير.

(٢١) أبو الخير الخمار هو الحسن بن سُوار بن بابا بن بهرام (أو بهنام في رواية ابن أبي أصيبعة) المعروف بابن الخمار النصراني الفيلسوف المنطقي الطبيب المشهور. ولد في بغداد سنة ٣٣١/ ٩٤٢ وقرأ علوم الفلسفة والمنطق على يحيى بن عدي المنطقي المشهور وبلغ الغاية القصوى في هذين الفنين. وبعد أن أكمل علوم الحكمة والطب ذهب إلى خوارزم واتّصل بخدمة مأمون بن محمد خوارزمشاه وعاش في كنف الخوارزمشاهية إلى أن فتح السلطان محمود بلادهم سنة ٤٠٨ فحمله مع بقية العلماء إلى غزنة وكان عمره في ذلك الوقت قد جاوز المائة، فكان محمود يحسن معاملته إلى حد أن قالوا إنّه قبّل الأرض أمامه (ابن أبي أصيبعة، ج١، ص٣٢٢).

ومن صفات أبي الخير الخمار تواضعه الجم مع الفقراء وترفّعه مع الأغنياء والعظماء. فكان إذا قصد زيارة أهل العلم أو الزهد سار

على قدميه قائلاً إنّ السير على قدميه كفارة عن زيارته الجبابرة وأهل الفسق، وإذا ذهب لزيارة الملوك أو الأمراء ذهب في أبهة كاملة وسار في ركابه ثلاثمائة غلام تركي من الفرسان. وكان ذاهباً يوماً لزيارة محمود في غزنة، فقفز به الحصان فألقاه من على ظهره فمرض ثمّ مات. والواضح أنّه مات بعد سنة ٤٠٨/١٠١٧. وقد قال وستنفل إنّه مات سنة ٣٨١ وهو سهو كبير. وكان معاصراً لأبي الفرج محمد بن إسحق النديم صاحب الفهرست.

ويذكر أبو الخير ضمن المترجمين من السريانية إلى العربية الذين نقلوا عن تلك اللغة علوم الحكمة، وله في الطب والفلسفة والمنطق ما يقرب من خمسة عشر مؤلفاً. ولا ندري إذا كانت هذه الكتب قد ضاعت أم أنّها لم يعثر عليها بعد.

انظر ابن أبي أصيبعة، ج١، ص٣٣٣ حيث عدّد أسماء كتبه؛ والفهرست ص٢٤٥، ٢٦٥؛ ونزهة الأرواح وروضة الأفراح لشمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري (نسخة المتحف البريطاني)؛ والقفطي ص١٦٤.

(٢٢) أبو نصر العراق هو منصور بن علي بن العراق مولى أمير المؤمنين، من كبار الرياضيين في القرن الرابع الهجري ومن معاصري البيروني وقد كتب باسمه اثني عشر كتاباً في فنون الرياضة المختلفة.

يقول البيروني في بيان مؤلفاته في مقدمة الآثار الباقية ص١٧ :

«وما عمله غيري باسمي هو بمنزلة الربائب في الحجور والقلائد على النحور لا أميّز بينها وبين الأنهار (كذا) فممّا تولاه باسمي أبو نصر منصور بن علي بن العراق مولى أمير المؤمنين أنار الله برهانه:

كتابه في السموات، وكتابه في علة تنصيف التعديل عند أصحاب

السند هند، وكتابه في تصحيح كتاب إبراهيم بن سنان في تصحيح اختلاف الكواكب العلوية، ورسالته في براهين أعمال حَبَش بجدول التقويم، ورسالته في تصحيح ما وقع لأبي جعفر الخازن من السهو في زيج الصفائح، ورسالته في مجازات دوائر السماوات في الاسطرلاب، ورسالته في جدول الدقائق، ورسالته في البراهين على عمل محمد بن الصباح في امتحان الشمس، ورسالته في الدوائر التي تحد الساعات الزمنية، ورسالته في البرهان على عمل حبش في مطالع السمت في زيجه، ورسالته في معرفة القسي الفلكية بطريق غير طريق النسبة المؤلفة، ورسالته في حل شبهة عرضت في الثالثة عشرة من كتاب الأصول.

وآل العراق، كما يبدو من تضاعيف كتاب الآثار الباقية، كانوا من نسل ملوك خوارزم القدماء، قبل الإسلام، ونسبهم، على ما زعموا، يتّصل بكيخسرو، وكان لهذه الأسرة، حتّى أيام السامانيين، قدر من النفوذ والمكانة منذ العهد القديم، وكانوا يتوارثون الملك في خوارزم. والذي قبل الأخير منهم هو أبو سعيد أحمد بن محمد بن العراق، وهو الذي أصلح تقويم سنين وشهور أهل خوارزم، وآخرهم هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العراق الذي يعبّر عنه أبو الريحان بالشهيد. وقد قيل إنّهم يشبهون كثيراً من الملوك وأبناء البيوت القديمة الذين أزال محمود الغزنوي عروشهم ومكانتهم بسيفه. انظر الآثار الباقية ص٢٤١ حيث يتكلم عن مبدأ تاريخ أهل خوارزم ويشير إلى هذه الأسرة.

(٢٣) علفهٔ شگرف فرمود: العَلَفَة بفتحتين ما يقدّمه الملوك لاستقبال السفراء وما يلزمهم هم ومن معهم من الحاشية والدواب.

(٢٤) مهما يكن من أمر هذه القصة فإنّ ابن سينا في كتابه

القانون، ج٢، ص٧١ ـ ٧٢ (طبعة بولاق) يقول: «ويكون نبضه (أي نبض العاشق) نبضاً مختلفاً بلا نظام البتة، كنبض أصحاب الهموم، ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصّة وعند لقائه بغتة، ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق أنّه من هو إذا لم يعترف به، فإنّ معرفة معشوقه إحدى سبل علاجه، والحيلة في ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً، وتكون اليد على نبضه، فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً وصار شبه المنقطع ثمّ عاود وجربت ذلك مراراً علمت أنّه اسم المعشوق، ثمّ يذكر كذلك السكك والمساكن والحرف والصناعات والنسب والبلدان، وتضيف كلاً منها إلى اسم المعشوق، ويحفظ النبض حتّى إذا كان يتغيّر عند ذكر شيء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والحلية والحرفة وعرفته فإنّا قد جربنا هذا واستخرجنا به ما كان في الوقوف عليه منفعة. وقد رأينا من عادوته السلامة والقوّة وعاد إلى لحمه وكان قد بلغ الذبول وجاوزه وقاسى الأمراض الصعبة المزمنة والحميات الطويلة بسبب ضعف القوّة لشدّة العشق لما أحسّ بوصل من معشوقه بعد مطل معاودة في أقصر مدّة قضينا به العجب، واستدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية».

(٢٥) قال ابن سينا في ترجمة حياته (القفطي ص٤١٧؛ وابن أبي أصيبعة، ج٢، ص٤) بعد أن انتقل من خوارزم إلى خراسان:

«ثمّ دعت الضرورة إلى الانتقال من جاجرم إلى خراسان ومنها إلى جرجان وكان قصدي الأمير قابوس فاتفق في أثناء هذا القبض على قابوس وحبسه في بعض القلاع وموته هناك».

فيتضح من هذا القول إنّ ابن سينا لم يخدم قابوس بل إنّ هذا قد حبس قبل بلوغ ابن سينا جرجان وأنّه قتل بعد هذا بقليل سنة ٤٠٣/ ١٠١٢.

فهذه الحكاية غير صحيحة فيما يتعلق بملاقاة ابن سينا مع الأمير قابوس.

(٢٦) شاهنشاه علاء الدولة بن كاكويه هو الأمير علاء الدولة حسام الدين أبو جعفر محمد بن دشمنزيار المعروف بابن كاكويه صاحب أصفهان والملحقات. حكم من سنة ٣٩٨ إلى ٤٣٣ (١٠٠٧ ـ ١٠٤١) حين توفي. أمّا والده دشمنزيار فهو خال سيدة والدة مجد الدولة بن فخر الدولة الديلمي، والخال في لغة الديالمة يسمّى كا كو أو كا كوية؛ ومن هنا اشتهر علاء الدولة بابن كا كوية. (ابن الأثير حوادث سنة ٣٩٨، ٤٣٣؛ وتاريخ جهان آرا نسخة المتحف البريطاني الورقة ٦٥ رقم ١٤١ .or).

ولمصنف «چهار مقاله» في هذه الفقرة هفوتان:

الأولى أنّه يقول إنّ وزارة ابن سينا كانت في الري والواقع أنّها كانت في همدان. والثانية أنّه يقول إنّ ابن سينا كان وزيراً لعلاء الدولة والواقع أنّه لم يزر له مطلقاً.

وقد اشتبه على المصنّف علاء الدولة مع شمس الدولة بن فخر الدولة الديلمي أخي مجد الدولة المذكور، لأنّ ابن سينا وزر مرّتين لشمس الدولة، ما بين سنتي ٤٠٥/ ١٠١٤ ـ ٤١٢/ ١٠٢١. وبعد وفاة شمس الدولة وجلوس ابنه سماء الدولة على العرش ذهب الشيخ إلى أصفهان واتّصل ببلاط علاء الدولة بن كا كوية وصار من خواصه المقرّبين وكتب باسمه كتباً كثيرة، وظلّ في خدمته إلى آخر عمره ولكنّه لم يزر له.

انظر القفطي ص٤١٩ ـ ٤٢٦، وابن أبي أصيبعة، ج٢، ص٥ ـ ٩.

(٢٧) بياره' فيقرا: ياره كلمة طبية تعرف ب ـ أَيَارَجْ وهو تركيب من الأدوية مسهل ومصلح.

وفيقرأ كلمة يونانية معناها مر، فيكون أيارج فيقرا هو الأيارج مع الصبر.

انظر ابن سينا في القانون، ج٣، ص٣٤٠.

(٢٨) «المعالجة البقراطية»، كتاب موجود في مكتبة ديوان الهند بلندن (India Office) كما أنّه موجود في مكاتب أكسفورد ومبيونيخ. وهوينقسم إلى عشر مقالات واسم الكتاب في آخر معظم المقالات «المعالجات البقراطية»، ويذكر اسم المؤلف أيضاً في آخر كلّ مقالة بأنّه أبو الحسن أحمد بن محمد الطبري، وبهذا الاسم يذكره ابن أبي أصيبعة ويصرّح بأنّه كان في أوّل الأمر طبيباً لأبي عبد الله البريدي (الذي كان والياً على الأهواز والذي وزر مرّتين للراضي والمتقي العباسيين، ويضرب به المثل في الجور ويُقال إنّه يلي الحجاج بن يوسف في ذلك). ثمّ إنّ الطبري هذا أصبح من أطباء ركن الدولة الديلمي (٣٢١ ـ ٣٦٦/ ٩٣٣ ـ ٩٧٦) وذلك بعد وفاة البريدي سنة ٣٣٢/ ٩٤٣. ابن أبي أصيبعة، ج١، ص٣٢١؛ ووستنفلد في تاريخ الأطباء ص٥٦، وبروكلمن في تاريخ علوم العرب، ج١، ص٢٣٧.

(٢٩) كيا الرئيس بهمنيار بن مرزبان الآذربيجاني المجوسي، من مشاهير تلاميذ الشيخ أبي علي سينا. كانت وفاته في حدود سنة ٤٥٨/ ١٠٦٥. ويوجد في مكاتب أوروبا رسائل من مؤلفاته. وقد طبعت له رسالتان في ليبزح سنة ١٨٥١ هما: رسالة في موضوع علم ما بعد الطبيعة، ورسالة في مراتب الموجودات.

وقد ذكر بروكلمن أنّه مات سنة ١٠٣٨/٤٣٠، خطأ،

انظر ابن أبي أصيبعة، ج٢، ص١٩، ١٠٣؛ وبروكلمن، ج١، ص٤٥٨.

(٣٠) أبو منصور بن زيله الأصفهاني، من مشاهير تلاميذ ابن سينا وقيل إنّه كان يدين بمذهب زردشت، وهو غير محقق. توفي سنة ١٠٤٨/٤٤٠، وفي المتحف البريطاني كتابان له هما:

الكافي في الموسيقى.

وشرح قصة حيّ بن يقظان لأبي علي بن سينا. ولم يذكره بروكلمن في كتابه.

انظر نزهة الأرواح للشهروزوري (نسخة المتحف البريطاني ورقة ١٧١)، وكشف الظنون في رسالة حي بن يقظان.

(٣١) عبد الوحد الجوزجاني هو أبو عبيد عبد الواحد بن محمد الفقيه الجوزجاني (ويذكر خطأ بالجرجاني) من خواص وتلامذة الشيخ الرئيس أبي علي سنا. اتّصل به في جرجان حوالي سنة ١٠١٢/٤٠٣ ويقول ابن سينا في ترجمة حياته:

«ثمّ مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضاً شديداً وعدت إلى جرجان واتّصل بي أبو عبيد الجوزجاني. ويقول أبو عبيد في ديباجة الشفا:

«ويممت بجرجان وسنّه قريب من اثنتين وثلاثين سنة». ولأنّ ولادة الشيخ كانت في ٩٨٠/٣٧٠ فإنّ اتّصال أبي عبيدالله به كان في حدود سنة ١٠١٢/٤٠٣. وقد ظلّ متّصلاً به حوالي خمس وعشرين سنة إلى آخر عمر الشيخ (١٠٣٧/٤٢٨). وكان يحثّ الشيخ على التأليف والتصنيف، وكان حظ ابن سينا من التأليف قد ضؤل لاشتغاله بالمسائل من الوزارة وغيرها فكان يكتب معظم كتاباته قبيل صلاة الصبح أو في أوقات الفراغ عندما يفرغ من الديوان، أو أثناء السفر

وقد أعان الجوزجاني شيخه في كثير من مؤلفاته ومنها كتاب الشفا. كما نشط الجوزجاني بعد وفاة الرئيس فجمع ما تفرّق من تصانيفه وتآليفه ودوّنها، ولولا ما بذله في هذا السبيل من الجهد لضاعت معظم كتب ابن سينا، فقد كانت عادة الشيخ أن يعطي كتبه لمن يطلبها من غير أن يحفظ لنفسه صورة منها.

وكتاب، «دانش نامهٔ علائي» الذي كتبه ابن سينا بالفارسية والذي يحوي فصولاً في المنطق والحكمة الإلهية والطبيعية والرياضية والهيئة والموسيقى والارثماطيقي والذي وضعه الشيخ باسم علاء الدولة أبي جعفر كا كوية باللغة الفارسية، لم يكن قد بقي منه بعد وفاة الشيخ غير الأجزاء الخاصّة بالمنطق والإلهيات والطبيعيات وتلف الباقي. ولكن الجوزجاني ـ كما يقول في ديباجة رياضيات دانش نامهٔ علائي ـ قد ترجم الارثماطيقي عن أرثماطيقي كتاب الشفاء ترجمة واختصاراً، كما نقل فصول الهيئة والموسيقى عن رسالة أخرى لابن سينا باللغة العربية، وهكذا رتّب الكتاب وأكمله. وتوجد اليوم من هذا الكتاب النفيس نسخ كثيرة في أوروبا منها اثنتان في المتحف البريطاني[١].

ومن آثار أبي عبيد الجوزجاني رسالة فيت رجمة حياة أبي علي بن سينا. والقسم الأوّل منها هو عين ما سمعه أبو عبيد من أستاذه. والقسم الثاني هو ما زاده أبو عبيد منذ بلغ جوزجان لخدمة أستاذه ابن سينا حتّى وفاته. وهذه الرسالة موجودة بالمتحف البريطاني[٢] وقد نقلها ابن أبي أصيبعة بتمامها واختصرها القفطي وذلك في ترجمتها لابن سينا.

---

(١) Add. 16, 830, Add. 16, 659. Ff. 258b - 342b. وقد نشره الأستاذ عباس إيال.

(٢) Add. 16, 659, ff. 4b - 7b.

ومن مؤلفات أبي عبيد الجوزجاني ديباجة كتاب الشفا، فكلّها بقلمه. ولا تعرف سنة وفاته[1].

(٣٢) وردت هذه الحكاية مع تعديل يسير في كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة وذلك في ترجمة ثابت بن قرّة. وظاهر أنّ في رواية «چهار مقاله» إهمالاً من النسخ وقد أكملها القزويني بعبارات أوردها بين قوسين.

(٣٣) شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري (٣٩٦/١٠٠٦ ـ ٤٨١/١٠٨٨) هو الإمام أبو إسمعيل عبد الله بن أبي منصور محمد بن أبي معاذ علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر ابن منصور بن مَتّ الخزرجي الأنصاري الهروي، ينتهي نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري من مشاهير الصحابة. وهو من أجلة العلماء والمحدّثين ومن أكابر الصوفية. كان حنبلي المذهب يميل إلى التجسيم والتشبيه، وكان شديد التعصّب لرأيه. وقد لقي من الفلاسفة وعلماء الكلام مشقة وعنفاً بسبب هذا التعصّب حتّى قصدوا هلاكه أكثر من مرّة.

من ذلك ما رواه الذهبي أنّه حين جاء الپ إرسلان مع نظام الملك إلى هراة اجتمع العلماء واتفقوا على إحراجه لإضعاف مكانته عند نظام الملك، فسأله أحدهم عن سبب لعن الأشعري ـ وكان نظام الملك أشعري المذهب ـ فلم يجبه الشيخ. فأطرق نظام الملك قليلاً

---

(١) تراجم «نزهة الأرواح وروضة الأفراح» للشهرزوري. مخطوط المتحف البريطاني .Add. 23, 365, f. 172 والقفطي ص٤١٣ ـ ٤٢٦. وابن أبي أصيبعة، ج٢، ص٢ ـ ٩. وريو Rieu في فهرس النسخ الفارسية بالمتحف البريطاني ص٤٣٣.

ثمّ قال أجبه يا شيخ، فال: إنّي لا أعرف الأشعري ولكنّي ألعن من لا يعتقد بوجود الله في السماء.

ويروي الذهبي أيضاً أنّه في رحلة الألپ إرسلان إلى هراة اتفق العلماء ووجوه المدينة على إغارة صدر السلطان على الأنصاري، فلمّا اجتمعوا بالسلطان شكوا منه ـ وكانوا قد وضعوا صنماً صغيراً من النحاس في محرابه ـ وقالوا إنّ الشيخ يقول بالتجسيم وإنّ في محرابه صنماً يقول إنّ الله على صورته، ثمّ قالوا: إنّ للسلطان أن يحضره إذا شاء. فغضب السلطان وأرسل من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر. ثمّ إنّ السلطان أمر بأن يؤتى بالشيخ فجاء ووجد العلماء ووجوه المدينة جالسين ووجد صنماً أمام السلطان الذي كان حنقاً أشدّ الحنق. فسأله السلطان ما هذا؟ فقال الشيخ هذا تمثال عُمل لعبة للأطفال. فقال السلطان غاضباً لست أسأل عن هذا فال الشيخ عمّ تسألون يا مولاي. فأجابه إنّ هذه الجماعة تقول إنّك تعبده وتقول إنّ الله على صورته. فقال الشيخ: سبحانك هذا بُهتان عظيم. قالها بهيبة وقوّة فأدرك السلطان أنّ الجماعة قد افترت عليه كذباً، فاعتذر له وأعاده إلى بيته معزّزاً مكرماً، واعترف الجماعة بأنّهم دبّروا هذا الكيد للشيخ للخلاص منه وممّا يلاقون من تعصّبه، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بثمن غال فرضه عليهم عقاباً.

ويعرف الشيخ في إيران بخواجه عبد الله الأنصاري، وله بالفارسية أشعار ورباعيات غاية في العذوبة. وهو يسمّى نفسه في أشعاره: پير أنصار أو پير هري أو الأنصاري. ومن مؤلفاته «مناجات». وكان يقرأ في مجالسه كتاب «طبقات الصوفية» لعبد الرحمن السلمي

ويزيد عليه بعض التراجم الأخرى وقد جمع أحد مريديه أماليه عن هذا الكتاب باللسان الهروي القديم. وفي القرن التاسع الهجري نقل مولانا عبد الرحمن الجامي هذه الأمالي من اللهجة الهروية إلى اللغة الفارسية مضيفاً إليها تراجم جديدة وذلك في كتابه المعروف بنفحات الأنس.

وقد صنّف الأنصاري بالفارسية والعربية ومن كتبه:

ذم الكلام بالعربية في المتحف البريطاني (٥٢٠ و٢٧ .Add).

منازل السائرين إلى الحق المبين وهو بالعربية أيضاً ومنه نسخ كثيرة في مكتبات أوروبا (ريو ص٧٣٨).

مناجاة[1] وزاد العافية وكلاهما بالفارسية.

أسرار وهو بالفارسية أيضاً وقد بقيت منه منتخبات (ريو ص٧٧٤).

رسالة أنوار التحقيق[2].

وقد نشر «إلهي نامه» مع ترجمة فرنسية الأب دي بوركي De Beaurcueil في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٤٧[3].

(٣٤) الكوامخ جمع كامخ معرب كامه.

(٣٥) رواصير أو رواسير، ما يطبخ من البقول في الماء ويضاف

---

(١) طبعت في برلين (كاوياني) سنة ١٩٢٤.

(٢) طبعت في شيراز سنة ١٣٥١ (أحمد كريم التبريزي).

(٣) انظر الصفحة الأولى من بحثه حيث ذكر أسماء الرسائل التي يحويها المخطوط الذي أخذ عنه وعددها ثمان.

إليه الزيت والترشي والأدوية الحارة. ولا نعرف أصل هذه الكلمة ومن أي لغة هي.

(٣٦) أنبجات جمع أنبجة معرب أنبه وهو الفاكهة الهندية المعروفة التي تمتزج بالعسل وتطلق كلمة أنبجات اليوم على أي فاكهة تعمل مربى مع العسل بحيث أصبحت الكلمتان أنبجات ومربيات مترادفتين.

(٣٧) تقدّمت ترجمة أبي الحسن علي بن مسعود بن الحسين وشمس الدولة والدين وملك ملوك الجبال.

الفهرس

هذا الكتاب

اجتمعت لكتاب چهار مقاله أمور جعلت له خطراً كبيراً بين كتب التاريخ والأدب. فهو من الكتب الفارسية القديمة، ألّف في حدود سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥ ـ ١١٥٦) ومعلوم أنّ الكتب والآثار الأدبية التي كتبت باللغة الفارسية قد ضاع معظمها في الغارات التي شنّها على إيران المغول والغز وغيرهم ولم يبق من هذه الكتب إلّا القليل ومنها كتاب «چهار مقاله»، الذي يعدُّ من خير هذه الآثار وأقومها.


ISBN 978-9933351755

